



اللعبة القذرة

د. خالد النجار

دراسة

بسم الله الرحمن الرحيم

اللعبة القذرة

الحمد لله الذي أمرنا بالسداد في القول والعمل، فقال جل شأنه: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا * يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٧٠-٧١].

والصلاة والسلام على نبي الرحمة ونبي الملحمة الذي حذرنا من الظلم وعواقبه، فقال -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: (يَا أَيُّهَا النَّاسُ، إِيَّاكُمْ وَالظُّلْمَ، فَإِنَّ الظُّلْمَ ظُلُمَاتٌ يَوْمَ الْقِيَامَةِ). [أحمد: صحيح]

أما بعد:

فإن أصل هذا الكتاب هو بعنوان «قراءات سياسية» عمدت فيه إلى استخلاص زبدة ما في أربعة كتب سياسية تتكلم عن دهاليز عالم السياسة، إلا أنني رأيت العدول عن هذا العنوان تجنباً للمشاكل، خاصة وأن هناك حساسية مفرطة جداً تجاه الحديث عن السياسة وأهلها، فسميت الكتاب «اللعبة القذرة».

ومحور هذا الكتاب يدور حول الوجه الحقيقي للسياسة الغربية المعاصرة ومن دار في فلکها من أبناء جلدتنا، وأقصد بالوجه الحقيقي تلك الأحداث اللاأخلاقية التي تتسم بها هذه السياسة في جل أحوالها.

ولست أعني الوجه الآخر للسياسة، لأنها سياسة مشينة في لبها وكيانها وليس لها أنماط أخرى مثالية أو أوجه أخلاقية غير أمام الكاميرات وأثناء الخطب الرنانة في ساحات الجماهير.

ولقد سلطت الضوء على هذه الفكرة من خلاصة أربعة كتب:

- «الأمير» مكيا فيللي
- «السياسة والأخلاق؛ من يحكم من؟» عزيز الخزرجي
- «لعبة الأمم.. اللاأخلاقية في سياسة القوة الأمريكية» مايلز كوبلاند
- «السياسة والجنس» د. سليمان المدني

هذا وقد أفردت خلاصة كل كتاب على حدة، ليتسنى للقارئ الملول مطالعة أي كتاب يريد دون تتبع باقي سردية الكتاب الشامل، كما أضفت الكثير من الأقوال والأحداث لتدعيم الفكرة.

والكتاب ليس بحرا من الأسرار وليس هتكا للأعراض، فكل ما فيه منشور مسبقا ومتداول للقاصي والداني، ولكنها نقطة ضوء مسلطة على السياسة المعاصرة اللاأخلاقية، مُظهرها بشاعة أمرها ونتن رائحتها وسوء عاقبتها المتمثلة في الانحدار والنكسات المتوالية من جيل إلى جيل، وكأن العالم يسير إلى حتفه بإرادته.

إنها صرخة لأحد أبناء الجيل لإيقاظ الأجيال الحالية والقادمة، ﴿وَإِنْ تَتَوَلَّوْا يَسْتَبَدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَالَكُمْ﴾ [محمد: ٣٨]

جمع وترتيب

د/ خالد سعد النجار

alnaggar66@hotmail.com

****** تقول قصة رمزية أنه فوجئ راعي أغنام بسيارة جديدة تقف قريبا من قطيعه، ويخرج منها شاب قال له: إذا قلت لك كم عدد الأغنام التي ترعاها، هل تعطيني واحدة منها؟

دهش الراعي وأجاب: بلى.

فأخرج الشاب كمبيوتر صغير وأوصله بهاتفه النقال ودخل الإنترنت، وفتح برنامج تحديد المواقع عبر الأقمار الصناعية [جي.بي.أس GPS] ثم فتح بنك المعلومات وحصل على تقرير أجرى على أساسه حسابا، وعندها التفت نحو الراعي وقال له: "لديك ٦٤١ رأسا من الأغنام"، وكان الرقم صحيحا.

فقال له الراعي: تفضل باختيار الحروف الذي يعجبك.

فنزل الشاب من سيارته وحام بين القطيع ثم حشر الحيوان الذي أعجبه ووقع عليه اختياريه، حشره في الصندوق الخلفي للسيارة.

عندئذ قال له الراعي: لو استطعت أن أعرف طبيعة ونوع عملك هل تعيد إلي خروفي؟ فوافق الشاب.

فقال له الراعي: أنت رجل سياسة. فدهش الشاب وقال: هذا صحيح، ولكن كيف عرفت ذلك؟!

فال له الراعي: بسيطة

أولا: التطفل على أملاك الغير، والطمع في أي فئات منه، خاصية أولى للسياسيين، فلقد أتيت هنا دون أن يطلب منك أحد ذلك!

ثانيا: ادعاء معرفة أي شيء، والدليل أنك لم تعرف الفرق بين الكلب والخروف، ولم يعجبك من بين هذه الخراف إلا الكلب.

لذا أرجو أن تخرج كلبي من صندوق سيارتك لأنه ليس خروفا!!

****** يقول السياسي الأمريكي المخضرم (هنري كسينجر) في كتابه «الدبلوماسية والسياسة»: "ليس هناك عداوات دائمة ولا صداقات دائمة، إنما مصالح دائمة".

ويعتبر الكثيرون هذه المقولة هي عالم السياسة اليوم.. لكن وزيرة الخارجية الأمريكية السابقة (مدلين أولبرايت) تقول في بيانها الذي عرضته أمام لجنة الشؤون الخارجية بمناسبة ترشحها لهذا المنصب عام ١٩٩٥: "قال ممثل دولة أجنبية كبرى ذات مرة إن بلاده ليس لها حلفاء دائمون وإنما مصالح دائمة، ويمكن أن يقال عن أمريكا أنه ليس لها خصوم دائمون، بل فقط مبادئ دائمة".

****** إن السياسة أشبه بخنزير تربى في أقذر النفايات. فأصابه الجرب فأصبحت الحشرات ترعى بجسده من الخارج كما ترعى الديدان بلحمه من الداخل (وقد أثبت العلم الأخيرة).

****** يقول الإمام محمد البشير الإبراهيمي: أزعجني جرّبت ودرستُ، وأنني قرأت هذه الأمة وفهمتها كما أقرأ الكتاب وأفهمه، وما هذا ببعيد ولا كثير على من خدم أمةً ولا بسها عشرات السنين مُعلِّمًا مُدرِّسًا واعظًا خطيبًا، مُحاضرًا ينتزع مواضيع محاضراته من وجوه الجمهور قبل أعمالهم؛ وقد خرجتُ من هذه الدِّراسة الطويلة بنتائج جليّة يجب أن تُدوّن وأن تُكون دستورًا للعاملين، ولستُ بصدد تدوينها هنا، وإنما أسجّل واحدةً هي بسبيل ممّا نحن فيه؛ وهي أن هذه الأمة أصبحت كالتاجر الحذر من تقلُّب الأسواق، لا يُصارف إلاّ يدًا بيد؛ ومرجع ذلك فيها إلى أسباب معقولة، فقد ألحَّ عليها الدّجالون باسم الدِّين قرونًا، وراضوها على أن تُعطى ولا تأخذ، ولا تسأل لماذا؛ حتّى قامت حركة الإصلاح الدِّيني واكتسحت التّخريف فحرّرت الأمة من أولئك الدّجالين؛ ثمّ ظهر في الميدان دجّالون في صورةٍ أخرى وباسمٍ آخر وهو السِّياسة؛ والصّنفان يلتقيان في نقطة، وهي أن بضاعتهم عودٌ غرّارة، وبروقٌ كاذبة، وخيالات لا حقيقة لها، وأمانيّ لم تسلك لها وسائلها. ومقديّات لم تُربط بها نتائجها؛ لا إصلاحٍ لِمَا (فسد من الأخلاق)، ولا تقوية لِمَا (ارتخى من عُرى الأخوة)، ولا (بناءً لكيان الأمة) بالتّربية الصّالحة والتّعليم النّافع؛ يلتقيان أيضًا في نقطة أخرى وهي محاربة العلم ورجاله، ومقاومة التّعليم بجميع أنواعه؛ والباعث للفريقين على هذا واضح، وهو أنّ العلم نورٌ، وهم يعملون في الظّلام،

والعلم إيقاظٌ للأمة، وهم يريدون بقاءها في النوم لينالوا منها ما يريدون؛ وقد فات كُلاً من الفريقين أن الإلحاح على الفريسة يخلق منها مفترساً، وأن كثرة الوخز تثير الإحساس الكامن؛ وقد أصبحت هذه الأمة على كثرة الوخز حساسةً مهتاجةً لا تصدق إلا بالواقع، ولا تؤمن إلا بالمحسوس لما أحَّ عليها التّدجيل الذي يعدُّ ولا يُنجز، والدّجالون الذين يأخذون ولا يعطون؛ وإنّ هذا الخلق ليزداد فيها تمكُّناً على الأيام؛ وسينتهي بها إلى أن تصفّي حسابها مع من لم يصفّ حسابها معها، ولا يغترّ المغترّون بهذه الظواهر الهادئة، فما هي إلا أواخر فورةٍ، وأوائل ثورةٍ، {وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ}...

[آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي]

** تقول (جولدا مائير) رئيسة وزراء الكيان المغتصب «إسرائيل» في مذكراتها «حياتي»: إن العالم قاس وأناني ومادي. وهو لا يشعر بأي حساسية تجاه الدول الصغرى، بل إن أكثر الحكومات استنارة تلك الديمقراطيات التي يقودها زعماء رائعون ويمثلون شعوباً رائعة حتى هؤلاء لا يشغلون بالهم بمشاكل العدالة والعلاقات الدولية.

الأمير

١٤٦٩-١٥٢٧م

لم يتوقع نيقولا مكيافيللي أن كتابه «الأمير» الذي انتهى من كتابته قبل وفاته بأربعة عشر عاماً سيصبح مرجعاً سياسياً مهماً لكثير من قادة العالم عقب الثورة الصناعية. كما أنه لم يخل إليه أن يصبح الكتاب ذا أهمية في عالم السياسة. فكل ما كان يطمح إليه هو أن يقرأ الأمير هذا الكتاب ويعمل بما جاء به ويستطيع توحيد إيطاليا. لكن الكتاب أيضاً وفي نفس الوقت يعتبر عاراً يلاحق مؤلفه حتى بعد وفاته بعدة قرون.

** لم يكن نيقولا مكيافيللي مجرد كاتب أو فيلسوف أو صاحب نظرية، بل إنه كان مشتركاً بقوة في الحياة السياسية المضطربة وغير المستقرة التي مرت بها مدينة "فلورنسا" في الفترة التي عاش فيها.

** ولد نيقولا مكيافيللي عام ١٤٦٩م في أسرة عريقة، وكان "المديشيون" قد أقاموا حكماً استبدادياً، لكنه حافظ على الأنظمة الجمهورية القديمة، في حين سيطروا بشدة على زمام الحكم الحقيقي. ولم تكن أسرة مكيافيللي موالية الأسرة "ميديشي". وكان والد نيقولا مكيافيللي محامياً مشهوراً، وهو من كبار الداعين إلى الجمهورية.

** شب مكيافيللي في عهد أمير مديشي أطلق عليه أهل "فلورنسا" اسم "لورنزو العظيم". وقد اعتبر عهده عصرًا ذهبياً للنهضة الإيطالية.

كان "لورنزو" أديباً وشاعراً مفطوراً، فاهتم بالأدباء والفنانين وأهل العلم. لكنه مات عام ١٤٩٢م، واضطر خلفه "بييرو" إلى الخروج إلى المنفى بعد عامين، بعدما تعرضت المدينة لغزو جديد على يدي "شارل الثامن" ملك فرنسا. وقد ظهر راهب دومنيكاني اسمه "سافونارولا"، وتمكن من إصلاح الجمهورية، ونجح في إقامة حكومة دينية ما لبثت أن انحارت وأعدم الراهب وأحرقت جثته في عام ١٤٩٨م. وبعد بضعة أشهر انتخب

مكيافيللي سكرتيراً للمستشارية الثانية لجمهورية "فلورنسا" وهي تشرف على الشؤون الخارجية والعسكرية. وقد استمر "مكيافيللي" في الحكم ثلاثة عشر عاماً. ثم حدث ما لم يكن متوقعاً. حيث جاء الجيش الفرنسي مرة أخرى إلى "فلورنسا"، فاضطر أهلها إلى استدعاء أسرة مديشي، وبالتالي خرج "مكيافيللي" منفياً من مدينته.

** اعتمد "مكيافيللي" أثناء حياته في منفاه الريفي على دخل بسيط من ممتلكاته التي توجد في بعض الضواحي. وكان يستيقظ مبكراً ويخرج إلى الغابة يتحدث للحطابين ويتبادل معهم الأقاويل والشائعات. ثم يذهب إلى أحد التلال وحيداً، وهناك يقرأ لدانتي أو شيراك أو تيبولوس أو أفيد".

وبعد أن يتناول غداء خفيفاً، يمضي إلى الحانة فيتحدث مع الطحان والقصاب وبعض البنائين، ويقضي معهم طيلة فترة الظهيرة يلعبون الورق والنرد ويتشاجرون على دراه معدودة.

وعندما يأتي المساء، يعود للمنزل، ويغير ثيابه الريفية التي عادة ما تكون قد أصابتها الأوساخ والقاذورات أثناء جولته ويرتدي ملابس البلاط والتشريفات لكي يكون في صحبة من أحبهم ويدخل إلى مكتبته الخاصة. كان يعتبر ذلك هو حياته الفعلية وكان خلال ذلك الوقت يدون ملاحظات في كتاب صغير أسماه "الأمير".

** اعترم "مكيافيللي" بعد ذلك أن يهدي كتابه "الأمير" إلى أحد أفراد أسرة مديشي آملاً أن ينعموا عليه بمنصب جديد فيعود إلى حياة الخدمة العامة. وقد كتب بالفعل إهداء عنونه: من نيقولا مكيافيللي إلى لورنزو، الابن العظيم لبيرو دي مديشي. وهناك شك في أن يكون الكتاب قد قدم فعلاً إلى "لورنزو" قبل وفاته في عام ١٥١٩م. ولكن من المؤكد أن هذا الكتاب قد وزع بشكل ملحوظ وطبع مرات عديدة، لكنه لم يطبع إلا بعد خمس سنوات من وفاة "مكيافيللي" أي في عام ١٥٣٢.

**** كرم مكيافيللي في أواخر حياته بفضل جهود بعض أصدقائه، وذلك بأن أوفد في بعض البعثات غير ذات الشأن الكبير. كما أن الكردينال دي مديشي الذي أصبح البابا كليمنت فيما بعد قد أوكل إليه بكتابة "تاريخ فلورنسا" وخصص له راتباً سنوياً متواضعاً وفي تلك الأثناء ازدادت مشكلات إيطاليا وتعقد ما تعاني منه من مشاحنات وخصومات كل ذلك ساعد على مضاعفة شقاء مكيافيللي وتعاسته.**

فقد بدأ "لوثر" حركة الإصلاح الديني وتنافس "شارل الخامس" إمبراطور ألمانيا مع فرنسوا الأول ملك فرنسا من أجل السيطرة على إيطاليا، مما ألحق بروما الكثير من الخراب والتدمير وأدى إلى طرد عائلة مديشي مرة أخرى من فلورنسا.

**** وقد أعيدت طباعة كتاب "الأمير" عشرين مرة خلال عشرين عاماً. وإذا كان هناك بطل لهذا الكتاب فهو قيصر "بورجيا" الذي يخصص الفصل السابع من الكتاب لسرد أعماله ومآثره وصفاته والثناء عليه وإطرائه.**

وقد أخطأ مكيافيللي خطأ كبيراً عندما اختاره بطلاً لكتابه فقد اقترف هذا البطل جرائم كثيرة ليصل إلى السلطة، كما ارتكب جرائم أخرى بصورة عارضة. وقد ساهم ذلك الاختيار الخاطئ في تعميق اكتساب مكيافيللي للشهرة السيئة بعد وفاته، وعندما نشر الكتاب.

من نيقولا مكيافيللي إلى لورنزو الابن العظيم لبيرو دي مديشي

من المعروف أن أولئك الذين يسعون إلى نيل رضا أحد الأمراء يجتهدون في تقديم الهدايا الثمينة ذات القيمة الغالية إليه أو أنهم يهدونه أشياء يعلمون أنها تدخل البهجة والسرور إلى نفسه ويسعد بها، ويجب رؤيتها. وعلى هذا الأساس نجد أن غالب الأمراء يقبلون هدايا تتمثل في جياد أصيلة، أو أسلحة ثمينة، أو ثياب موشاة بالذهب أو الأحجار الكريمة، وما شابهها من تحف تليق بمكانتهم العظيمة.

ولكنني على أي حال أود أن أهدي سموكم الكريم شيئاً متواضعاً يدل على إخلاصي لكم. ولم أجد فيما أملك ما هو أغلى من معرفتي بأعمال ومنجزات عظماء

الرجال وهي معرفة اكتسبتها من خلال تجربة طويلة مررت بها وقد صاحبها العديد من الأحداث إضافة إلى ما درسته حول ما حدث في الماضي. وبعد تفكير عميق وبذل الكثير من الجهد في دراسة، وتأمل منجزات العظماء، أهدي سموكم اليوم ما توصلت إليه من نتائج، وقد وضعتها في هذا الكتاب الصغير.

**** مصوري المناظر الطبيعية ينزلون إلى الوديان ليتمكنوا من رسم الجبال. ثم إنهم يصعدون إلى أماكن مرتفعة حتى يتمكنوا من رؤية السهول والوديان. ولذلك فمن الضروري أن تكون أميراً حتى تعرف طبيعة شعبك كما أنه يجب أن تكون أحد الرعية أيضاً كي تعرف الحقائق المتعلقة بالأمراء.**

**** كل الدول تمارس السلطة وتسيطر على الشعوب. وهي إما جمهوريات أو ممالك والممالك إما أن تكون وراثية وحكامها من أسرة واحدة. وتستمر في الحكم لسنوات طويلة. أو أنها تكون ممالك حديثة النشأة. أو أن تكون قد انضمت حديثاً كأجزاء جديدة، تضاف إلى ممتلكات الأمير الموروثة.**

**** أول ما نلاحظه هو أن صعوبة الوصول إلى عرش الملك في مملكة وراثية اعتاد أهلها على الأسرة الحاكمة أقل بكثير من صعوبة الوصول إلى العرش في الممالك الجديدة حيث لا يكفي تجنب الأوضاع التي كان يتبعها السلف والتحسب لأي طارئ.**

وفي مثل هذه الحالة فإن الأمير وإن كان ذا قدرات عادية فإنه سيستطيع أن يحافظ على عرشه إلا إذا اضطرته قوة غير عادية شديدة إلى التخلي عنه وحتى إذا فقد عرشه، فإنه مع أول خطأ بسيط من المحتل، سيكون قادراً على استعادة العرش.

حيث إن الأمير الشرعي المحبوب من شعبه الذي لا توجد له رذائل مفضوحة أمام الناس لا يحب شعبه أن يتخلص منه، ومن الطبيعي لشعبه أن يتمسك به. ومن الطبيعي أيضاً أن يتناسى الأسباب والدواعي البسيطة التي تدعوه لتغيير الحاكم، حيث إنه إذا حدث تغيير مفاجئ، فإنه سيفسح الطريق أمام تغيير آخر.

**** لا تكمن الصعاب حقا إلا في الممالك الجديدة. فإذا كانت المملكة ليست جديدة بالكامل، أي أنها مملكة مختلطة بعضها حديث، والآخر قديم فإن الاضطرابات تحدث فيها بسبب الصعوبات الطبيعية التي تحدث في كل الممالك الجديدة، وذلك لأن الناس يذعنون لسادتهم بإرادتهم على أمل تحسن أحوالهم. وهذا الاعتقاد يجعلهم يحملون السلاح ضد حكامهم، وهم في ذلك مخدوعون حيث أثبتت التجارب فيما بعد أنهم يذهبون من سيئ إلى أسوأ.**

وهناك ضرر طبيعي وحتمي ينتج عن هذه الحالة وهو يقع على هؤلاء الذين ساعدوا الأمير في السيطرة على مملكته سواء كانوا جنوداً، أو مساعدين له، بالإضافة إلى الإصابات التي لا حصر لها التي تحدث بسبب احتلال جزء جديد.

وهكذا يتحول كل من أصيب في معركة قمت بها للسيطرة على الأرض إلى عدو لك، ولن تستطيع الحفاظ على صداقة من ساعدوك على الحصول على هذا الجزء من المملكة كما لن تستطيع تحقيق ما يتمنونه ولا أن تطبق عليهم قوانين صارمة حيث ستكون معترفا لهم بجميل مساعدتهم لك.

ولهذا السبب على أي حال، فإنك أيها الأمير ستكون في حاجة دائمة إلى حب الناس حتى تستطيع السيطرة على بلادهم مهما كانت قوة جيوشك وهذه هي الأسباب التي جعلت لويس الثاني عشر ملك فرنسا، وعلى الرغم من قدرته على احتلال "ميلان" بلا مشاكل، إلا أنه سرعان ما فقد السيطرة عليها حيث استطاعت قوات "لودوفيكو" بمفردها أن تستعيدها منه في المرة الأولى، وذلك لأن سكانها الذين فتحوا له بواباتها بإرادتهم قد اكتشفوا أنهم قد خُدعوا بآمال لم تتحقق ولم يحصلوا على أي ميزة كانوا يتوقعونها، فلم يتحملوا استمرار حكم ملكهم الجديد.

**** ومن المعروف أن الأقاليم التي تنمرد على أمرائها يصعب فقدانها مرة أخرى بعد استعادتها، حيث يصبح الحاكم ويسبب سابق تمردهم أكثر حرصاً على دعم موقفه ومعاينة المتمردين وكشف المرائين وتقوية نقاط الضعف.**

****** وأول ما يجب علينا أن نسأل عنه هو ما إذا كانت هذه الأقاليم تتكلم نفس لغة وجنسية الدولة التي تضمها أم لا. فإذا كانت اللغة والجنسية واحدة فإنه من السهل ضم هذه الأقاليم والسيطرة عليها خاصة إذا كانت هذه الأقاليم غير معتادة على التحرر.

ولكي نملكها بسلام يجب أن تُمحي الأسر التي كانت تحكمها من الوجود. أما بالنسبة لبقية الشعب فإنهم سيظلون تحت إمرة الأمير الجديد، طالما أنه لم يحدث ما يغير من ظروف حياتهم السابقة، أو يغير من عاداتهم.

ومن يسيطر على أراض ويريد أن يحتفظ بها لابد أن يضع في اعتباره أمرين أولهما القضاء على الأسرة الحاكمة السابقة قضاء مبرما، وثانيهما عدم تغيير أي قوانين أو ضرائب خاصة بهذه البلاد وبهذه الطريقة ستصبح جزءاً من الاتحاد في وقت قصير جداً، وتصبح الدولة كيانا واحداً.

****** ولكن عندما يكون شعب الأراضي المنضمة حديثاً يتحدث لغة مختلفة وقوانينه وعاداته مختلفة، فإن الصعوبات التي يجب التغلب عليها تصبح أكثر وتتطلب حظاً وقيلاً وحكمة للتغلب عليها.

وأحدى أفضل الطرق وأكثرها تأثيراً هي أن يقيم الحاكم الجديد في تلك الأرض. وهذا سيجعل ملكيته لها أكثر أمناً واستمراراً. وهذا هو ما فعله الأتراك في بلاد الإغريق فعلى الرغم من كل ما فعلوه هناك للسيطرة على الدولة لم يكن من الممكن المحافظة عليها، لولا أن الحاكم ذهب وعاش هناك فوجوده في موقع الأحداث يمكنه من معاصرة الاضطرابات، وهي لا تزال في المهد ومن ثم معالجتها بسرعة، إما إذا عاش بعيداً عن تلك الأرض فإنه سيعرف بحدوث الاضطرابات فقط عندما تكون قد تفاقت، وغير قابلة للعلاج.

كما أن رجال الأمير الرسميين لن ينهبوا البلاد، وسيسعد الرعايا بقربهم من الحاكم واتصالهم المباشر به.

وإذا أرادوا أن يكونوا مخلصين له، فإنهم سيجدون كثيراً من الأسباب ليجبوه. أما إذا ظلوا على ولائهم القديم، أو أنهم ينحازون ضد الحاكم الجديد فإن وجود الأمير الجديد قريباً منهم سيكون سبباً للردع والخوف منه. كما أن إقامته ستجعل أي قوى خارجية تهاب محاولة غزو تلك الولاية. وكلما طالت مدة إقامته فيها يصعب جداً تجريدته منها.

والعلاج الآخر وهو أفضل يتمثل في زرع المستعمرات في عدة أماكن مميزة بالأرض المستعمرة، ومن الضروري أن نفعل ذلك أو أن نحتفظ بعدد كبير من القوات المسلحة في نفس المكان والمستعمرات ستكلف الأمير أموالاً أقل، فهو يستطيع إرسال المستعمرين للإقامة هناك باستمرار بدون أي تكلفة مادية يدفعها أو بتكلفة قليلة والمضرة ستقع فقط على هؤلاء الذين ستؤخذ بيوتهم أو أراضيهم لمنحها للمقيمين الجدد، وهذا يعتبر نوعاً من الحماية للدولة، أما من تضرروا فإنهم لن يستطيعوا الانتقام من الحاكم إن ظلوا فقراء ومتفرقين.

أما الباقون الذين لم تصبهم مضرة فمن السهل تهدئتهم، حيث أنهم سيخشون لقاء نفس المصير إن هم اعترضوا فسوف يجردون من ممتلكاتهم أيضاً.

وخلاصة القول أن المستعمرات لا تتكلف أي مال وستكون أكثر ولاء وأقل اضطراباً، أما المتضررون فسيظلون غير قادرين على الإضرار بالحاكم ما داموا متفرقين وفقراء كما أوضحت.

ويجب أن نلاحظ أن الرجال إما أن يستمالوا أو تتم إبادتهم، كما أنهم يثأرون لأنفسهم في الأمور الصغيرة لكنهم لا يستطيعون ذلك في الأمور الكبيرة، فإذا ما أضر الرجل مضرة كبرى فلا يجب علينا أن نخشى انتقامه.

ووجود القوات بدلاً من استخدام طريقة المستعمرات سيكلف الحاكم مالاً أكثر، مما سيجعله ينفق كل عائدات هذه المستعمرة في المحافظة عليها، وبذلك يكون ضمها خسارة مادية، إضافة إلى أن ضرر القوات العسكرية كبير حيث يتأذى كل من يعيش في تلك الأرض من عسكرة الجيش عليها. وهذه المضايقة الجماعية للشعب ستجعل من كل

واحد منهم عدوا لك، يمكنه أن يفعل ما يضرّك. فهم باقون بمنازلتهم رغم الهزيمة. وعلى أي حال ستكون معسكرات الجيش عديمة الفائدة بينما تحقق المستعمرات فوائدها.

****** كما أن الحاكم الذي يحكم إقليمًا أجنبيًا كما أوضحت، يجب أن يجعل من نفسه قائداً وحامياً لجيرانه الأقل قوة منه ويسعى جاهداً لإضعاف الأقوياء منهم. وأن يحذر أن يغزوهم أجنبي أقوى منه، فمن لا يرضى بذلك سيدعوه للتدخل إما خوفاً أو طمعاً، وهناك قاعدة تقول: إن أي أجنبي قوي يدخل إلى بلد فإن كل المستضعفين من سكانها سيؤيدون هذا الأجنبي مدفوعين في ذلك بحقدهم على حكامهم. ولا يتكبد الأمير أي عناء في ضمهم إليه لأنهم ينضمون بإرادتهم إلى قواته الغازية.

ويجب على الأمير فقط أن يحذر من أن ينالوا سلطاناً كبيراً أو قوة، حيث يتمكن من سحقهم، والسيطرة على الإقليم باستخدام قواته والموالين له. ومن لا يستطيع تحقيق ذلك سيواجه صعوبات ومشكلات لا حصر لها.

إما إذا انتظرنا إلى أن تدهمنا المخاطر، فسيصبح العلاج متأخراً عن مواعده وتستعصي العلة. ويحدث هنا مثلما يحدث في الحميات غير المستقرة.

فالأطباء يقلون أنها في بدايتها تكون صعبة التشخيص وسهلة العلاج بينما تكون سهلة التشخيص وصعبة العلاج وهي في نهايتها.

وهذا هو الحال في أمور الدولة. فإننا نرى الخطر المتوقع قبل حدوثه وهي صفة الحكماء من الرجال فقط فيسهل علاجه، ولكن إذا تركناها تستفحل ويعرفها الجميع فلن يوجد لها أي علاج وهذا كله بسبب قصر النظر.

ولهذا فإن الرومان كانوا يكتشفون الاضطرابات وهي لا تزال في المهد واستطاعوا دائماً أن يعالجوها، ولم يتيحوا لها أي فرصة لتزداد حتى يتجنبوا الحرب، وذلك لأن الحرب إذا بدأت فلا مفر منها ولا يمكن تأجيلها إلى لما هو في صالح الطرف الآخر.

****** وقد قال لي الكاردينال: إن الإيطاليين لا يعرفون معنى الحرب وأجبتته بأن الفرنسيين لا يعرفون معنى السياسة، لأنهم لو عرفوا معناها لما سمحوا للكنيسة أن تصبح

قوية جداً والتجربة تقول: إن فرنسا هي سبب عظمة الكنيسة في إيطاليا وفي إسبانيا وهي أيضاً سبب سقوطها. ومن هنا يمكننا استنتاج قاعدة عامة لا تخيب إلا فيما ندر وهي أن كل من يتسبب في أن يقوى غيره يهلك نفسه، لأنه إنما يفعل ذلك إما بالحيلة، أو بالقوة. وهاتان الصفتان هما موضع شك ممن يصل إلى السلطة.

** بالنظر إلى الصعاب التي تكمن في الاستيلاء على دويلات جديدة، قد يتعجب البعض من أن الإسكندر الأكبر وقد أصبح سيد آسيا خلال أعوام قليلة، لكنه لم يكد يحتلها حتى وافته المنية. وكان من المتوقع أن تثور جميع الولايات إلا أن الولايات كلها لم تتمرد على خلفائه وعلى أي حال، احتفظ خلفاؤه بملكها لأنفسهم ولم يواجهوا أي متاعب فيما بعد سوى تلك المتاعب التي حدثت بين بعضهم البعض بسبب مطامعهم الشخصية.

وأرد على ذلك بأن تاريخ حكم الممالك سجل طريقتين للحكم: إما أن يكون الحكم متمثلاً في أمير وأتباعه الذين يعملون كوزراء بجانبه، ويشاركون في السلطة بدعم وتأيد منه أو يكون الحكم للأمير ومعه عدد من البارونات الذين لا يعتمدون في قوتهم على الأمير وإنما على أصالة عائلاتهم القديمة.

ولهؤلاء البارونات دويلات ورعايا خاصين بهم، ويعتبرهم رعاياهم أسياداً لهم، ويرتبطون بهم ارتباطاً وثيقاً. وفي الدول التي يحكمها الأمير وأتباعه، يكون للأمير سلطات أكثر، حيث لا يوجد بالدولة من هو أعلى منه مقاماً، والآخرين الذين يأتمرون به هم مجرد وزراء ومسؤولين بدولة الأمير، ولا يوجد من يعطيهم أكثر من حقهم.

وفي عصرنا الحالي يوجد مثالين لهما النوعين وهما الأتراك وملك فرنسا.

فالمملكة التركية يحكمها حاكم واحد، والباقيون هم خدامه، وهو قد قسم المملكة إلى سنجقيات يرسل إليها العديد من الإداريين، ويغيرهم، أو يستدعيهم حسب هواه. لكن ملك فرنسا محاط بعدد كبير من قدامى النبلاء ومكانتهم معروفة جيداً لرعايا الدولة، وهم أيضاً محبوبون منهم. ولهم امتيازات لا يستطيع الملك أن يحرمهم منها وإلا عرض نفسه للخطر.

إن من ينظر إلى هاتين الدولتين سيجد أنه من الصعب جداً الاستيلاء على الدولة التركية لكن السيطرة عليها سهلة جداً لأسباب عديدة وذلك في حالة هزيمتها. أما مملكة فرنسا فمن السهل جدا إسقاطها لكن السيطرة عليها أمر شديد الصعوبة.

إن أسباب صعوبة احتلال المملكة التركية هي أن الغازي لن يجد ترحيباً من الأمراء الموجودين بالمملكة، ولا يأمل في أن تساعد في حملته حركات تمرد بزعماء هؤلاء الذين كانوا مقربين من الملك للأسباب المذكورة سابقاً. فمن الصعب إفساد هؤلاء القوم لأنهم جميعاً عبيد للسلطان، وأتباع له، وحتى لو تمكنا من إفسادهم، فلن نستفيد من ذلك كثيراً لأنهم لن يستطيعوا ضم الشعب إليهم للأسباب السابق ذكرها. لذلك فإنه على من يرغب في الهجوم على سلطان الأتراك أن يواجه قواتهم المتحدة، وأن يعتمد على قواته وليس على ما يمكن أن يحدث من تمرد يقوم به آخرون ضد السلطان. ولكن بمجرد أن يتمكن من هزيمته في معركة واحدة بحيث لا يمكنه تكوين الجيش مرة أخرى فلن يكون هناك أي خطر عليه سوى من العائلة المالكة، فإذا أبيدت هذه الأسرة، فلن يوجد بعد ذلك من نخشاه أما الآخرون الذين كانوا حول الملك قبل النصر، فلا خوف منهم الآن، فإذا كان المنتصر لم يعلق أي أمل عليهم قبل النصر، فلا يجب أن يخشاهم بعد النصر.

والعكس صحيح في الممالك التي تحكم مثلما تحكم مملكة فرنسا، وذلك لأنه يمكن الدخول إليها باستمالة بعض بارونات المملكة، فلا بد أن يكون منهم الساخطون ومحبو التغيير. وهؤلاء - وللأسباب السابق الحديث عنها - يمكنهم أن يفسحوا الطريق لك، ويجعلوا لك النصر سهلاً ميسراً، ولكن فيما بعد إذا أردت الاحتفاظ بهذا الملك فيما بعد فإن المشكلات التي ليس لها نهاية تبدأ في الظهور وسيكون سبب المشكلات هم هؤلاء الذين ساعدوك والذين تعسفت معهم على حد سواء. ويصبح التخلص نهائياً من أسرة الأمير غير كاف، لأن النبلاء سيقومون وبتزعمون الثورات الجديدة. ولأنك لن تستطيع إرضاءهم أو القضاء عليهم، وستفقد الولاية عندما تحين أول فرصة لذلك.

والآن إذا تأملت طبيعة حكومة مملكة "داريوس" فإنك ستجدها مماثلة للمملكة التركية، ولذلك كان على "الإسكندر" أن يسقطها بالكامل أولاً ويغزو جميع أراضيها،

وبعد النصر وموت "داريوس" استتبّت الأحوال في الولاية للإسكندر وذلك للأسباب التي ناقشناها فيما سبق.

ولو أن خلفاء ظلوا متحدّين لما ثارت أي مشكلات ولعاشوا فيها في سلام ولكن مشكلاتهم قد حدثت فيما بين بعضهم البعض.

فمن المستحيل إذن لسيطرة على دول متحدة مثل فرنسا بمثل هذه السهولة وهذا هو سر الثورات التي قامت بين وقت وآخر ضد الرومان في أسبانيا وفرنسا واليونان وذلك نظراً لوجود إمارات عديدة في تلك الدول. ولم تستتب الأمور لحكم الرومان المرعزع إلا عندما انتهى ذكر هذه الإمارات ومحيّت وأصبح الرومان سادة لا بديل لهم. وعندما دب الخلاف بين الرومان كان في مقدور كل واحد منهم أن يعتمد على مساندة منطقته له حيث كون سلطاناً لنفسه. لكن الرومان لم يتم اعتبارهم حكماً هناك إلا بعد انقراض الأمراء من الأسر الحاكمة القديمة.

فإذا نظرنا إلى هذه الأمور فليس لنا أن نعجب للسهولة التي سيطر بها الإسكندر على آسيا، ولا للصعوبات التي لاقاها غيره ممن فتحوا أقاليم مثل "بايروس" وغيره كثير. لأن ذلك لا يعتمد على قدرة الفاتح سواء عظمت أم تضاءلت، ولكن الأمر يتوقف على ظروف مختلفة.

****** عندما تكون تلك الدول التي تم الاستيلاء عليها معتادة على الحياة الحرة في ظل قوانينها الخاصة، هناك ثلاث طرق للسيطرة عليها:

فإما أن يلغىها الأمير أو أن يذهب بنفسه ويعيش هناك أو أن يسمح لها بالاستمرار في استخدام القوانين السابقة مع دفع الجزية.

وتوجد داخل الدولة حكومة مكونة من عدد قليل ممن يحافظون على ولائها لك. ولأن هذه الحكومة التي شكلها الأمير تعرف أنها لا يمكن لها أن تستمر بدون رضائه وحمائته، فهي ستفعل كل ما في وسعها للحفاظ على هذا الرضا وهذه الحماية ومن جهة أخرى فإن المدينة التي اعتادت الحياة بحرية يمكن السيطرة عليها من خلال مواطنيها أكثر من أي طريقة أخرى، وذلك إذا أردت أن تستمر هذه السيطرة.

ومن يصبح حاكماً لمدينة حرة ولا يدمرها فليتوقع أن تقضي هي عليه، لأنها ستجد دائما الدافع للتمرد باسم الحرية وباسم أحوالها القديمة. وهي أشياء لا تنسى لا بمرور الزمن ولا بما يناله أهلها من مزايا ومهما فعل الحاكم ومهما احتاط للأمر فإن أهل المدينة سيستجيبون لندائها فوراً عند حدوث أي طارئ، ولكن عندما تكون المدن أو الأقاليم قد ألفت الحياة في ظل أمير وأسرّة حاكمة ثم تختفي هذه الأسرّة تماماً، فإن هذه المدن قد اعتادت على الطاعة من جهة، ومن جهة أخرى لا يجدون أميراً لهم، ولا يستطيعون الاتحاد تحت راية واحد يختارونه من بينهم ولا يعرفون حياة الحرية، لهذا فإنهم لن يقدموا على حمل السلاح بسرعة وسيتمكن الأمير من الانتصار عليهم بسهولة شديدة ومن دعم موقفه وتأمينه.

لكن في الجمهوريات تكون الحياة أفضل والعداء أشد، كما أن الرغبة في الانتقام تكون أشد، فالناس لن تتخلى عن ذكريات حريتها القديمة بسهولة. لذلك فإن الطريقة الأكيدة هي إما أن نخرّبها، أو أن نقيم فيها.

** لا عجب إذا كنت قد قدمت أمثلة حديثة جداً سواء فيما يخص الأمير أو الولاية وذلك في أثناء حديثي عن الولايات الجديدة. وذلك لأن الناس دائماً يسرون في الدروب التي طرقها غيرهم، وأن تحاكي أعمالهم أعمال الآخرين.

والعقل من الرجال لا يستطيع أن يتبع آثار الآخرين، ويقلدهم تماماً ولا أن يحقق ما حققوه من نجاح وتميز. إلا أنه إن لم يبلغ حصتهم من العظمة والتميز فسيصيبه نفحة منها على أي حال. وهو بهذا يفعل مثلما يفعل الرماة المحترفون الذين يصوبون إلى نقطة أعلى من النقطة التي يريدونها حينما يكون الهدف بعيداً جداً وهم على علم بمدى الرمي الممكن للقوس الذي يستخدمونه. وهم بالتصويب على ما هو أبعد يصيبون الهدف المقصود تماماً.

وعلى هذا الأساس أقول بأن السيطرة على الأمور في الولايات الجديدة تتفاوت تبعاً لقدرات من يستولي عليها. ولما كان أي فرد عادي لا يصل إلى مرتبة الإمارة إلا من واقع قدراته الفائقة أو حظه السعيد، فإن أحد هذين الأمرين يخفف ما يلقاه من

مصاعب كثيرة، ومع هذا فإن من لا يعتمد على حسن الطالع يحفظ نفسه على أفضل حال.

ومما يخفف العبء الجديد عن الأمير أيضاً هو إقامته في الإقليم الجديد، إذا لم يكن لديه غيره.

أما إذا أردنا التحدث عن هؤلاء الحكام بفضل ما لديهم من قدرات عالية، وليس بفضل حظهم السعيد، فسنجد أن أعظمهم جميعاً هو "موسى" عليه السلام و"كورش ورومولوس وتيسوس" وغيرهم.

وعلى الرغم من أننا لا ينبغي لنا أن نتحدث عن موسى لأنه رسول الله الذي نفذ ما أمر به، إلا أنه يظل جديراً بالإعجاب لأنه ذو فضل أهله لأن يكون كليم الله سبحانه وتعالى أما كورش وغيره ممن ورثوا الممالك أو أسسوها فإنهم جميعاً يستحقون الإعجاب. فما قاموا به من أعمال وما حققوه لا يختلف كثيراً عما قام به موسى عليه السلام رغم أنه كان رسولاً. وإذا ما تفحصنا حياتهم وأعمالهم لن نجد أنهم قد ركنوا إلى الحظ في أي شيء. لكن ما حصلوا عليه من فرص هو ما ساعدهم على صياغة ما حولهم فيما رأوه مناسباً. ولولا هذه الفرص لضاعت قدراتهم أدراج الرياح. وبدون تلك القدرات لما كان للفرص أي معنى.

وهكذا كان من الضروري لموسى أن يجد بني إسرائيل عبيداً في مصر وأن يضطهدهم المصريون، وذلك حتى يكونوا مستعدين للسير خلفه ليتخلصوا من العبودية. وكان من الضروري ألا يستطيع "رومولوس" البقاء في ألبا، وأن يترك في العراء يوم مولده حتى يصبح ملك روما ومؤسس تلك الأمة.

وكان من الضروري أيضاً أن يجد "كورش" أن الفرس ساخطون على إمبراطورية الميديون، وأن يكون الميديون ضعفاء ومخنثين بسبب طول فترة السلم. وما كان لتيسوس أن يظهر قدراته لولا أنه وجد أن الأثينيين مشتتون. فهذه الفرص قد سنحت هؤلاء الرجال، وساعدتهم صفاتهم العظيمة على الاستفادة منها. وهم بذلك يزدون من رفعة أوطانهم ويزيدونها فلاحاً وسعادة.

****** إن من يستفيدون من قدراتهم حتى يصبحوا أمراء يحصلون على الإمارة بصعوبة، إلا أنهم يحافظون عليها بسهولة والصعوبات التي تواجههم في ذلك ترجع إلى حد ما إلى القواعد والتعديلات الجديدة التي يضطرون إلى إدخالها حتى يستتب السلام في ولاياتهم.

ويجب أن ندرك أنه لا يوجد أصعب من بدء نظام جديد لتسيير الأمور وتنفيذه فنجاحه مشكوك في أمره وليس هناك ما هو أخطر من التعرض لهذا الأمر. لأن من يريد الإصلاح لابد له من أعداء وهم جميع من كانوا يستفيدون من النظام القديم، وهناك أيضاً من يؤيده بفتور رغم استفادتهم من النظام الجديد ويرجع هذا الفتور -من ناحية- إلى خوفهم من خصومهم الذين يساندهم القانون، ومن ناحية أخرى إلى أن الناس لا تؤمن بالجديد إلا بعد أن تجربه فعلاً.

وعلى هذا فإن المصلح يهاجمه خصومه بحماس شديد في كل فرصة، بينما يدافع عنه الآخرون دفاعاً فاتراً، حتى أنه يواجه خطراً كبيراً جداً وهو ما بين أولئك وهؤلاء. لذلك فإننا إذا أردنا أن نتناول هذه القضية بدقة، لابد لنا أن نعرف أولاً ما إذا كان المصلحون يعتمدون على أنفسهم، أم أنهم يعتمدون على الآخرين.

وبعبارة أخرى: هل هم قادرون على استمالة غيرهم لينفذوا ما وضعوه لهم أم أنهم يستطيعون فرضه؟ ففي الحالة الأولى لن يحققوا سوى فوزاً ضعيفاً ولا ينجزون شيئاً. أما إذا استطاعوا الاعتماد على سطوتهم ولديهم القدرة على استخدام قوتهم فإنهم لا يفشلون إلا فيما ندر.

وبهذه الطريقة استطاع جميع الأنبياء المسلحين أن ينتصروا فيما فشل فيه غير المسلحين منهم وذلك - بالإضافة إلى ما ذكرناه - يرجع إلى أن طبيعة البشر متقلبة. ومن السهل تحفيزهم لشيء ما ولكن من الصعب استمرار هذا الحافز.

ولذلك يجب أن نرتب أمورنا حتى يمكننا أن نستخدم القوة معهم لنردهم إلى الإيمان بما ارتدوا عنه ولو كان كل من موسى -عليه السلام- وكورش وتيسيوس ورومولوس عزلاً من السلاح لما استطاعوا أن يجعلوا الآخرين يحترمون دساتيرهم لفترات

طويلة، وهذا هو ما حدث في عصرنا الحالي مع الأخ جيرولا مو سافونا حيث فشل فشلاً ذريعاً في تطبيق شريعته الجديدة عندما بدأ الكثير من الناس في الكفر به ولم يكن لديه القوة التي تمكنه من أن يجبرهم للعودة إلى الإيمان بما يقوم به.

وعلى ذلك فإن من هم مثل هذا الرجل يجدون صعوبة كبيرة في شق طريقهم، فهم يقابلون جميع الأخطار في طريقهم، ولا بد لهم من التغلب عليها بما يملكون من قدرات، ولكن بمجرد أن يتغلبوا عليها ويصلوا إلى مكانة عند قومهم ويسحقوا من يحسدوهم عليها، يمكنهم أن يظلوا أقوياء مكرمين وسعداء.

إن من ارتفع من مكانة المواطن العادي إلى منصب الأمير بمحض الصدفة لا يواجه سوى متاعب قليلة حتى يصل لهذه المكانة، إلا أنه يواجه كثيراً من الصعاب عندما يريد الحفاظ على هذا المنصب. وهم لا يجدون أي صعاب في طريق المناصب لأنهم يطهرون إليها.

أما ما يجدونه من صعاب فإنها تحدث بعدما يستقرون فيها. ومن أمثال هؤلاء من حصل على دولة في مقابل المال أو تفضلاً ممن يمنحه هذا المنصب كما حدث في كثير من الحالات الإغريقية في مدن "أيونا وهيلسبون"، وهم من جعلهم "داريوس" أمراء للسيطرة على هذه الأماكن من أجل سلامته وسلطانه.

ومن أمثال من هؤلاء أيضاً الأباطرة الذين ارتفعوا إلى تلك المناصب برشوة الجيش، حيث اعتمدوا اعتماداً تاماً على النوايا الحسنة لمن يساعدهم، وعلى حسن طالعهم وهما أمران لا يستمران طويلاً ولا يظلان ثابتين بنفس القدر بصفة دائمة.

وهم لا يعرفون كيفية المحافظة على الولايات ولم يملأوا بمواقف تمكنهم من ذلك. وإن لم يكن هذا الفرد العادي الذي عاش حياة عادية ذا عبقرية فذة، فلن يعرف كيف يأمر وينهي وهم في ذلك لن يستطيعوا الحفاظ على أنفسهم لأنهم لا يملكون قوات تدين لهم بالولاء، إضافة إلى أن الدول التي تنمو سريعاً - مثلها في ذلك مثل أي شيء آخر ينمو سريعاً - لن تستطيع أن تثبت جذورها وتعمق كما أنها تتدمر بسبب أول عاصفة تهب عليها.

وهناك استثناء كما قلنا وهو أن يكون من وصل إلى الإمارة قادراً على اتخاذ خطوات يحافظ بها على ما ألقاه إليه حسن طالع، ثم بعد ذلك يضع الأسس التي يضعها غيره قبل أن يصبحوا أمراء.

لذلك فإن على كل من يعد الضروريات لتأمين إمارته الجديدة أن يؤمن نفسه ضد أعدائه، وأن يكسب الأصدقاء، وأن تكون له الغلبة بالقوة أو بالخدعة وأن يحبه الشعب ويخشاه حيث يسير جنوده خلفه ويحترمونه.

وأن يسحق من يستطيع أن يؤذيه، أو من الممكن أن يؤذيه. وأن يستبدل القديم من الأوضاع بكل ما هو حديث وأن يكون صارماً وشفوقاً في نفس الوقت، كريم الخصال واسع المدارك وأن يلغي نظام الجندية القديم ويحل محله نظاماً جديداً. وأن يحافظ على صداقته مع الملوك والأمراء بطريقة تسعدهم إذا فعلوا ما يفيدونه وتخيفهم منه إذا ناله منهم مضرة.

** إن لم يكن الأمير قادراً على انتخاب بابا يوافقه هو، فكان عليه ألا يسمح لأي كاردينال بأن يصل للبابوية. كما كان من واجبه ألا يسمح بانتخاب أي كاردينال سبق أن أساء هو إليه، أو من قد يخشاه الدوق إذا وصل إلى كرسي البابوية. إن من يظن أن المنفعة الحديثة تمحو أثر الإساءة القديمة من نفوس العظماء يخطئ خطأ جسيماً.

** وحول من وصلوا لمنصب الأمير بالخدعة يقول مكيا فيللي: بما أنه لا تزال هناك طريقتان للوصول إلى الإمارة دون الحاجة لحسن الطالع أو استخدام القدرات، ولا ينبغي أن نهمّل هاتين الطريقتين. إن إحدى الطريقتين يمكن مناقشتها بتعمق لو أننا نتحدث عن الجمهوريات. وهذا عندما يحصل فرد من عليّة القوم على مركز الإمارة باستخدام أساليب حقيرة ومشينة، أو عندما يصبح أحد المواطنين أميراً على دولته التي يعيش فيها بناء على رضى من المواطنين. وعندما أتحدث عن هذه

الطريقة، سأعطي لسمو الأمير مثالين أحدهما قديم، والآخر حديث دونما توضيح لمميزتهما، حيث إن مجرد ذكرهما سيكون كافياً لمن يضطر لمحاكتهما.

لم يبرز نجم أجاثوكل الصقلي من بين علية القوم ليعتلي عرش "سراكوزا" بل إنه جاء من قاع أقل طبقات المجتمع. فهو ابن صانع فخار وقد عاش حياة بالغة التعاسة خلال فترات حياته المختلفة. وكان ذا جسد كبير وعقل مستنير ودهاء شديد وعندما انضم إلى صفوف الجيش تدرج فيه بسرعة، ثم قرر أن يصبح أميراً على "سراكوزا" بالقوة، ودون انتظار لأي خطوات دستورية متبعة في الجمهورية آنذاك. فاتفق مع هاميلكار القرطاجني" الذي حارب معه في غزو "صقلية"، ثم استدعى مجلس الشيوخ في "سراكوزا" كما لو كان سيشاورهم في أمر من الأمور الهامة التي تتعلق بالجمهورية، وأمر باغتيال جميع أعضاء مجلس الشيوخ، وجميع من حضر الاجتماع من علية القوم والأعيان ثم نصب نفسه أميراً بعد قتلهم دونما أي عصيان مدني.

وعندما نتناول أعمال هذا الرجل وصفاته لن نجد فيها أي دور واضح لحسن الطالع وذلك لأنه -وكما أسلفنا - لم يصل بفضل أي شخص ساعده ولكنه تدرج فقط في المناصب العسكرية، وواجه آلاف الصعوبات والمخاطر إلى أن وصل إلى منصب الأمير الذي حافظ عليه فيما بعد بشجاعة وتضحيات كثيرة.

لكن قتل المواطنين لا يعتبر من الفضائل، كما أن التغرير بالأصدقاء، وفقدان العقيدة، والرحمة، والدين يمكن أن تصل بنا إلى القوة وليس إلى المجد. وإذا كانت فضائل أجاثوكل" المتمثلة في شجاعته في مواجهة الأخطار وعظمته عند مواجهة المشكلات ترفعه إلى مصاف القادة الناجحين، فإن قسوته وبربريته وانعدام الإنسانية عنده وأعماله الوحشية التي لا تحصى لا ترفعه إلى مصاف المشاهير. ولا نستطيع أن نقول: إنه قد وصل إلى ما وصل إليه بالفضائل، أو بحسن الطالع.

وفي عصرنا الحالي، وعند تنصيب البابا "الإسكندر السادس"، كان "أولفرتو دافرمو" طفلاً صغيراً يتيماً في رعاية خاله "جيوفاني فوجلياني"، وقد رعاه خاله ورباه، ثم أرسله في ريعان شبابه ليعمل كجندي ضمن قوات "باولو فيتلي" وذلك كي يتمكن -

بعد حصوله على التدريب المناسب - من الوصول إلى رتبة عسكرية عالية. وبعد وفاة "باولو حارب" أولفرتو" تحت إمرة أخيه "فيتلوزو".

وخلال فترة زمنية قصيرة وبسبب ذكائه الحاد ونشاطه الجسدي والعقلي أصبح أحد قادة القوات. لكنه كان يعتقد أنه من العبودية أن يعمل تحت إمرة آخرين فقرّر أن يكون أميراً على مسقط رأسه "فيرمو" وأن يحتلها بمساعدة أهلها الذين فضلوا العمل تحت إمرته من أجل تحرير مدينتهم، كما ساعده أيضاً "البنادقة".

فكتب رسالة إلى خاله "جيوفاني فوجلياني" قال له فيها: إنه بعد أن تغرب سنوات عديدة عن مدينته يود العودة إليها لأنه يريد أن يراه ويرى المدينة، حتى يتمكن من تفحص أحوالها قدر الإمكان. ولأنه قد كافح من أجل الوصول إلى المجد، لذلك فإن مواطنيه يجب أن يعرفوا كيف أنه لم يضيع وقته هباء. لذلك فإنه سيصطحب معه مائة من الفرسان وهم من أتباعه وأصدقائه وطلب من خاله أن يعلن ذلك على الملأ حتى يستقبله مواطنو "فيرمو" استقبالاً يكرمه باعتباره أيضاً تلميذا لهذا الخال ولم يخفق الخال "جيوفاني" في عمل ما يلزم لاستقبال ابن أخته وفرسانه أعظم استقبال، فاستقبله أهالي "فيرمو" أعظم استقبال وآواه هو وفرسانه في بيته وبعد أن مضت عدة أيام أعد فيها خطة الخديعة دعا "أولفرتو" خاله "جيوفاني" وكل عليّة القوم في "فيرمو" إلى مأدبة كبيرة.

وبعد الطعام والشراب والتسلية المعتادة في مثل هذه المآدب، تطرق "أولفرتو" ببراعة شديدة للحديث عن عظمة "البابا الإسكندر" وابنه قيصر "بورجيا" وقد استجاب خاله والحضور للحديث إلا أنه هب واقفاً وقال فجأة إن الحديث عن مثل هذه الأمور يجب أن يكون في مكان مناسب وانسحب إلى غرفة جانبية تبعه إليها خاله جيوفاني وجميع الحضور.

وما أن جلسوا في مقاعدهم حتى اندفع إليهم الجنود من أماكن اختفائهم وقتلوا الجميع بما فيهم "جيوفاني". وبعد هذه المذبحة ركب "أولفرتو" حصانه مع جنوده وسار عبر شوارع المدينة إلى قصر الحاكم وحاصره وأجبره على تكوين حكومة نصب نفسه أميراً عليها.

وكان جميع من قتلهم يستطيعون إفساد هذا الموقف لو ظلوا أحياء. كما أنه حصن نفسه بالجديد من الأنظمة سواء المدنية أو العسكرية بطريقة تجعله لا يأمن على نفسه فقط خلال عام واحد يقضيه في مدينة "فيرمو"، ولكنه يصبح أيضاً مصدر خوف لجميع جيرانه.

وقد كان من الصعب الإطاحة به لولا أن قيصر "بورجيا" قد خدعه عندما سيطر على الأورسيني وسنجا جلياً حيث قبض عليه بعد عام واحد مما ارتكبه من فضائع. وأعدم هو و "فيتلوزو" الذي علمه الوحشية والتجبر.

وقد يتعجب البعض من أن أجاثوكل والآخرين من أمثاله يستطيعون البقاء في بلادهم لعدة سنوات بعد العديد من الجرائم الوحشية، ويستطيعون الدفاع عن أنفسهم ضد الأعداء من الخارج دون أن يثور عليهم رعاياهم، على الرغم من أن غيرهم لم يستطع الحفاظ على منصبه في وقت السلم وليس وقت الحرب.

وأنا اعتقد أن ذلك سببه القدرة على استعراض القسوة بطريقة مناسبة فحسن ارتكاب الجريمة القاسية (إذا كان بإمكاننا استخدام كلمة "حسن" عند الحديث عن النوايا الشريرة) يمكن من جني الثمار فيما بعد.

أما عندما ترتكب هذه الفظائع بطريقة خاطئة فإنها تزيد من أعداد من يعارضونها مع مرور الوقت، ولا تقضي عليهم. ومن يستخدم هذه الطريقة الأولى مثل أجاثوكل يمكنهم علاج أخطائهم بطريقة ما. أما بالنسبة للآخرين الذين يستخدمون الطريقة الثانية فمن الصعب عليهم الحفاظ على أنفسهم واستمرارهم.

ومن الملاحظ إذن أنه عندما نستولي على ولاية، فإنه يجب على المنتصر أن يخطط لجميع جرائمه مرة واحدة حتى لا يضطر للعودة إليها في وقت آخر.

وأن تكون له قدرة على اتخاذ تغييرات جديدة تؤكد للعامة الحرص على مصالحهم ليكسبهم إلى صفه. ومن يفعل غير ذلك عن جبن أو بناء على نصيحة من حوله سيظل من المفروض عليه أن يقف وفي يده الخنجر، ولن يتمكن أبداً من الاعتماد على رعاياه، لأنهم لن يثقوا به، بسبب كثرة مشكلاته وأخطائه.

وإذا كانت الأخطاء لا بد واقعة فيحسن أن تكون دفعة واحدة حتى تكون أقل تأثيراً من واقعات متعددة تبقي آثارها. أما المزايا فيجب إعطاؤها للرعايا جرعة جرعة حتى يستمتعوا بها ويشعروا بفائدتها. وقبل كل شيء لا بد للأمير أن يعيش وسط رعيته بطريقة لا يؤثر فيها حدوث حادث له فيخرجه عما يخطط سواء كان حادثاً مؤلماً أو حادثاً سعيداً.

وذلك لأنك لا تكون في هذا الموقف موفقاً إذا استخدمت الشدة، وإن فعلت الخير لن تجني من ورائه أي فائدة، لأنه سيؤخذ على أنه اضطراب وبلا أي فائدة.

** في الحالة التي يصبح فيها المواطن أميراً بناء على رغبة أقرانه من المواطنين، وليس بالجريمة أو العنف الذي لا يحتمل، وقد يسمى هذا النوع بالإمارة المدنية. وهو نوع لا يمكن الوصول إليه لا بحسن الطالع، ولا بالقدرات، ولكنه يعتمد فقط على مكر يسانده حسن الطالع، وذلك لأن الإنسان يبلغ هذا المركز، إما برغبة من جموع الشعب، أو بتأييد من الطبقة الأرستقراطية، وهما جماعتان توجدان في كل مدينة أياً كانت، وهما متعارضتان بالطبع وهذا التعارض نتيجة لمحاولة عامة الشعب تحاشي تعسف الطبقة الأرستقراطية، ومحاولة هذه الطبقة أن تسيطر على الشعب وتبطش به وينتج عن هاتين المصلحتين المتعارضتين في المدينة نتيجة واحدة من ثلاث نتائج إما حكم مطلق أو حكم حر أو فوضى حيث يتمكن الشعب أو الطبقة الأرستقراطية من تكوين الحكومة الأولى، والأمر يتوقف على ما يواقي من فرص لأي من الطرفين.

فالنبلاء عندما يرون أنهم عاجزون عن مقاومة الشعب يتحدون ويختارون واحداً منهم ليصبح أميراً يمكنهم أن يحققوا مشروعاتهم في ظل سلطانه. ومن جهة أخرى يسعى الشعب إلى أن يرفع من بينه أميراً حينما لا يستطيع مقاومة النبلاء وهو أمير يصنعه الشعب ليحتمي بسلطته.

****** ومن يصبح أميراً بمساعدة النبلاء يعاني من مشكلات كبرى في سبيل الحفاظ على سلطانه أكثر من الذي يرفعه الشعب. لأنه سيجد حوله كثيرين يعتبرون أنفسهم أنداداً له. ومن هنا فهو لا يستطيع قيادة الآخرين وتوجيههم كما يريد.

أما من يرفعه الشعب إلى منصب الأمير، فإنه يجد نفسه متفرداً والجميع يسعى لخدمته عدا نفر قليل. كما أن المعاملة العادلة لن ترضي عنه طبقة النبلاء في حين أن نفس الأمر سيرضي عامة الشعب بسرعة فالعامة يرضون بالعدل بينما النبلاء يرغبون في التعسف والبطش وإضافة إلى ما سبق فإن الأمير لن يستطيع أن يتأكد من أن شعبه يكرهه لكثرة العدد لكنه من الممكن أن يعرف ذلك في طبقة النبلاء لأنهم قلة.

****** وأسوأ ما يمكن أن يحدث للأمير من شعب يكرهه هو أن يتخلى عنه، لكن النبلاء ينشطون لمقاومته عندما يعادونه، بالإضافة إلى تخليهم عنه ولما كان النبلاء بعيدى النظر أكثر من الشعب وأشد منه مكرّاً فهم دائماً قادرين على تخليص أنفسهم بالانضمام إلى من يتوقعون له الغلبة في الوقت المناسب.

والأمير مضطر للحياة بين أفراد الشعب دون حاجة للطبقة الأرستقراطية، فيمكنه أن يوجدها، أو أن يقضي عليها في أي وقت، وأن يحسن من مركزها في المجتمع، أو يجردها منه كما يحلو له.

****** وحتى أوضح هذا الأمر أكثر أقول: يجب علينا أن نتناول طبقة النبلاء بأسلوبين مختلفين، أي أنهم إما أن يحكموا بطريقة تجعلهم يعتمدون عليك تماماً أو أن يتركوا. فإذا ما كانوا محكومين تماماً، ولم يصبهم الجشع فيجب عليك أن تكرمهم وتحبهم. أما من يتعد عنك، فيجب معاملته بإحدى الطريقتين: فإذا كانوا يفعلون ذلك إحكاماً وجبناً، فليس لك أن تخشاهم في الضراء، ومن الممكن أن تستفيد من أهل الرأي منهم خاصة، كما أنهم يشرفونك في السراء.

أما أولئك المبتعدون عنك لغرض معين، فهذا يعني أنهم ذوو طموحات، وأنهم يفكرون في أنفسهم ولا يفكرون فيك. لذا يجب على الأمير أن يحتسب منهم، وأن يعتبرهم أعداء غير ظاهرين يمكنهم المساهمة في سقوطه وقت الشدة.

ولهذا يجب على أي أمير يرفعه شعبه وينصبه عليه أن يحافظ على محبته له مهما كلفه ذلك، وإن كان سيجده أمرا سهلا. لأن الشعب لا يريد شيئا سوى العدل. أما من وصل إلى منصب الإمارة بمساعدة النبلاء وضد إرادة الشعب. فعليه أولا أن يسعى لرضا الشعب عنه وهو أمر سهل المنال لو أنه دافع عن الشعب.

ولما كان الناس لا ينسون فضل من لا يتوقعون منه إلا الشر. فإنهم سيميلون نحوه بسرعة وسينال تأييدهم أسرع مما لو كان قد ارتفع لمنصب الأمير بمساعدتهم له. ويستطيع الأمير أن ينال رضا شعبه بالعديد من الطرق التي تختلف باختلاف الظروف. ولا أستطيع سوى أن أقول: إنه يجب عليه أن يكسب صداقة الشعب وإلا فلن يجد لنفسه ملاذا في حالة الخطر.

** ولا يحق الخطر بهذه الولايات إلا إذا تحول الأمير من حاكم مدني إلى حاكم مستبد مطلق، والحاكم المطلقون إما أنهم هم القادة، أو أنهم يستخدمون ولاية لهم، ومركزهم في هذه الحالة الأخيرة يكون أكثر ضعفاً، وذلك لأنهم يكونون تحت رحمة من عينوهم من ولاية حيث يستطيعوا تجريدهم من ملكهم. سواء عملوا ضدهم، أو خرجوا على طاعتهم، خاصة إذا حدث ذلك في وقت الشدة.

وفي مثل هذه الحالات من الخطر لا يستطيع الأمير أن يفرض سلطانه المطلق، وذلك لأن المواطنين لن يستطيعوا طاعة أوامره في حالة الطوارئ وهم من ألفوا تلقي الأوامر من الولاية.

وسوف يحتاج الأمير دائماً في الظروف الصعبة إلى رجال يمكنه الاعتماد عليهم. لأن هذا الأمير لا يمكن أن يعتمد على ما يقطعه الموجودون حوله من رعية في وقت الهدوء والأمن، فالرعايا في حاجة إلى الإمارة، وهم مستعدون للإعلان أن حياتهم فداء للأمير، لأن الموت بعيد عنهم.

ولكن في ساعة العسرة، وحين تحتاج الدولة إلى المواطنين، لن يجد الأمير منهم في ذلك الوقت إلا القليل. وهي تجربة شديدة الخطر، ولا تمكن أن تحدث إلا مرة واحدة. وعلى ذلك فإن الأمير الحكيم يجب عليه أن يبحث عن وسائل تجعل رعاياه في حاجة مستمرة إلى حكومته، وحينئذ سيخلصون الولاء له دائماً.

** الأمراء الذين يستطيعون حماية أنفسهم بمفردهم، هم من يستطيع منهم أن يجند جيشاً كافياً بسبب وفرة المال والرجال، ولن يقهرهم أي مغير عليهم. أما الأمراء الذين هم في حاجة إلى أن يحميهم غيرهم، فلن يستطيعوا منازل الأعداء في ميدان القتال، وهم يضطرون للانسحاب إلى داخل المدن للدفاع عنها.

في الحالة الثانية فلا نجد شيئاً نقوله للأمير سوى أن نشجعه على أن يجمع المؤن، ويحافظ عليها، ويحسن استخدامها، وأن يحاول تحصين مدينته، ولا يشغل باله بما يحدث حولها في مدن أخرى أو قرى تابعة وكلما تمكن من تحصين مدينته والإمساك بزمام الأمور فيها كلما تحسب له عدوه وحذر منه، لأن المقاتلين يخشون دائماً شن العمليات التي يعرفون مدى صعوبتها مقدماً، وليس من السهل أبداً أن نهاجم من تكون تحصيناته قوية لا سيما عندما يكون محبوباً من شعبه.

** ومن هذا يتضح أن الأمير الذي يعيش في مدينة قوية ويحبه شعبه لا يمكن أن يهاجم، ولو هوجم فإن من يهاجمه سيضطر إلى الانسحاب، وهو يجر أذيال الخيبة والعار ولأن عالمنا سريع التغير، فإنه من المستحيل على أي قائد أن يستمر في حصار مدينة ما لمدة عام، ومن يحتج على بأن الشعب لن يصبر حين يرى العدو وهو يحيط بالدينة ويشعل النار فيما حولها من أملاك خاصة وأن طول الحصار، وتعرضه للمصالح الخاصة للشعب سينسيه أميره.

وأرد على ذلك بأن الأمير القوي الشجاع عادة ما يتغلب على هذه الصعاب مرة بأن يملأ القلوب بالأمل، ومرة بأن يثير فيها الخوف من قسوة العدو ومرة ثالثة بأن يتأكد من قدرات أولئك الذين يظهرون جرأتهم الزائدة أمامه.

**** الإمارات الكنسية تقع غالب صعوباتها قبل الحصول عليها. حيث يتم الحصول عليها بالقدرات الخاصة أو بطريق الصدفة، لكن المحافظة عليها لا تحتاج لكلا الأمرين، وذلك لأنها محكومة بعادات دينية قديمة وهي عادات قوية وقادرة على أن تجعلها تحتفظ بأمرائها ما داموا قادرين على الحياة ومواصلة الحكم.**

وهو الصنف الوحيد من الأمراء الذين يحكمون ولا ياتهم ولا يدافعون عنها، ولهم رعايا لا يهتمون بهم، وعلى الرغم من أنهم لا يدافعون عن ولاياتهم فإنهم لا يفقدونها، ولا يستاء منهم رعاياهم بالرغم من إهمالهم لهم. ولا يخطر في بالهم الانفصال عنها ولا يستطيعون ذلك. ولذلك فهي الإمارات الوحيدة الآمنة والسعيدة.

**** حول الأنواع المختلفة للجنودية وجنود المرتزقة**

سبق لي أن أكدت على أهمية وجود الدعائم القوية التي تساند الأمير، وإلا كان القضاء عليه مؤكداً. وأهم دعائم كل الإمارات سواء كانت جديدة أم قديمة أم مختلطة هي وجود القوانين الجيدة والأسلحة الجيدة ولا توجد قوانين جيدة دون وجود أسلحة جيدة، فحيثما توجد القوانين الجيدة توجد الأسلحة الجيدة أيضاً.

وأنا أرى أن الأسلحة التي يدافع بها أمير عن ممتلكاته إما أن تكون أسلحته الخاصة، أو أسلحة لقوات مأجورة أو أسلحة حلفاء له أو مختلطة.

وأسلحة المأجورين والحلفاء بلا فائدة وخطيرة، وكل من يقيم دولته على أسلحة قوات مأجورة لن يستطيع التأكد من قوة وثبات ولايته. لأنها قوات مفككة ولها مطامعها الخاصة، وغير منظمة ولا عهد لها، وهي تبدو قوية أمام الأصدقاء، لكنها جبانة عند مواجهة الأعداء، وهي لا تخشى الله ولا تصون عهدها مع الناس، وسقوطها مرهون بتأجيل العدوان عليها. وهم ينهبونك في وقت السلم، وينهبك العدو في وقت الحرب وسبب ذلك أنهم لا يجدون دافعا يدفعهم للبقاء في الميدان سوى الأجور الزهيدة التي لا تجعلهم على استعداد للموت من أجلك.

فهم مستعدون لأن يكونوا جنودك طالما أنك لن تقوم بحرب، ولكن عندما تبدأ الحرب، فإما أن يفروا أو أن يرحلوا معاً.

** حول القوات المعاونة والمختلطة والوطنية

عندما يطلب أحدهم من جاره أن يأتي للدفاع عنه بقواته، فهذه القوات تسمى قوات معاونة، وهي عديمة النفع مثل القوات المرتزقة، وقد تكون هذه القوات جيدة في حد ذاتها، لكنها دائماً مصدر خطر على من يستعيرها. لأنها إذا خسرت المعركة فإنك تكون قد هزمت أما إذا كسبتها فإنك ستبقى أسيراً لتلك القوات.

فعلى من لا يريد أن ينتصر أن يعتمد على هذه القوات المعاونة التي تزيد خطورتها قليلاً على خطورة القوات المرتزقة، فبوجودهم سيكون الخراب شاملاً، وذلك لأنهم متحدون دائماً، ولأنهم للآخرين وليس لك. بينما تحتاج القوات المرتزقة إلى وقت وفرصة مناسبة حتى تتمكن من الإضرار بك، وذلك لأنها لا تشكل تكويناً واحداً ولأنها تستلم رواتبها منك ومرتبطة بك.

وعلى ذلك فإذا جعلت طرفاً ثالثاً هو القائد فإنه لن يستطيع بسرعة أن يتمكن من الحصول على المكانة التي تؤهله لأن يضر مصالحك وخلاصة القول هو: أن قصارى الخطر المتمثل في القوات المرتزقة يكمن في جنبها وتخاذلها عن القتال لكن القوات المعاونة خطورتها تنبع من شجاعتها.

والأمير المحنك إذن يتجنب دائماً هذين النوعين من القوات وله مصادره الخاصة للقوات، وهو يفضل الهزيمة على يد قواته الخاصة عن النصر على يد قوات الآخرين، فهو لا يعتقد أن هذا الذي تحققه القوات الأجنبية سيكون نصراً حقيقياً.

وباختصار فإن استخدام أسلحة الآخرين غير مجد أيضاً وقد تعوقك، أو تشل حركتك أو تشكل عبئاً عليك.

ولذلك فإنني حديثي بالتأكيد على أنه لا سلامة للأمير يحتمي بقوات مسلحة غير قواته الوطنية. فبدون قواته المسلحة الوطنية يتوقف مصيره على حسن الطالع فقط، وسيظل بلا وسيلة يملك بها الدفاع عن نفسه حين تضطرب الأحوال.

لقد قال الحكماء: "لا يوجد ما يزعزع عند البشر أكثر من ولايات تدعمها الشهرة ولا تدعمها قواتها الوطنية.. وقوات الأمير الوطنية تتكون إما من الرعايا أو من المواطنين، أو من أتباعه هو وأي قوات أخرى غير هؤلاء هي إما أجير مرتزق أو من القوات المعاونة.

****** ينبغي للأمير ألا تكون له غاية أو فكرة سوى الحرب، ونظامها وطرق تنظيمها، وألا يتخذ لدراسته موضوعاً آخر سواها. فهذا هو الفن الوحيد اللازم لمن يتولى القيادة. فهو فن له من المزايا ما يكفي للمحافظة على هؤلاء الذين ولدوا أمراء والإبقاء عليهم في مناصبهم. كما أنه يساعد الرجال العاديين على بلوغ مرتبة الإمارة ومن ناحية أخرى يمكننا أن نرى أن الأمراء يفقدون ولاياتهم عندما يفكرون في مظاهر الترف أكثر من تفكيرهم في الأسلحة. والسبب الأول لضياح الولايات هو إهمال هذا الفن. فهي تكتسب عن طريق إجادة هذا الفن.

وذلك لأن من بين عيوب عدم التسلح الجيد هو أن الفرد يصبح بلا قيمة، وهذا أمر لا بد على الأمير أن يتجنبه. فشتان ما بين رجل مسلح ورجل أعزل، ومهما كان الأمر فلن نرى رجلاً مسلحاً يطيع رجلاً أعزل، وهو بكامل إرادته، ولن نر أعزل سالماً بين أتباعه المسلحين. فمن المستحيل أن يعمل الاثنان معاً في سلام، لأن أحدهما محتقر والآخر كثير الشك.

ولهذا فمن المستحل أن يحترم الجنود أميرهم الذي يجهل الشؤون الحربية، أو أن يكونوا محل ثقته.

ولذلك لا بد للأمير ألا ينسى التدريب العسكري، فهو يتدرب في وقت السلم أكثر مما يفعل في وقت الحرب، وهذا ممكن تطبيقه بطريقتين إحداهما عملية والأخرى نظرية ومن الناحية العملية، يجب عليه بجانب تنظيمه لقواته وتدريبه لهم أن يشغل نفسه بالصيد باستمرار، فهذا أمر يعود جسده على المشقة والتعب، كما أنه يجعله يدرس طبيعة البلاد في نفس الوقت، فهذه منحدرات الجبال وهنا تنفرج الوديان، وهناك مواقع السيول، ويفهم طبيعة المستنقعات والأنهار، وعليه أن يلم بجميع هذه الأمور إلماماً تاماً.

ولهذا العلم فوائد من ناحيتين أولها أن الإنسان يعرف عن بلاده كل شيء مما يتيح له أن يدافع عنها بصورة أفضل، كما أن معرفته لطبيعة إقليم بلاده توصله إلى طبيعة أقاليم أخرى. والأمير الذي لا يملك هذه الصفات يفتقد أول ضروريات القائد. فهذه المعارف تعلمه كيف يلقي عدوه، وكيف يقيم المعسكرات؟ وأين يقيمها؟ وكيف يضع الخطط للمعارك؟ وكيف يحاصر المدن ويظفر بها؟ أما فيما يخص تدريب العقل فإن على الأمير أن يقرأ تاريخه، ويدرس أعمال عظام الرجال، ليرى كيف كانوا يتصرفون في الحروب، ويدرس أسباب انتصاراتهم ومسيبات هزائمهم، حتى يستطيع أن يسير على درب المظفرين ويتحاشى أن يلقي هزيمة تماثل هزائم المقهورين منهم وقبل كل شيء يجب عليه أن يسير على درب عظماء الماضي، الذين كانوا يتخذون هم بدورهم من العظماء الذين سبقوهم قدوة لهم. وعلى الأمير الحكيم أن ينهج هذا النهج ولا يخلد في زمن السلم إلى الكسب أبداً. وأن يصبر على الاستفادة من هذه الطريقة بمهارة قدر الإمكان. حتى أنه يستطيع أن يكون مستعداً لضربات القدر حين تتغير الأحوال، وأن تكون له السيادة وقت الشدائد.

**** لا يجب علينا أن نترك ما نقوم به من أفعال في سبيل تحقق ما ينبغي تحقيقه على أتم وجه فهذا سعي للفناء وليس للبقاء في أفضل حال. فمن يريد الخير لن ينعم أبداً إذا كان حوله الكثير من الأشرار. لذلك يجب على الأمير الذي يريد الحفاظ على نفسه أولاً، أن يعرف كيف يكون خيراً وليس شريراً ومتى يستخدم هذه الصفة؟ ومتى لا يستخدمها حسب الضرورة؟**

ومن الواضح أن كل أمير يتصف بكل الصفات الخيرة سينال ثناء كبيراً من الناس، ولكن لما كان من غير الممكن أن يحوز كل هذه الصفات، وذلك لأن صفات البشر لا تسمح بذلك كان من الضروري بالنسبة له أن يكون ذا حكمة كافية، تمكنه من تحاشي أي فضيحة بسبب رذيلة من هذه الرذائل، والتي قد تفقده الولاية ويقي نفسه من شرور الصفات الأخرى.

وإذا لم يستطع ذلك فعليه أن يهمل تماماً هذه الرذائل، ويحترس جداً فقط من تلك التي قد تسبب هلاكه ويجب عليه ألا يعبأ بفضح تلك الرذائل التي يصعب بدونها المحافظة على الولاية.

وذلك لأننا إذا نظرنا للأمور نظرة صحيحة لوجدنا أن بعض ما يبدو فضائل قد يهلكنا لو طبقناه، والبعض الآخر الذي يبدو من الرذائل قد يسبب سلامة الإنسان وسعاده.

من الأفضل للأمير أن يكون كريماً سخياً إلا أن السخاء بمعناه عند العامة قد يؤدي صاحبه. وذلك لأنه إذا استخدم الكرم بالطريقة الصحيحة ومعناه الحقيقي، فلن يعلم أحد عنه أي شيء، وبالتالي يوصم صاحبه بالرذيلة المضادة وهي الشح والتقتير.

لكن على من يريد أن يشتهر بالسخاء بين الناس ألا يتخلى عن كل المظاهر الفخمة، لأن سخاء الأمير إذا وصل إلى هذا الحد سيستهلك جميع موارده، فيضطر إلى فرض الضرائب الباهظة على شعبه وجباية الأموال في سبيل المحافظة على هذه الشهرة.

وهذا يبدأ الكراهية له في صدور رعاياه، فهو قليل الاحترام حين يصبح فقيراً، كما أنه سيكون قد أضر الكثيرين بسخائه الذي لن يستفيد منه سوى القلة. ويؤثر فيه أول اضطراب بسيط، ويحيط به الخطر عند حدوث الشدائد بسرعة، فإذا ما أدرك الأمير ذلك، وأراد أن يغير من طبعه، فإنه يتهم بالشح والتقتير.

لذلك يجب على الأمير الذي لا يستطيع ممارسة عادة السخاء بطريقة تضره ألا يخشى أن يوصم بالتقتير، لأنه سيعتبر سخياً مع مرور الزمن، حين يعرف أن اقتصاده جعل الدخل كافياً للدفاع عن النفس ضد من يريد أن يشن عليه حرباً.

كما يمكنه القيام بالكثير من الأعمال العظيمة دون أن يثقل كاهل شعبه، فيصبح سخياً في نظر من لم يحصل منهم مالاً، وعددهم لا يحصى، وهو مقتر بالنسبة لمن لم يعطهم، وهم قليلون ونحن لم نر في أيامنا أعمالاً عظيمة إلا لمن كانوا في عداد المقترين وقضي على جميع من عداهم.

ولكل هذه الأسباب لابد للأمير ألا يعبا إذا ما وصف بالبخل، إذا أراد ألا يفقد رعيته، وأن يكون قادراً على حماية نفسه، وألا يصبح حقيراً وفقيراً، وألا يضطر إلى أن يصبح جشعاً.

إن الشح رذيلة تمكنه من الحكم. فإذا قيل إن القيصر قد بلغ الإمبراطورية بالسخاء، وصعد كثيرون غيره إلى أعلى منزلة بالسخاء أو باشتهاهم به، فإني أرد على ذلك قائلاً إنك إما أن تكون أميراً حديث العهد، أو في طريقك لأن تكون أميراً. ففي الحالة الأولى يكون الكرم مضراً، أما في الحالة الثانية فيجب عليك دائماً أن تكون من شديدي الكرم.

وقد يقال: إن كثيراً من الأمراء الذين حققوا فتوحات عظيمة بجيوشهم، كانوا يوصفون أيضاً بشدة السخاء، فإني أرد قائلاً إن الأمير قد ينفق من أمواله الخاصة ومن ثروات الآخرين وأموال الرعية.

ففي الحالة الأولى وهي إنفاقه من أمواله الخاصة لابد أن يعرف عنه الاقتصاد في الإنفاق، وفيما عدا ذلك يجب أن يهتم بأن يكون سخياً، وهو أمر ضروري الأمير يسير بجيوشه، ويعيش على سلب الملكيات، والغنائم، والفدية، فهو ينفق من ثروة غيره. كما أن جنوده لن يساندوه دون أن يكون سخياً جداً معهم.

ومن الممكن لك أن تكون سخياً جداً بما لا تملك أو لا يملكه رعاياك، وذلك كما فعل كورش والاسكندر فالإنفاق من ثروات الآخرين لن يحط من سمعتك. بل إنه سيعلي من قدرك، ولن يؤذيك سوى الإنفاق مما تملك فقط ولا توجد صفة تحطم نفسها بنفسها مثل صفة الكرم، لأنه كلما زاد كرم المرء فإنه يفقد القدرة على المزيد منه، فيتحول إلى إما فقير حقير، أو جشع مكروه حتى يتحاشى الفقر وأهم ما يجب أن يتحاشاه الأمير من هذه الأمور هو أن يصبح فقيراً أو مكروهاً، والسخاء هو ما يقود إلى إحدى هاتين الصفتين. ولهذا فمن الأفضل أن يشتهر الأمير بالحرص الذي يجلب له اللعنة وليس الكراهية، وألا يضطر إلى أن يكون جشعاً، لأن ذلك يجلب له العار والكراهية معاً.

**** على الأمير أن يسعى لأن يوصف بالرحمة وليس الشدة، وأن يحرص على عدم إساءة استخدام الرحمة بأي حال من الأحوال.**

لذا يجب على الأمير ألا يعبأ بأن يوصف بالشدة مادامت هذه الشدة من أجل الحفاظ على مواطنيه وولائهم له، وذلك لأنه حين يكون شديداً مع عدد قليل جداً من الناس، وهو بذلك أفضل من الأمراء الذين يفرطون في اللين مما يسبب وقوع الاضطرابات. وتسهيل الدماء ويحدث النهب والسلب.

وهذه أمور تضر الكثيرين بصفة عامة، لكن تنفيذ حكم الإعدام في عدد قليل من الناس لن يؤدي أحداً غيرهم. والأمير حديث العهد بالإمارة فقط هو من في حاجة شديدة دون بقية الأمراء للاشتهار بالشدة، لأن الولايات الجديدة تعاني دائماً من الأخطار.

ومع ذلك يجب على الأمير أن يحذر في كل ما يحمله من معتقدات وكل ما يقوم به من أعمال، وألا يظهر بمظهر الجبان الرعيد، وأن يتقدم إلى الأمام بحكمة ولين وألا تجعله الثقة الزائدة يهمل الحذر، وألا تجعله الريبة الزائدة غير محتمل.

ومن هنا تبرز مشكلة المفاضلة بين وجوب أن يكون الأمير محبوباً أكثر منه مهاباً أم مهاباً أكثر منه محبوباً والجواب هو أنه ينبغي على الإنسان أن يكون محبوباً ومهاباً في نفس الوقت. ولما كان من الصعوبة الحفاظ على الصفتين معاً، فإن المهابة في هذه الحالة أفضل بكثير إذا كنا لا نستطيع إيجاد الصفتين معاً. لأنه من الممكن أن نقول عن عامة البشر إنهم ينكرون المعروف ويحبون المراوغة في الحديث ومراءين حريصون على تجنب الخطر، راغبون في الكسب، هم أعوانك طالما استفادوا منك، وهم يفدونك بالدم وما يملكون وبحياتهم وولدهم، حين لا يكون هناك داع لذلك، ولكن حين تقترب الأخطار ينقلبون عليك.

إن الأمير الذي يعتمد على وعود رعاياه يهلك إلا إذا تهيأ بالمعدات الكافية، وذلك لأن الصداقة التي يمكن شراءها غير مأمونة، ولن تعمل لصالحك عند الضرورة.

إن البشر يترددون في الإساءة إلى من يحبون أقل من ترددهم في إيذاء من يهابون وذلك لأن الحب مرتبط بسلسلة من الارتباطات التي تتفكك عندما تؤدي غرضها

وذلك بسبب أنانية الناس لكن استخدام المهابة والخوف من العقاب طريقة صحيحة لا تفشل أبداً.

ما زلت أقول: إنه على الأمير أن يجعل نفسه مهابةً بطريقة تجعله إن لم يحصل على الحب، فإنه يتجنب الكراهية على أي حال.

وذلك لأن المهابة وعدم وجود الكراهية من الممكن أن يجتمعا معا ويستطيع تحقيق ذلك كل من يمتنع عن التدخل في أمور أملاك رعاياه ونسائهم وعليه ألا يأمر بإعدام أي شخص إلا بعد التأكد من المبررات الكافية لذلك وبوضوح أسبابه.

لكنه يجب عليه - قبل كل شيء - الامتناع عن الاستيلاء على أملاك غيره، لأن الإنسان قد ينسى موت أبيه بسهولة عن نسيانه لضياح ميراثه.

كما أنه لا حاجة للأمير أن يوجد الذرائع لاغتصاب ملكيات الغير فمن يعيش على النهب سيجد دائماً سبباً يغتصب به متاع الآخرين بينما مسببات الإعدام أقل بكثير وتزول سريعاً.

لكن عندما يكون الأمير بين أفراد جيشه ومعه عدد كبير من الجنود فإنه يتحتم عليه أن يُعرف بالشدة، لأنه بدون هذه السمعة لن يحافظ على وحدة الجيش أو يؤدي أي مهمة

ولذلك فإني أختتم حديثي عن مهابة الأمير، وحب الناس له فأقول إن الناس يحبون محض إرادتهم الحرة، لكنهم يخافون حسب رغبة الأمير، وعلى الأمير العاقل أن يعتمد على ما له من سلطان، وأن يسعى لتجنب ما يسبب له الكراهية المدمرة، كما سبق أن أوضحت.

****** كلنا نعرف مدى الثناء الذي يناله الأمير الذي يحفظ عهده ويحيا حياة مستقيمة، دون مكر لكن تجارب عصرنا هذا تدل على أن أولئك الأمراء الذين حققوا أعمالاً عظيمة هم من لم يصن العهد إلا قليلاً وهم من استطاع أن يؤثر على العقل بما له من مكر. كما استطاعوا التغلب على من جعلوا الأمانة هادياً لهم.

ويجب أن تعلم أن هناك طريقتين للقتال، واحدة لها قواعد وقوانين والأخرى تعتمد على القوة فقط. الطريقة الأولى للبشر، أما الثانية فللحيوانات المفترسة، ولما كانت الأولى غير كافية في أغلب الأحوال، فإن المرء كان يلجأ غالباً للطريقة الثانية. ولهذا فمن الضروري للأمير أن يعرف حق المعرفة كيف يستخدم كلتا الطريقتين.

وقد علم الكتاب القدامى أمراءهم ذلك وأوحوا لهم به. فهم يرون أن "أخيليس" وغيره الكثير من الأمراء القدامى قد أرسلوا إلى "كيرون" ليربيهم ويعلمهم بطريقته. وهم يقصدون من صورة هذا المعلم ذي النصف البشري، والنصف الحيواني أن يوضحوا أنه على الأمير أن يعرف كيف يستخدم الطريقتين معاً، فواحدة منهما لن تدوم بدون الأخرى.

ولهذا السبب كان الأمير مضطراً إلى أن يعلم جيداً كيف يتصرف كالحَيوان، فهو يقلد الثعلب والأسد، لكن الأسد لا يستطيع أن يحمي نفسه من الفخاخ والثعلب غير قادر على مواجهة الذئب.. على المرء إذن أن يكون ثعلباً لمواجهة الفخاخ ويكون أيضاً أسداً ليخيف الذئب.

ومن يريد أن يكون أسداً فقط لا يفهم الأمور جيداً. فعلى الأمير إذن ألا يحفظ عهداً يكون الوفاء به ضد مصلحته، وألا يستمر في الوفاء بوعده انتهت أسباب الارتباط به.

وقد يكون هذا المبدأ مبدأ شريراً لكن هذا يصدق فقط في حالة ما إذا كان جميع البشر من الخيار. لكن إذا كانوا جميعاً من الأشرار ولن يرعوا عهودهم معك، فهذا يسمح لك أن تكون في حل من عهودهم. فلم يفشل أي حاكم في اختلاق الأعذار المقبولة التي يبرر بها عدم الوفاء بالعهد.

وهناك عدد لا حصر له من الأمثلة في العصر الحديث تؤكد ذلك، وتوضح أن هناك وعوداً كثيرة قد بطلت بسبب عدم وفاء الأمراء بها. كما توضح لنا أن الذين استطاعوا تقليد الثعلب بمهارة حققوا أفضل نجاح، ولكن لا بد لك أن تكون قادراً على إخفاء هذه الصفة بمهارة، وتستطيع التمويه والخداع حيث إن البسطاء من الناس على

استعداد لقبول أي أمر واقع، ومن يخدعهم سيجد من بينهم من يقبل أن ينخدع بسهولة.

ولن أذكر سوى مثال حديث واحد، حيث لم يفعل "الإسكندر السادس شيئاً سوى التغرير بالناس، فلم يفكر بغير ذلك، ودائماً ما واثته الفرصة لتحقيقه فلم يتفوق عليه أحد في قدرته على توفير الضمانات، وتأكيد الأمور بالحلف الكاذب، ولم يتفوق عليه أحد في عدم الوفاء بالعهد، وكانت حيله دائماً موفقة تحت أي ظروف، لأنه كان يفهم هذا الأمر جيداً.

وليس من الضروري للأمير أن تكون لديه كل الخصال التي سبق ذكرها، على أنه من الضروري أن يبدو عليه أنه يتصف بها.. وأستطيع أن أقول: إن المحافظة على التحلي بهذه الصفات، والحفاظ عليها أمر خطير، لكنه أمر مفيد على أي حال.

وعلى ذلك فمن المفيد أن يبدو الأمير رحيماً، وفيماً حلو الصفات، صادقاً، متديناً، وأن يكون كذلك فعلاً، وليس مظهراً فقط. ولكن يجب أن يتهياً عقلك لكي تتحول إلى أضداد هذه الصفات عند الحاجة.

ويجب أن يكون من المفهوم أن الأمير حديث العهد بالإمارة لا يمكنه مراعاة كل ما يعتبره الناس خيراً، وذلك لأنه في سبيله للحفاظ على الدولة قد يضطر للقيام بأعمال ضد الوفاء والإحسان والصفات الحسنة والدين، ولذلك فعليه أن يعد عقله للتكيف مع أي ربح قد تهب عليه، ومع تغييرات المستقبل. كما يجب عليه كما سبق أن قلنا أن لا يبتعد عن الخير قدر الإمكان مع قدرته على ارتكاب الشرور إذا اضطر إليها.

وعلى الأمير أن يصون لسانه فلا ينطق إلا بما يسبغ عليه من الصفات الخمس الطيبة السابق ذكرها ولا بد له أن يبدو رحيماً وصادقاً ومستقيماً ومتديناً أمام من يراه ويسمعه.

وهذه الصفة الأخيرة ضرورية جداً لأن الناس يحكمون على ما يرونه بأعينهم، وليس على ما يدركونه، فكلنا نستطيع الرؤية، لكن قلة قليلة منا تستطيع أن تدرك واقع الحال الذي أنت عليه، وهي غير قادرة على مواجهة الكثرة التي تحميها مهابة الأمير.

وفي كافة أعمال البشر وخاصة الأمراء فإن الغاية تبرر الوسيلة، وهذا حكم لا يمكن نقضه؛ فعلى الأمير إذن أن يهدف للفوز بالولاية والحفاظة عليها، وسوف يحكم الجميع على وسائله بأنها شريفة ويمدحونها أيضاً.

فعامة الناس يحكمون على الأشياء من مظهرها الخارجي. وهذا العالم لا يتكون إلا من هؤلاء العامة. أما غير الساذجين فهم قلة تنزل حين تجد الكثرة مجتمعة حول الأمير. وهناك أمير في عصرنا كان كل ما يفعله هو الدعوة للسلام والوفاء، وهو في الحقيقة عدو لهما، ولو أنه اهتم بأي منهما في مناسبات عديدة لضاعت منه دولته وخسر اسمه.

**** يجب على الأمير - كما قلت سابقاً - أن يجتنب كل ما يجعل الناس يكرهونه أو يحتقرونه ولا يكون قد قام بدوره إلا حين يوفق في هذا الأمر ولن يكون في بقية الرذائل أي خطر.**

وأول ما يجعل الأمير مكروهاً كما قلت من قبل هو أن يكون جشعاً، وأن يغتصب ممتلكات رعاياه أو نساءهم، وهذا هو ما يجب عليه أن يمتنع عنه. ومادام الأمير لا يعتدي على ملكية عامة الناس أو نساءهم، فإنهم سيعيشون في رضى، ولن يكون أمامه سوى محاربة مطامع قلة من الناس الذين يمكن السيطرة عليهم بطرق عديدة.

ويكون الأمير محتقراً حين يعتقد الناس بأنه متقلب وطائش ومخنت وجبان وضعيف العزيمة. وهذا يجب تجنبه كما يتجنب القبطان صخرة قاتلة.

ومن واجبه أن يحافظ على ظهور أعماله بصورة تعكس العظمة، والقدرة، والجد، وألا يقبل النقض فيما يحكم به بين رعاياه، ويتمسك بما يصدر من قرارات حتى لا يفكر إنسان في أن يضلله أو يخدعه.

إن الأمير الذي يخلق هذا الرأي عن نفسه عند الناس يحظى بسمعة عظيمة. ومن الصعب أن يتآمر عليه أي إنسان ولن يعتدى عليه أي معتد بسهولة، حيث إنه يعرف أنه قدير، تحترمه رعيته.

ويجب على الأمير أن يخشى شيئين: الأول داخلي وله علاقة بالرعايا، والثاني خارجي وله علاقة بالقوى الأجنبية.

يستطيع الأمير أن يحمي نفسه من الأمر الثاني بالأسلحة الجيدة والأصدقاء المخلصين، وهؤلاء الأصدقاء يتوافرون بسهولة مادام يملك الأسلحة الجيدة. أما الأحوال الداخلية، فإنها ستظل هادئة دائماً ما لم تثيرها مؤامرة فتضطرب الأحوال، ولم يحدث اضطراب في الخارج.

وحقاً إذا افترضنا أن قوات أجنبية سعت إلى الهجوم على الأمير، فإنه سيتحمل دائماً ويتمكن من مواجهة كل الصعاب. أما بالنسبة للرعايا، فيجب عليه أن يحتاط من تأمرهم عليه سراً، وذلك إذا كانت رعيته لا تعمل وفقاً لنصائح أجنبية. وهذا من الممكن له تجنبه جيداً بالبعد عن أن يكون محتقراً أو مكروهاً، وذلك ببقاء الشعب راضياً عنه، ومن الضروري تحقيق هذا الأمر، وكما قلت تفصيلاً من قبل.

كما أن أفضل علاج للأمير ضد أي مؤامرات هو حب الشعب له لأن من يتآمر يعتقد أنه سيرضي الشعب إذا اغتال الأمير. لكنه لو علم أنه سيثير جموع المواطنين بفعلته، فإنه سيتجنب تلك الفعلة. لأنه سيواجه بذلك مشكلات لا تعد ولا تحصى.

وهذا ما يجعل كثيراً من المؤامرات تقع دون أن تنجح، وكل متآمر لا يستطيع العمل بمفرده، ولن يجد له شريكاً سوى من الناقمين، والناقم يكتشف مقصدك بسرعة عندما تتبين له نية المتآمر، فيأمل تحقيق فائدة من وراء اتباعه لك، لكنه من ناحية أخرى يرى فيما تعرضه عليه أمراً مخفوفاً بالمخاطر، ولا بد لكي يستجيب لك أن يكون واحداً من اثنين: إما صديق مخلص لك أو عدو شديد العداوة للأمير.

ولتوضيح هذا الأمر بإيجاز أقول: إن المتآمر لن يجد حوله سوى الخوف والحقق والشك والعقاب. أما الأمير فهو محاط بقوة الحكم والقوانين والأعوان الذين يحمونه وولاية تدافع عنه. وإذا ما أضفنا إلى ذلك إرادة الشعب المحيط به، عندئذ يستحيل أن يقدم أي إنسان على أن يتآمر عليه. كما أن المتآمر يشعر بالخوف قبل تنفيذ المؤامرة، وسيشعر بالخوف أيضاً بعد إنجازها لأن الشعب سيكون عدواً له في هذه الحالة، ولا ملاذ له منه.

وعلى ذلك فإن على الأمير ألا يهتم بالمؤامرات إذا كان الشعب يناصره ويحبه، ولكن إذا كان يكرهه ويعاديه، فعليه أن يخاف من كل فرد يخشى كل شيء.

إن الولايات التي تقوم على نظام جيد وأمراء ذوي عقل أولي همة، لا يجعلون النبلاء يضيقون بهم، ويجعلون الشعب راضياً عنهم، ويحافظون على هذا الرضا. وهذا من أهم الأمور التي يجب أن يهتم الأمير بها.

وفرنسا من الممالك التي تتمتع بنظام حكم جيد في عصرنا الحالي، ففيها عدد لا يحصى من المؤسسات الصالحة، وهي ما يعتمد عليه الملك لسلامته وحرية وأول هذه المؤسسات هو البرلمان بما له من صلاحيات، وذلك لأن من أقام هذه المملكة يعرف مطاعم عليّة القوم، وخطرستهم، ويعرف أنه من الضروري أن يكبح جماحهم. وهو يعرف - من ناحية أخرى - الكراهية التي يشعر بها الشعب تجاه عليّة القوم، وهي تقوم على الخوف، وحين أراد أن يشعرهم بالأمن لم يشأ أن يجعل هذا الأمر من مهام الملك الخاصة حتى يجنبه سخط الشعب لو أنه جامل النبلاء، ولذلك أنشأ حكماً ثالثاً (البرلمان) يكبح جماح النبلاء دائماً ويجامل البسطاء وما كان من الممكن فعل ما هو أفضل من ذلك، أو الاحتياط لسلامة الملك والمملكة بطريقة تتفوق على ذلك، وختاماً أقول: إنه على الأمير أن يحترم نبلاء ولايته، لكن عليه أيضاً ألا يجعل عامة الشعب يعادونه.

ومن هنا يتضح أن الأعمال الصالحة قد تجلب الكراهية، كالأعمال الشريرة، ولذلك فإن الأمير الذي يريد أن يحافظ على ولايته أن يقترب بعض الشرور، كما سبق أن أوضحت وذلك لأنه إذا فسد طرف من الأطراف الثلاثة، سواء كان الشعب، أو الجيش، أو النبلاء، وكنت تعتبره ضرورياً من أجل المحافظة على مركزك، فيجب عليك أن تتبع هواه وترضيه، وهنا تؤذي الأعمال الصالحة.

** لقد تعتمد بعض الأمراء نزع السلاح من مواطنيهم من أجل ضمان سلامة حكمهم، بينما حافظ غيرهم على ما يتبعه من ولايات مقسمة إلى أجزاء كما كانت. وهناك من سعى إلى إثارة العداوة فيما بينها، ومنهم من أراد أن يكسب أولئك الذين شكوا فيهم في بداية الحكم إلى جانبهم وبعضهم شيد الحصون والآخر دمرها وهدمها،

وإن كان الإنسان لا يستطيع أن يحكم حكماً قاطعاً في هذه الأمور دون أن يتعمق في تفاصيل حياة الولاية التي سيتحدث عنها، ولذلك سأحدث عنها بطريقة عامة قدر الإمكان.

لم يشتهر أي أمير بأنه ينزع سلاح رعاياه، بل إنه على العكس من ذلك كان يسلحهم إن وجدهم عزلاً، وأنت حين تسلحهم تكون هذه الأسلحة ملكاً لك. وسيخلص لك من كان في قلبك شك من ناحيته، ويستمر المخلصون على ولائهم، وسيتحول من كان مجرد واحد من الرعية إلى واحد من الأنصار، ولما كان من المستحيل تسليح الرعية بالكامل، لكنك عندما تسليح البعض منهم تستطيع أن تعامل الباقين معاملة بأمان أكثر، وهذا الاختلاف في المعاملة يجعل رجالك أكثر ولاء لك. كما أن الآخرين سيلتمسون لك العذر عندما يجدون أن من يقومون بالواجبات الخطرة هم من ينالون تقديراً أكبر.

أما إذا نرعت منهم السلاح، فإنك تسيء بذلك إليهم، وتبدو بمظهر غير الواثق منهم، إما لأنهم من الجبناء أو لقلّة ثقتك فيهم، وكل من هذين التفسيرين يولد كراهيتك في نفوسهم.

وبما أنك لا تستطيع أن تبقى أعزل بدون سلاح، فإنك ستضطر إلى استئجار الجنود بمبالغ عالية. وإذا افترضنا أن هؤلاء الجنود سيكونون صالحين، فإنهم لن يكونوا قادرين على الدفاع عنك ضد أعداء أقوياء، وضد رعايا مشكوك في أمرهم، ولذلك فإن رعايا الأمير الجديد في مملكة جديدة يكونوا دائماً مسلحين حينما يستولى على الإمارة، والتاريخ مليء بالأمثلة على ذلك.

ولكن الأمير، عندما يكسب ولاية جديدة ويضمها إلى ولايته القديمة، فمن الضروري أن ينزع سلاح هذه الولاية عدا من وقف بجانبه وناصره عند الاستيلاء عليها، وحتى هؤلاء يجب على الأمير أن ينتهز الفرصة والوقت المناسب، ويجعل منهم ضعفاء ومخنثين، وأن يهيئ كل شيء ليجعل جميع أسلحة الولاية الجيدة في أيدي الجنود الذين يعيشون بالقرب منه في ولايته القديمة.

وما من شك في أن الأمراء يصبحون عظماء حين يتغلبون على ما يواجهونه من معارضة ومن صعاب مما جعل البعض يظن أنه على الأمير العاقل أن يثير العداء بين الرعية بدهاء حين تسنح الفرصة، حتى تزيد عظمته حين يسيطر عليه ويكبحهم. إن الأمراء -وخاصة حديثي العهد منهم- قد وجدوا من هؤلاء الذين كانوا ينظرون إليهم بشك في بداية عهدهم إخلاصاً أكثر مما وجدوه فيمن كانوا موضع ثقتهم منذ البداية.

ولكني أقول أن الأمير من الممكن أن يكسب ود من كانوا أعداءه عند بداية حكمه بسهولة وسيخلصون له أكثر من غيرهم وذلك لأنهم يدركون أن عليهم أن يبطلوا بأعمالهم ذلك الرأي السيئ الذي سبق للأمير أن كونه عنهم. وبهذا فإن الأمير سيستفيد منهم أكثر من هؤلاء الذين اعتادوا خدمته فأهملوها لاطمئنانهم إليه.

ولكني أغفل ذكر الأمير الذي أخذ ولاية جديدة بعد أن ساعده أهلها سرّاً، لأن الموضوع يتطلب ذلك، وأرى أن عليه أن يضع في اعتباره تلك الدوافع التي أدت بهم إلى ذلك. فإن لم يكن ذلك بسبب حبهم له، وإنما فقط بسبب غضبهم من أوضاع الولاية السابقة، فإنه سيواجه متاعب كبيرة ومشكلات كثيرة، وذلك لأن رضاهم عنه من المستحيل.

وحين نتناول أسباب الأمثلة التي استخرجتها من الأزمنة الحديثة والقديمة نرى أن اكتساب صداقة الذين كانوا غير راضين عنك في النظام القديم، ومن كانوا أعداء لنا في بداية العهد أسهل كثيراً من كسب صداقة من ساعدوا الأمير على الاستحواذ على ولاية جديدة لسخطهم على النظام القديم.

**** أفضل الحصون هو ما يقوم على حب الشعب لأمرهم فإنك إذا ملكت الحصون القوية فهي لن تحميك من شعب يكرهك، إنه سيظهر السلاح في وجهك ولن يكون في حاجة لأجانب يساعدونه.**

وعلى ذلك فإني أمتدح من يقيم الحصون ويستخدمها استخداماً صحيحاً في وقت مناسب، كما أمتدح من لا يقيمها عندما يكون في إقامتها خطر عليه. وألوم كل إنسان يعتمد على القلاع والحصون ويتق بها ولا يهتم كثيراً بكرهية الشعب له.

** لا شيء يؤدي إلى احترام الأمير بشدة سوى أعماله العظيمة، والأعمال غير العادية بصفة عامة. ويستفيد الأمير أيضاً فائدة كبرى عندما تكون له أعمال عظيمة وبارزة في الإدارة الداخلية ومن الناحية الدينية يجب على الأمير البحث عن طريقة مناسبة للثواب والعقاب، وهو أمر كثر الحديث عنه، وهما يأتيان عندما يقوم الفرد بعمل فز سواء كان خيراً أم شراً. وعلى الأمير أيضاً أن يسعى في كل الأعمال التي تكسبه شهرة بالعظمة والتميز.

** ويحترم الأمير بشدة إذا كان مخلصاً في الصداقة أو شديد العداء، وذلك حين يعلن بصراحة تامة تأييده أو عداؤه لفرد ما. وهي سياسة أكثر نفعاً له من أن يبدو محايداً دائماً. فإذا بدأ القتال بين دولتين متجاورتين، فقد يخشى انتصار أي منهما، أو لا يخشاه وأيا كانت الحالة من الأفضل لك أن تعلن موقفك بوضوح، وتعلن الحرب. فإذا لم يتضح موقفك، فإنك ستقع فريسة للمنتصر في الحالة الأولى. وهذا يرضي الدولة المنتصرة ويقنعها. ولن تستطيع تبرير موقفك أو الدفاع عن نفسك، ولن يقبل أحد مقابلتك. فكل منتصر لا يريد أصدقاء مشكوك في أمرهم، لم يمدوا إليه يد المساعدة وقت الشدة. كما أن المقهور لن يقابلك أيضاً لأنك لم تستل سلاحك وتخطر بنفسك من أجل قضيته.

وفي أغلب الأحوال يطلب منك صديقك أن تفصح عن موقفك وتشهر السلاح، أما من هو ليس صديقاً لك فسيطلب منك البقاء على الحياد والأمراء ضعاف الهمة عادة ما يفضلون الحياد تحاشياً للأخطار، وهي طريقة غالباً ما تدمرهم.

لكن الأمير حين يعلن عن موقفه صراحة ويؤيد أحد الطرفين فإنه إذا انتصر من انضمت إليه، فسيظل يدين لك بالمعروف حتى لو كان قوياً وبقية أنت تحت سلطانه، وستستمر الصداقة بينكما بعد أن بدأت ولن تصل خيانة الرجال بأي حال من الأحوال إلى أن يبطشوا بك وأنت من أحسنت إليهم في يوم من الأيام بالإضافة إلى أنه ينذر أن يتم النصر بصورة تجعل المنتصر يتحلل من كل أعمال الخير، وخاصة العدل. أما إذا هزم حليفك، فيمكنك الاعتماد عليه وسيساعدك مادام قادراً على ذلك وتشارك في قدر واحد قد يصعد نجمه من جديد.

أما في الحالة الثانية التي لا يخشى فيها أي من المتحاربين من أي ناحية، يظل من الأفضل بالنسبة لك أن تناصر أحدهما، فأنت تسعى إلى تدمير واحد منهم بمساعدة من كان ينبغي له أن ينقذه لو كان عاقلاً، فإن انتصر -وهذا مضمون بمساعدتك له- فإنه يظل طوع أمرك.

وهنا يتحتم علينا أن نلاحظ أنه من واجب الأمير أن يحذر التحالف مع من هو أقوى منه حتى يعتدي على غيره، إلا إذا كان مضطراً لذلك، لأنه إذا ظفر هذا الحليف بالنصر، فستظل أنت تحت سلطانه.

****** من واجب الأمراء أن يتجنبوا أن يكونوا تحت إمرة وإرادة غيرهم قدر المستطاع. ولكن إذا لم يستطع الأمير تجنب ذلك ينبغي للأمير حينئذ أن يتحالف مع الآخرين للأسباب السابق ذكرها.

ولا يجب أن يدع الحكومة تعتقد أنها قادرة على السير بسياسة واحدة صحيحة، ولكن من الأجدر بنا أن نجعلها تعتقد أن كل السياسات مشكوك فيها، وهذا الأمر من طبيعة كل شيء. فالإنسان عندما يحاول تجنب صعوبة ما دون الاصطدام بغيرها، ومن الحكمة أن نكون قادرين على معرفة طبيعة الصعاب التي تواجهنا وتحديد أقلها ضرراً.

****** وعلى الأمير أيضاً أن يُكرم الموهوبين ويميز القادرين، ويحمي البارزين في كل فن بالإضافة إلى أنه من واجبه أن يحث مواطنيه على ممارسة العمل وهم مطمئنون بالبال، سواء كان هذا العمل تجارة أو زراعة أو صناعة يعمل بها الناس.

وذلك حتى لا يحجم الناس عن الإبداع فيما يفعلون خوفاً من المصادرة، أو أن يحجم البعض الآخر عن بدء صناعة خوفاً من الضرائب، وينبغي مكافأة كل من يقوم بهذه الأعمال، وكذلك كل من يسعى لتحسين أحوال المدينة، أو الولاية بأي طريقة بالإضافة إلى أنه يجب عليه أن يلهم شعبه بالمهرجانات، والمعارض في المواسم السنوية المختلفة.

ولما كانت كل مدينة تتألف إما من طوائف عمالية، أو من طبقات اجتماعية، فإنه لا ينبغي للأمير أن يغض بصره عن كل هذه الطوائف والفئات. ويجتمع معهم من وقت لآخر. وأن يكون مثلاً أمامهم لعظيم الكرم، والإنسانية دون أن يقلل من مستوى إجلاله واحترامه وألا يسمح بذلك أبداً في أي وقت.

****** إن اختيار أمناء للأمير لا يعتبر أمراً قليل الأهمية، فالأمناء إما صالحون أو غير صالحين، وهذا يتوقف على حكمة وذكاء الأمير. ويمكننا أن نقيم الحاكم وعقله حين نرى من يحيط به من رجال. فإذا كانوا قادرين ومخلصين يمكننا دائماً أن نعتبر أن الأمير من الحكماء، حيث استطاع أن يحدد قدرات أمنائه، وأن يحافظ على إخلاصهم له. ولكن إذا كانوا غير ذلك يمكننا أن نكون رأياً غير جيد عن الأمير لأنه قد أساء الا

وهناك صفة أخرى يمكن بها للأمير أن يعرف وزيره وهي طريقة صائبة دائماً. فإذا وجدت الوزير يفكر في نفسه أكثر مما يفكر فيك، وأنه يبحث عن مصلحته الشخصية في جميع أعماله، فإنه لن يكون وزيراً صالحاً، ولا يمكنك أن تعتمد عليه فواجب من يمسك بزمام الأمور في ولاية غيره أن يفكر في الأمير فقط، ولا يفكر في نفسه أبداً. وألا يهتم بشيء سوى ما يخص الأمير.

ومن ناحية أخرى ينبغي للأمير أن يصون وفاء أمينه له، فيفكر في أحواله ويكرمه ويغدق عليه، ويرفع منزلته، ويسند إليه الأعمال الكبرى. ويستطيع الأمراء وأمنائهم

الاعتماد على بعضهم البعض حتى تستمر هذه العلاقة، أما إذا شاب العلاقة غير ذلك فالنتيجة هي المضرة دائماً سواء لهذا أو لذلك.

**** المتملقون يمتلئ بهم كل بلاط، فالناس يسعدون بمن يخصهم، وينخدعون بالتملق، لدرجة أنهم لا يستطيعون تجنب هذا الطاعون إلا بصعوبة بالغة. وليس هناك طريقة أخرى أمام المرء يقي بها نفسه شر التملق سوى أن يدع الناس يدركون أنه يحب أن يسمع منهم الحقيقة. لكنك تفقد احترامهم لك لو سمحت لكل منهم أن يخبرك بالحقيقة.**

ولذلك على الأمير أن يتبع طريقة ثالثة، وهي أن يختار من ينصحونه من حكماء الناس، ويمنحهم الحرية التامة كي يتحدثوا إليه عما يسألهم عنه من أمور فقط وليس عن أي شيء آخر. وعليه أن يسألهم عن كل شيء، ويسمع رأيهم، ثم يتناول الأمر مع نفسه وعلى طريقته الخاصة، وأن يجتمع بنفسه مع مجالسهم، ومع كل منهم على انفراد، حتى يستطيع كل منهم أن يدرك أنه كلما كان ذا رأي حر كان أكثر قبولاً عند الأمير ولا يجب على الأمير أن يستمع إلى غير هؤلاء الذين أعدهم لهذا الأمر، وأن يعمل بتأن ويفكر جيداً، وأن يكون حازماً فيما يتخذه من قرارات ومن يفعل غير ذلك إما أن يؤدي به التملق إلى التعجل، أو أنه لا يستقر على رأي أبداً، ونتيجة كل ذلك أنه يفقد اعتباره وهيبته..

ولكل هذا ينبغي للأمير أن يستشير دائماً، عندما يكون هو فقط في حاجة للاستشارة وليس عندما يريد غيره وينبغي أن يكون الأمير سائلاً محنكاً، ومستمعاً متأنياً لما يسأل عنه، وأن يغضب ممن يحجم عن ذكر الحقيقة المجردة وكما هي تماماً وهو يحدثه. ويخطئ من يظن أن الأمير الحكيم حكيم بسبب طبيعته الشخصية فقط، لكن ذلك يرجع أيضاً للمستشارين الخيطين به.

والقاعدة الثابتة تقول: إن نصيحة المسداة إلى الأمير غير الحكيم لن تجدي إلا إذا كان هذا الأمير غير الحكيم قد تخلى عن ذاته وسلم نفسه لرجل يسيطر عليه تماماً في كل الأمور، وكان هذا الرجل ذا حكمة جيدة، وفي هذه الحالة سيكون حكمه صالحاً.

لكن هذا الأمر لا يطول، لأن هذا الحاكم سيجرده من الولاية. وإذا أخذ الأمير غير الحكيم المشورة من عدد كبير من الناس، فإنه لن يستطيع التوفيق بين آرائهم المختلفة أو الاختيار منها لأنه غير حكيم، وسوف يفكرون جميعاً في مصالحهم الخاصة، ويعجز هو عن تقويمهم وفهمهم. ولا يمكن أن يحدث غير ذلك لأن الناس يقولون لك الصدق إذا اضطروا لذلك. ولهذا يجب أن تكون النتيجة التي نصل إليها هي: تعود النصائح الحكيمة لأي ناصح كان إلى حكمة الأمير، ولا تعزى حكمة الأمير إلى ما يتلقاه من نصائح صالحة.

** إن الحكمة تجعل الأمير الجديد يبدو وكأنه قديم في الحكم، كما أنه يصبح فوراً أكثر ثباتاً في الولاية وأكثر سلامة كما لو كان أميراً منذ سنوات عديدة، والناس يتابعون أعمال الأمير الجديد أكثر من متابعتهم لأعمال الأمير الذي ورث الإمارة، وحين تعتبر هذه الأعمال أعمالاً فاضلة، يرتبط به الناس ارتباطاً أوثق مما لو كان أميراً قديماً.

لأن ما يحدث حالياً يجذب اهتمام الناس أكثر مما حدث في الماضي، وحين تكون حالتهم الراهنة جيدة يرضون بها ولا يبحثون عن غيرها. ولكن وعلى العكس من ذلك تماماً، فهم سوف يبذلون كل ما في وسعهم للدفاع عن الأمير. وهكذا يتضاعف مجد الأمير: فقد أرسى عهداً جديداً وهذا مجد يحسب له، والمجد الآخر يتمثل في إقامته للولاية على القوانين الصالحة والأسلحة الجيدة والأصدقاء الصالحين والقذوة الصالحة. بينما يتضاعف عار الأمير الذي يولد أميراً ويفقد عرشه بسبب افتقاره إلى الحكمة.

ولذلك على الأمراء الذين سيطروا على مملكاتهم لسنوات طويلة ألا يهتموا الحظ كسبب لفقدانهم لها، ومن الأجدر بهم أن يهتموا إهمالهم، لأنهم لم يحسبوا حساباً للاضطرابات التي قد تحدث بعد الفترات الهادئة (شأنهم في ذلك شأن حافة البشر الذين لا يتوقعون العواصف عندما يكون الطقس معتدلاً).

وحين تتغير الأحوال فروا بدلاً من الدفاع عن أنفسهم. وكانوا يأملون أن يستدعيهم الشعب حينما يستاء من غطرسة المعتدين. وهذه طريقة جيدة إن لم يكن أمامهم سواها. ولكن من السيئ جداً إهمال الطرق الأخرى من أجل استخدام هذه

الطريقة، فما من عاقل يرغب في السقوط وهو يعتقد أنه قد يجد من يأخذ بيده، وهو أمر قد يحدث وقد لا يحدث، وإذا حدث لك هذا الأمر فلا تكن مطمئناً، لأنك لم تعتمد على نفسك، ولكن ساعدك الآخرون كما يساعدون الجبناء.. إن طرق الدفاع الصالحة الوحيدة والأكيدة والدائمة هي تلك الطرق التي تعتمد عليك وحدك وعلى قدراتك وليس على الآخرين.

** العديد من الكتاب يرى أن الحظ يسيطر على أحداث هذا العالم، وأن البشر ليس باستطاعته أن يغيرها أياً كانت، ولذلك فإن كثرة التعب في الحياة غير مفيدة لنذر الصدفة تحكم الأمور.

وهذا الرأي يجد تأييداً كبيراً في أيامنا هذه بسبب ما يحدث من تغيرات كبيرة وأحداث إنسانية. لكني حين أفكر فيها أميل أحياناً إلى الانضمام إلى هذا الرأي إلى حد ما. لكن، وحتى لا نقضي على إرادتنا قضاء تاماً، أرى أنه من الأصوب أن نعتبر أن الحظ يحكم نصف أعمالنا، ويترك لنا النصف الآخر تقريباً.

وإني أشبه الحظ بالنهر الهائج القوي سريع التيار الذي يفيض على السهول، ويقتلع الشجر، ويهدم المباني، وينقل التربة من شاطئ لآخر، يفر الناس أمامه، ويستسلم الجميع لهياجه، ولا يقوون على الوقوف أمامه. ومع ذلك ورغم طبيعته هذه فإن الناس يظلون قادرين على مواجهته والاحتراس منه، فهم يبنون السدود والجسور حين يكون هادئاً، فإذا ما هاج يجري في قناة أو تقل خطورته واندفاعه.

وبالمثل نجد أن الحظ تظهر قوته فقط إذا لم تكن هناك تدابير متخذة ضده. فيوجه نفسه إلى حيث لا توجد تدابير ضده أو موانع تعوقه.

وهذا كاف للتصدي للحظ بصفة عامة. ولكني حين أقصر على حالات خاصة فإنني أشير إلى مثال يحدث وهو أن المرء قد يرى أميراً يأتيه الحظ اليوم، ثم يحطمه غداً، والأمير على حاله لم تتغير أخلاقه أو غيرها.

وأول أسباب ذلك هو أن الأمير الذي يعتمد تماماً على الحظ يهلك إذا تغير حظه وأعتقد أيضاً أن السعيد هو من تتفق أعماله مع متطلبات العصر، وفي المقابل فإن

التعيس هو من لا تسائر أعماله عصره. وذلك لأن المرء يرى الرجال من خلال ما يفعلونه من أجل تحقيق أغراضهم، وبطرق مختلفة. فهذا يصل بالحذر، وذلك يصل بالتسرع، وآخر بالعنف، أو بالمكر أو بالصبر، وآخرون يستخدمون عكس هذه الصفات. وكل منهم قد يحقق هدفه رغم اختلاف مناهجهم تماماً.

وقد نرى رجلين حذرين ينجح أحدهما في الوصول إلى ما يريد، ويفشل الآخر، ورجلين آخرين يحققان نفس القدر من النجاح رغم اختلاف طريقتيهما، فهذا مندفع وذاك حذر والسر في هذا التباين يرجع إلى طبيعة العصر واتفاقها مع ما يقومون به من أعمال أم لا.

وعلى هذا الأمر تتوقف أيضاً التغيرات التي تحدث في مدى الرفاهية. فإذا كان الزمان والظروف المعاصرة ملائمين لمن يعمل بحذر فإنه سينجح، ولكن إذا تغير الزمان والظروف، فإنه يهلك لأنه لم يغير من طريقة تناوله للأمور. ولا يوجد هناك حكيم يستطيع التكيف مع كل الأحوال أياً كانت. وذلك إما لفشله في التكيف مع ما لا تمكنه منه طبيعته، أو لأنه ينجح فقط إذا اتبع طريقة واحدة ثابتة.

والخلاصة هي أنه: إن تغير الحظ وبقي البشر على طريقتهم الثابتة فإنهم يحققون نجاحاً طالما تلاءمت هذه الطرق مع الظروف المحيطة بهم. لكن عندما تتعارض الطرق مع الظروف المحيطة فإنهم لا يحققون نجاحاً. وأني أرى أن الإقدام أفضل من الحذر، فالحظ امرأة لن تفر بها إلا بالقوة. ومن الممكن أن نلاحظ أن الحظ يستسلم للشجاع أكثر من أولئك الذين يعلمون بروية. ولهذا فالخط كالمراة يصادق الشباب دائماً، لأنهم أكثر عنفاً وأقل حذراً، ولذلك فهم يسيطرون عليه بجرأة تفوق جرأة الآخرين.

السياسة والأخلاق؛ من يحكم من؟

من المؤسف جدًّا القول بأنَّ هناك برامج خطيرة جدًّا لم تُعرف الكثير من تفاصيلها وضعتها [المنظمة الاقتصادية العالمية] تلك العصابة الاقتصادية التدميرية للتخلص من 3/4 البشرية على وجه الأرض بأساليب علمية متطورة تستخدم فيها الجوع والحصار والحرب والفيروسات الفتاكة وأجهزة تكنولوجية معقدة وإشعاعات كهرومغناطيسية وذبذبات خطيرة تقتل الإنسان مجرد تعرّضه لها، ولم تكشف عنها تلك الجهات حتّى للمقرّبين من تلك الدوائر التي يقودها الاستكبار العالميّ بقيادة تلك (المنظمة الاجرامية).

من هنا جاءت رؤيتنا في هذا البحث لتكون الحدّ الفاصل بين الحُبِّ والكراهية؛ الحقّ والباطل؛ الأخلاق والسياسة؛ الإعمار والتخريب؛ الإصلاح والفساد؛ العدل والظلم، طبقاً للمنهج الإسلاميّ العادل.

إنّ ما نعتقد به يتناسب مع كلّ إنسان سويّ سليم الفطرة يريد الخير والمحبة والسلام والرفاة والعدالة، التي تنطلق من مبدأ العدالة والمساواة في الحقوق بين البشر خصوصاً في الجوانب المادية والمنابع الاقتصادية التي هي بالأساس عطاء الطبيعة التي وهبها الله تعالى للجميع دون استثناء.. الفطرة السليمة - في نفس الوقت؛ ترفض الطبقيّة والفوارق المفرزة بين الاغنياء والفقراء لتعميم حالة الإذلال والاستضعاف للبشر بشكل يقف صاحب القلب - حيرى أمام تلك الفوارق التي تكبر وتكبر.. والتي ما كانت لتكون لولا الاتجاه الخاطي الشيطاني لسياسة المستكبرين في الاقتصاد والمال والإعلام والتكنولوجيا التي يتحكّم بها بضع مئات من المجرمين المحترفين!

يعتقد البعض جهلاً أو تجاهلاً بأنّ السياسة تستدعي التخلي عن القيم واللجوء إلى وسائل وأساليب مختلفة تتحرّر من روابط القيم الأخلاقية فكانت الأخلاق والسياسة بالنسبة لهم مفهومان متناقضان! فهل هناك علاقة إيجابية أم سلبية بينهما، وبأيّ حقّ

وَمُسَوِّحَ إِنْسَانِيٍّ يُؤَكِّدُونَ عَلَى هَذَا الْفَصْلِ! وما الغاية من الفصل بين السياسة والأخلاق من قبل السياسيين الحاكمين؟

البعض كـ "أفلاطون" للأسف يعتقد أن غاية السياسة هي المحافظة على الدولة وبذلك فهو يسمح باستخدام كل الوسائل المشروعة وغير المشروعة لإبقاء الدولة قائمة وهنا فصلٌ واضح بين السياسة والأخلاق ولهذا يذهب "ميكافيللي" الى حد القول: إن غاية السياسة يجب اختيارها على المبادئ الأخلاقية!

فالأخلاق يجب إبعادها جانبا لكونها العائق الوحيد أمّا تطوّر الدولة وأساس نظرة ميكافيللي هذه مشتقة من نظرة الفلاسفة الأوربيين الذين سبقوه، وجذور الفكرة نابعة؛ من أن الإنسان يُعدّ في تكوينه شريرا ولا يمكن لأية سلطة أن تحدّ من أنانيته وطبيعته الشريرة إلا السلطة السياسية، وله مقولة مشهورة «الغاية تبرّر الوسيلة» بمعنى؛ أنه إذا كانت الغاية التي تسعى إلى تحقيقها نبيلة بحّد ذاتها، مثل توحيد إيطاليا، فإنّه من الممكن؛ بل من الضروري اللّجوء إلى الوسائل التي تتنافى مع الأخلاق كالقتل والسّجن والتشريد... الخ لتحقيقها لأنّ الغاية كبيرة ويجب ضمّانها بالرغم من الصعوبات الممكنة!.

إنّنا نرى وبحسب تعاليم السّماء أنّ سبب مشاكل العالم والفوارق الطبّقيّة هو بسبب فساد السياسة وأنظمة الحكم وتدهور العمل السياسي لتجرّدها عن الأخلاق، بل الإسلام يؤكّد ويستوجب تبني وإعمال الأخلاق في السياسة ومن الدّاخل والخارج طبقا للأسس الأخلاقية القرآنيّة التي انتهجها الرّسول -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-.

لكنّ "ميكافيللي" و"فوكاياما" وأمثالهم ومن اقتدى بهم؛ يرون للأسف أنّ هذه السياسة المبنية على الأخلاق والعدالة ستنهار بسرعة.. ولا غرابة لرفض "ميكافيللي" للسياسة المبنية على الأخلاق لأنّه ينظر إلى الإنسان بصفة عامة نظرة ماديّة سلبية وشريرة انطلاقا من الواقع الأوربي المسيحي الذي مرّ بمناسباتٍ مختلفة!

[تعد أطروحة «نهاية التاريخ والإنسان الأخير» من أشهر أطروحات فوكوياما والتي جادل فيها بأن تطوّر التاريخ البشري كصراع بين الأيدولوجيات انتهى إلى حد كبير، مع استقرار العالم على الديمقراطية الليبرالية بعد الحرب الباردة وسقوط جدار برلين عام ١٩٨٩، وتوقع فوكوياما انتصار الليبرالية السياسية والاقتصادية في نهاية المطاف.

فوكوياما يقصد نهاية التاريخ كاتجاه وليس كأحداث، الديمقراطية الليبرالية هي تنويع التطور الأيديولوجي للإنسان، وعدم وجود بديل غير بربري وخطير يعني أن الحجج الأيديولوجية للآخرين لا ترقى لمقارعة الديمقراطية الليبرالية. مثل هيجل وماركس لا يعتقد فوكوياما أن تطور المجتمعات البشرية بلا نهاية، لكنه يكتمل عندما تجد البشرية التنظيم الاجتماعي الذي يشبع احتياجاتها الطبيعية والأساسية]

وانطلاقاً من هذه النظرة - والتي هي انعكاس لحقيقة الوضع في أوروبا والغرب إبان القرون الوسطى وإلى يومنا هذا - اعتبروا القوانين الوضعيّة - هي الوسيلة للحدّ من أنانيّة الإنسان وميله إلى النزاع والتّمكك والسيطرة كما يرى "ميكافيللي"! وبحسب نظريته؛ فإنّه يجب على الحاكم استخدام المكر والخداع والظلم لتمكينه من فرض سيطرته على المحكومين ويجب أن تسود نفس الصّفات في التعامل مع الدّول في السياسة الخارجيّة.

إنّ هذه النظرة الميكافيليّة السّلبية التي تدين طبيعة الإنسان وتصفها بالشرّ من خلال التعامل الأحادي؛ لا تعبّر عن طبيعة الإنسان تعبيراً صادقاً ودقيقاً وعلمياً، وبذلك فإنّ نظريّة ميكافيللي السّياسيّة؛ قائمة على أساس نظريته تلك للإنسان والحياة والتي تتعارض تماماً مع فلسفة الخلق والوجود والغاية من وجود الكون والمجتمع الذي هو عبارة عن مجموعة من الافراد غايتهم؛ التّواضع ونشر المحبة والمصالحة العامّة والخير العام والتعاون على البرّ، ولا يمكن تحقيق هذا الأمر إلا في إطار المبادئ الأخلاقيّة.

لكنّ "كانت" كان منصفاً بعكس الكثير من الفلاسفة يرى؛ إنّ غاية السياسة هي الحفاظ على الإنسان لأنّه كائنٌ أخلاقيّ ومن هذا يجب أن تقوم السياسة على أسسٍ أخلاقيّة حتّى تتمكّن من إداء مهامها على الوجه الصّحيح وإذا كانت (الحرية) ضرورة أخلاقيّة فإنّ السياسة أيضاً ضرورة أخلاقيّة وهدفها الحفاظ على حرية الأفراد والمجتمع!

أمّا "برنارد راسل" فإنّه يرى بأنّ الحوادث التاريخيّة ناتجة عن تغيّرات سياسيّة مُعيّنة.. وحتىّ يكون المُستقبل أكثر أماناً واستقراراً؛ فلا بدّ للسياسة أن تقوم على المبادئ الأخلاقيّة التي تفرض التّعامل الإنسانيّ بين الحاكم والمحكوم، فمصير الإنسانيّة

واحد وعلى السلطات السياسية أن تدرك أن مصير الإنسانية مُتعلقٌ برابط السياسة مع الأخلاق.

كما أكد "كانت" ذلك المفهوم من زاوية أخرى بقوله؛ إن ظاهرة الاستعمار الحديث تعود في مبادئها إلى سياسة الحكم الفردي المطلق الذي ساد أوروبا وبهذا مجدّد "كانت" النظام الجمهوري وفضله على الدكتاتوري والإقطاعي.

إن كلمة (السياسة والأخلاق) يجب أن تكون بينهما علاقة إيجابية لكي تسير أمور السياسة على أسسٍ عادلة، ولا يمكن سيادة العدل والأمان والمحبة والتواضع إلا بتحقيق العدالة في الحقوق والرواتب والفرص بين الجميع.

إن الصراع بين "الفكر السياسي" و"الفكر الأخلاقي" يتمثل في الصراع بين الوسيلة والغاية!

فتحقق الاستقرار المتمثل في تأسيس الدولة يعتبر مكسبا هاما للمجتمع ولا يمكن أن تكون كذلك وبشكلها الإيجابي إلا عندما تكون وسيلة لتحقيق العدالة والأمن والتواضع داخل المجتمع وليس لصالح الفئة الحاكمة!

وبذلك فقط يتضح بأن الدولة هي مجرد وسيلة لتحقيق تلك المعاني الأخلاقية السامية وتشارك السياسة في إبطال الأفكار والتصورات المتمثلة في إبراز النفاق وروح العداة بين مختلف المجتمعات الإنسانية لأجل الثراء والتسلط، وبذلك فإن السياسة الأخلاقية المتوازنة تبين وتكشف الحدود الواضحة بين دول الاستكبار والقهر والتسلط والتوسع الذي طالما فرقت وأثارت الحروب بين الشعوب والأمم وسببت الكوارث والماسي؛ وبين الدولة العادلة التي تريد رفع الطبقة وثناء جماعة على حساب الأمة والمظالم عن الشعوب في كل الأرض!

إن الدين وحده يمثل منبع الأخلاق والقيم الكونية، وفصلها عن سياسة واقتصاد الناس والحكم بالعدل بينهم؛ قد سبب الظلم والفساد والفوارق الطبقة كإفراز طبيعي، لأنه لم يركز لا على أصالة الفرد ولا المجتمع؛ بل أصالة المجموعة التي بيدها مفاتيح المال والعلم.

لقد سعى الحُكام منذ أكثر من عشرة آلاف عام وفي مختلف الظروف التاريخية.. ليس فقط لفصل الدين عن السياسة؛ بل حتى سرقة تاريخ الأنبياء وأفكارهم، وأدوارهم، وتحويلها لأنفسهم، وبطولاتهم.. تلك الخيانة الأعظم من العظمى؛ كانت من أسوء أقدار البشرية في هذا الوجود وأكبر المفاسد التي ارتكبت بحق السماء والارض، لأنه سبب مع الزمن تقويض وتخريب أرواح وعقول الناس ومبادئهم ومسح قلوبهم بفصل الأخلاق عن حياتهم وإشاعة الشّهوات بدلها، لدرجة أغرت حتى الأدباء والمثقفين وأهل العلم مُعتقدين بأنّ الدّمج بينهما مفسدة، لسطحيّة فهمهم لقضية الإنسان وفلسفة الوجود وأسباب الخلق بشكل خاص، فتركوا الجوهر وتعلقوا بالمظهر والبشر!

تلك الحقيقة المرّة المؤسفة والدائمة بنتائجها أهدرت الكرامة الإنسانية ومسخت الشعوب التي تحولت لقطعان من الماشية.. لتسيّد مجموعة مستكبرة على الحقّ والقيم بفعل حكومات دول فاسدة في العالم، لا ترى سوى جيوبها ومتعلقاتها مستخدمة الشهوة والمادة واستغلال الدين لذر الرماد في العيون كأفضل وأقصر وسيلة للإثراء والتسلط واستحمار الناس من قبل المجموعة الحاكمة في [المنظمة الاقتصادية العالميّة] المسيطرة على منابع المال والاقتصاد والزراعة في العالم بدعم وغناء المثقفين وعلماء الدين الذين سكتوا ودعموا الحكومات لدنيا بلا كرامة ومعنى فاقدين فيها اختيارهم وسعادتهم.

والاكثر إيلاما وأسفا أنّ الفلاسفة عبر التاريخ، ومنذ المرحلة الفلسفيّة الأولى - أيّ زمن فلاسفة الإغريق السبعة [سولون الاثيني، خيلون الاسبرطي، طاليس، بياس البريني، كليوبولوس، بيتاكوس، بيرياندر.] - وإلى الآن قد تنكّروا لفضل السماء والدين وإشارات بعضهم كانت هامشيّة، بحيث لا نرى أيّ ذكر أو تاريخ لدور الأنبياء العظام في أنظمتهم ومؤلفاتهم بشكل واضح، رغم أنّ أساس معلوماتهم بشأن القيم والأخلاق وفلسفة الخلق والغيب والعمران كانت مُستقاة من الرّسالات السماوية التي سبقت المراحل الفلسفية بآلاف السنين، إلا أنّهم لم يشيروا لتاريخهم وللمصدر الأوحد للأخلاق والقيم والإيمان بالغيب وأسرار الوجود التي تتصل مباشرة بكرامة الإنسان التي تعادل الوجود، لأسباب قد تكون بحته تتمحور حول طغيان النفس، وهكذا ظلم الفلاسفة

أيضا بجانب الحُكَّام والسلّاطين؛ البشر مادّية أنانيّة وذاتيّة بتنكرهم لمبادئ الدّين الذي عماده العدل ومن البداية ولحدّ اليوم وكأَنهم عين الشيطان، رغم توصّل الكثير من الفلاسفة العقلاء للحقيقة كشوبنهاور واسبينوزا وابن سينا والفارابي وغيرهم بكون مصائب البشريّة اليوم إنّما ولدت بسبب ذلك "الفصل" المُجَحِّف بين الدين والسياسة، لعدم درك الناس حقيقة الدّين.

في كتابه (مناهج الفلسفة)، كتب المفكر الأمريكي ويليام جيمس قائلا: "إنّ هناك أكثر من ستين ألف مادة قانونية يتمّ إضافتها سنويا إلى القانون في أمريكا"، وهكذا كندا وبقية الدول الغربية والشرقية لعدم معرفتهم بفلسفة القانون الأنسب والأصحّ لإصلاح المجتمع لجهلهم بحقيقة تكوين الإنسان ومكانه النفسيّة التي لا يعلم خلجاتها وأسرارها وعوامل تحقيق سعادتها أو شقائها، وكل تلك الدول وبمنظرة عابرة تحتاج للأخلاق لا القانون لوقايتها، والوقاية خير من العلاج ولا نحتاج سوى الفلسفة الكونيّة لوعي فلسفة القانون، والأهداف التي يجب تحقيقها، ولعلّ هذه الإشكالية تقارب الإشكالية التي أرقت الفيلسوف شيلر، حين أراد العودة إلى سياسة الذات، فعكف في: «الرسائل الأولى من التربية الجمالية للإنسان» على فكرة الدولة كما كانت تتشكل في زمانه، حيث كان شيلر روسي الطبع، "كانتي" الفكر والتطبع، فكتبَ قائلا حين رأى انهيار القيم الانسانيّة على أعتاب الفظائع الدموية الوحشية للحزب الشيوعي السوفيّاتي:

"لا يأتي البناء من السياسي ولا من رجل الدّين، ولكن من القدرة على الارتقاء نحو الروح والجّمال، فعندما يضع السياسي أو رجل الدّين التقليدي في الواجهة العليا على سبيل الشهرة والنجومية؛ فهو يهين نفسه باستخدامه لوسائل الإكراه والقهر والاحتيال والابتزاز والترهيب والترغيب والإثراء، بيد أنّه عليه أن لا يقود.. بل أن يصاحب ولا يقول هؤلاء تحت وصايتي وسلطتي الممتدة من السّماء، بل يقول هؤلاء إخواني وبجانبني وكلنا سواسية في الحقوق، فلا يتكلّم بمنطق الفوقيّة والتكبر، بل بمنطق المعية والمحبة".

وبذلك يمكننا القضاء بشكل طبيعي على ظلم وهيمنة الرأسمالية والطبقيّة بقيادة [المنظمة الاقتصادية العالمية] التي أسست أسس الفلسفة الظلامية البراغماتية السياسيّة، التي عرّفت الحقيقة بكونها؛ الفكرة التي تنجح والغاية تبرّر الوسيلة، وليست الفكرة ذات

القيمة الأخلاقية التي تريد تحقيق السعادة للجميع، فصار التخطيط لسرقة أموال الفقراء مسألة شرعية وقانونية وديمقراطية متطورة لا يحقّ لاحد انتقادها، وهو بنظرها أنجح وسيلة للثراء الذي يصاحبه الظلم والقهر والاستبداد كنتائج طبيعية للحرية بالمفهوم الرأسمالي وتلك هي أنجح وسيلة لتحقيق السلطة، فالعالم مجرد سوق، والإنسان فيه مجرد بضاعة وأداة للإنتاج والاستهلاك، ولذلك وبسبب فقدان مبادئ الفلسفة الكونية؛ فقد ركبت الكثير من الدول الإسلامية رغم تاريخها وعقيدتها في المنطقة العربية؛ موجة البراغمية الرأسمالية بغطاء الديمقراطية وبشيء من الإسلام وكان العراق سباقا في هذا المصير الأسود بعد ما علقت دواليب الحكم بتلايب أمريكا ومن معها، ما جعلها تربة خصبة لخلق المقاومة وللابتزازات المالية والجيوستراتيجية، التي تثري خزائن النظام الدولي، ليستمر التكبر والطغيان والحروب في العالم، بحماية الأنظمة الاجرامية في المنطقة والعالم، حتى انعكست وانمست المفاهيم، بحيث أصبح المقاوم إرهابيا والإرهابي إنسانيا، لتحقيق المقولة المشهورة: (عصر التجارة بالكلمات، التخدير بالشعارات، التنويم المغناطيسي بالعبارات، وقيادة الشعوب المتخلفة بهذا الحذاء الساحر)...، وقد سبقنا رسولنا الكريم -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- بقول حكيم اذق لخصّ المحنة بقوله: (يُوشِكُ الْأُمَمُ أَنْ تَتَدَاعَى عَلَيْكُمْ كَمَا تَتَدَاعَى الْأَكْلَةُ إِلَى قَصْعَتِهَا. فَقَالَ قَائِلٌ: وَمِنْ قِلَّةٍ بَنَّا نَحْنُ يَوْمِيذٍ؟ قَالَ: بَلْ أَنْتُمْ يَوْمِيذٍ كَثِيرٌ وَلَكِنَّكُمْ غُثَاءٌ كَغُثَاءِ السَّيْلِ، وَلَيَنْزِعَنَّ اللَّهُ مِنْ صُدُورِ عُدُوكُمُ الْمَهَابَةَ مِنْكُمْ، وَلَيَقْدِفَنَّ فِي قُلُوبِكُمُ الْوَهْنَ. قَالَ قَائِلٌ: يَا رَسُولَ اللَّهِ وَمَا الْوَهْنُ؟ قَالَ: حُبُّ الدُّنْيَا وَكَرَاهِيَةُ الْمَوْتِ) [أحمد وأبو داود]

واليوم أخذت حركة الشعوب من قبل أنظمتها وانتفاضاتها بدأت كأفلام الكارتون التي تتحكم بها الأحزاب والائتلافات والمنظمات التي تريد المال لرؤسائها الذين يوقعون على الصكوك البيضاء باسم الوطن والمواطن مقابل ضمان السيولة النقدية والأرباح والرواتب لجيوبها الخاصة على حساب جيوب وحقوق الشعب والأجيال المسكينة اللاحقة، لتعيش شعوب العالم الأمرين من الأنظمة الاستبدادية تحت غطاء وشعارات الليبرالية والديمقراطية المستهدفة التي تهدف لتحكم الفاسدين بالأموال والاقتصاد

والرواتب والجيش والشرطة، وهذا هو مازق النظام الدولي العاري من القيم الأخلاقية اليوم!

لقد وصلت الصّلافة وفقدان الحياء درجة باتت أعتى الدّول الديمقراطيّة في العالم تدعم الحكومات الإرهابيّة لقتل الناس والشيخ والأطفال الأبرياء لتحقيق مصالح الفئة الاقتصادية.. بل وتحتفل سنويًا في دالاس بالحروب المحلية والداعشية والعالمية الدّمويّة التي راحت ضحيّتها الملايين من البشر، ممّا يعني تجاوز اللابشرية إلى الوحشيّة، بدل أن تخطط للانتقال بالناس من حالة البشريّة إلى الإنسانيّة ومن ثم إلى الحالة الآدمية التي معها يتحقق التواضع وشحن النفوس بالأخلاق الفاضلة التي يؤكدها الدّين فقط لا المدارس الرأسمالية والسياسية المختلفة التي تؤكد على الكذب والظلم والنفاق والتحالفات المشبوهة وقانون الغاية تبرر الوسيلة لأجل المال بسرقة الناس وظلمهم! ولا حول ولا قوّة الا بالله العليّ العظيم.

كلّ المنصفين يعترف اليوم بأنّ عبارات: الحزبي والقومي والوطني الديمقراطي والرفيق، والمناضل والثوري والمجاهد.. وما في سياقها قد أصابها التشويه وأضحت مصطلحات للسّخرية والتّهكم، ويعود كلّ ذلك باعتقادي إلى انحطاط الأخلاق وفقدان التقوى السياسيّة والقيم الانسانيّة في العالم وفي الوطن العربيّ خصوصاً الذي أصبحت فيه الأمّة لا تدري عن ماذا تبحث وإلى أين تتجّه في خضمّ الفوضى والاضطرابات واللّوي الصهيوني الذي يُحاول تحطيم أسس العدالة وموازينها وتثبيت الاستكبار في المنطقة بحسب ٢٤ بروتوكول هرتزلي تمّ وضعها قبل ١٥٠ عام!!

لذلك نرى أن الاستكبار العالمي حاول الالتفاف على الصحوة العربيّة الإسلاميّة التي عمّت المنطقة منذ أعوام بغض النظر عن إشكالاتها والأدوار التخريبية للعملاء في أوساطها.. وحين أرادت الأمّة قطف ثمار تلك النهضة سارعت تلك القوى وبأموال حكام الخليج من ترتيب الأوراق بشكلٍ يتناسب مع طموحات المنظمة الاقتصادية

العالمية، لذلك كانت الخيارات والمواقف تختلف من دولة لأخرى فثورة البحرين مثلاً يجب أن تخدم بكل أنواع القمع والسلاح، لكن ثورة مصر لا بد من فتح المجال للعسكر فيها كي يسيطر على دفعة الحكم والقرارات الاستراتيجية وهكذا في اليمن ولبنان والعراق وغيرها، الشيء الوحيد الأهم في كل تلك التحركات هو محاربة الإسلاميين وللدولة الإسلامية التي تمثل نهجهم من الوصول لدفة الحكم!

لقد مُسخت منظومة القيم الإنسانية في الأمة الإسلامية عموماً وفي العالم خصوصاً بسبب ضمور القيم وسياسة وجشع المستبدين فيها.. بل إنّ المفاهيم الإسلامية التي تحوي أمثال المنظومات الأخلاقية انقلبت إلى الضد من التعاليم الإسلامية الواضحة في مجال التربية والتعليم والعدالة وحقوق الإنسان وكرامة المواطن العربي والمسلم والعلاقات الاجتماعية، بمعنى صار الكذب والفساد حلالاً والصدق والصالح ناشزاً والحلال حراماً والحرام حلالاً والمعروف منكراً والمنكر معروفاً، حتى صارت معلماً من معالم الحاكم والسياسي النشط لمنفعة المنظمة الاقتصادية في هذا العصر.

وقد لا أجنب الحقيقة لو قلتُ بأنّ السياسيين العرب تجاوزوا نظريات ميكافلي الإيطالي الذي نظرياته تعتمد بالأساس على قوانين النظرية السياسية الواقعية المعروفة والأساليب الخادعة للوصول إلى السلطة والحفاظ على المنصب بكل الوسائل الممكنة لأنّ الغاية تبرر الوسيلة، والمُطلع على كتب ميكافيللي وغوبلز يرى أنّه شرّع نظرياته التي في النهاية تضرّ بمجموعات وشرائح كبيرة من المجتمع لكنها تخدم وتصبّ لصالح شريحة أخرى عادةً ما تكون مؤتلفة في القرار والحكم والأولويات.

بالطبع الإسلاميون.. وبما أنّهم يؤمنون بالمبادئ الإسلامية العادلة والسّمحاء لا يعترفون بأكثر القوانين التي توصّل لها الميكافيلليون والغوبلزيون والفوكوياميون وأمثالهم من المفكرين الغربيين الذين اعتمد نظرياتهم المدمرة للفطرة والعدالة والمساواة جميع الانظمة الغربية بقيادة أمريكا التي تقودها المنظمة الاقتصادية العالمية.. تلك المبادئ الغير إنسانية التي ليس فقط لا تصب لصالح عوام الناس؛ بل تعمّق وتزيد الطبقة!

إن الديمقراطية المتبعة اليوم ونتائجها في العالم عموماً والغربي خصوصاً، منذ عصر النهضة؛ تبين نمو الفساد والطبقة والبرجوازية التي بدأت منذ ثلاثة قرون - بعد النهضة

الأوروبية - كواجهة للرأسمالية التي تسلطت بالمال والتكنولوجيا فيما بعد على معظم منابع الاقتصاد العالمي وثوراته؛ مع كل هذا إنّ الأخلاق السياسية - الظاهرية منها على الأقل - وعلى الرغم من كلّ مساوئها هي بمثابة الجئة بالنسبة لجهنم الأنظمة المتبعة في عالمنا الشرقي والإسلامي، لأننا نقارن السيئ بالأسوء مع الفارق!

إنّ أكثر سياسيينا لا يعرف أنّ كلّ نظام اجتماعي سياسي يقوم على نظام أخلاقي وفلسفة أساسية.. والأخلاق الفاضلة تؤمّ مع الحالة الاقتصادية التي هي المعيار الذي يتمّ على أساسه تقييم الإنسان والمجتمع وصيانة كرامته بظلّ الحكومة بحسب الظروف الزمكانية ليتمكننا تقييم الوضع الاجتماعي - الاقتصادي في بلد ما على أساسه، لمعرفة كونها من الدول المستقرة او المضطربة.

والذي يحزننا حقا هو ما نراه مُتفشيا في بلاد المسلمين والعرب خصوصا، على الرغم من أن الله تعالى أنعم بالخيرات ونعمة الاسلام عليهم والذي يفسره كل حزب ومذهب ومرجع كما يحلو له لضمان مصالحهم وابقاء تجارة دكاكينهم، بعيدا عن حقوق الإنسان والمجتمع، لهذا نرى قمة القساوة والظلم والعنف في أوساط المسلمين كما المجتمعات الأخرى في كل قارات العالم.. بينما نرى أن الإسلام الواضح ومنذ أول آية نزلت تشعّ وتحتّ على الرحمة والمحبة والتواضع في كل شيء كسمة رئيسية خصوصا للحاكم المسلم، والإسلام لا يقبل الظلم بأية صورة خصوصا ما يتعلق بالآخرين وقد قال تعالى في الحديث القدسي: (يا عبادي إني حرّمت الظلم على نفسي، وجعلته بينكم محرّما، فلا تظالموا)

إنّ النقد الواضح الذي ووجهه الإسلاميون؛ لعلاقات الانتاج الرأسمالية كان يتجّه مباشرة إلى ضمور المسالة الأخلاقية الإنسانية وجفائها في تلك العلاقات، بل وانعدامها والذي معها تنعدم كرامة الانسان، خصوصا حين يغلب الاحتكار على المنافسة العادلة ناهيك عن العدالة بعينها، لهذا تجسد النقد الإسلامي في قيم الحرية والعدالة والمساواة، تلك القيم العالية التي وحدها ترفع البشرية الى نيل الكمال مادةً ومعنى.

وتلك - قبل كل شيء - قيم أخلاقية وادبية منشأها الدّين بقدر ما هي اجتماعية وسياسية، ومن الخطأ والظلم فصل ما هو اجتماعي أو اقتصادي أو سياسي عن ما هو

أخلاقي خصوصا ونحن اليوم وريث تجارب تاريخية وحاضرة نعيشها اليوم وقد رأينا بوضوح ما آلت إليها مصير الشعوب بظل تلك التجارب؛ كالتجربة الغربية التي تقف اليوم أمام مفترق طرق، خصوصا في الجانب العسكري والاقتصادي والمالي وأزمة البطالة والتفكك الأسري!؟

ومن الواجب علينا اليوم استثمار الجوانب الايجابية منها وترك السلبية منها، والتي اخطرها ما نشهده اليوم من سيطرة المجموعة الاقتصادية الظالمة على مقدرات العالم بالقوة وبدكتاتورية السوق وتحديد أرزاق الناس ولقماتهم!

إن تلك الديكتاتورية المُنقنونة والملونة من الخارج بألوان زاهية بمسمى الديمقراطية والعلمانية من قبل حكماء صهيون التي تسلّخت بالديمقراطية كسلاح بتار لا يعلم الناس من يمسك بقبضته من الخلف في الحقيقة؛ تلك المجموعة ما كانت لتتسلط وتستبد وتبلغ ما بلغت من التكبر والعنجهية لولا انتهاك النظام الأخلاقي للمجتمع وازدراء النظام الأخلاقي العام، بحيث باتت لا تطيق أن ترى شعبا شريف يريد النهوض نحو السماء والوقوف بوجه الظلم الذي يأتي من مصادرهم وعملائهم، حتى وصل الأمر لأن تغلن وبكل صلافة الحرب والحصار عليه وعلى من يتبعه والعالم يتفرج و كأنه معتوة ومُعَوَّق بالقيود والسلاسل والحديد!

إن النظام العالمي المتكبر توخّد باتجاه تدمير الإسلام الذي هو الآخر تعرض للّدس والتخريب والتزوير من قبل أهل السّلطان، من أجل الحفاظ على مناصبهم وأهوائهم التي تصب لصالحهم.

بعيدا عن الأخلاق

** من أقدر الحروب البيولوجية في تاريخ العالم ما حدث علي يد الكولونيل البريطاني "جيفري اهرست" حين قام بالإبحار في اتجاه أمريكا الشمالية حيث يستوطن الكثير من الهنود الحمر وكانت لديه خطة حقيرة بأن جهز لهم عدد كبير من البطاطين المحملة بمرض الجدري ووضعها في مكان مغلق مكتوم أسفل السفينة وعندما وصل إلي الشاطئ استقبله الهنود الحمر بالهدايا والجواهرات والأحجار الثمينة لنقاء سريرتهم وعدم توقعهم سوء نية القادم إليهم، ورداً على تلك المجاملة أمر جنوده بإهدائهم تلك البطاطين على سبيل المجاملة وهو يعلم جيداً إنها موبوءة بالمرض وتركهم ليفتك بهم المرض ثم عاد بعد بعض السنوات فوجد عدد حالات الوفاة حوالي ١٥ مليون من الهنود الحمر في قارة أمريكا الشمالية وكل ذلك من أجل ضم هذه المساحات الشاسعة لدولة بريطانيا وكأنا حياة من البشر لا تساوي نظير الأغراض الاحتلالية.

** هل تعرف لماذا قصفت إسرائيل غرة بتلك الصورة الدموية في عملية طوفان الأقصى ٢٠٢٤؟

دعني أخبرك بالسبب..

الأفضل أن نبدأ من شخص رفض تسلم جائزة نوبل للسلام عام ١٩٧٣ وهو الفيتنامي «لي دوك ثو».. كان الفيتنامي بطلاً في حرب التحرير ضد الفرنسيين والأميركيين، ومن ثم قاد مفاوضات السلام نيابة عن فيتنام الشمالية مع الولايات المتحدة في باريس طوال العام ١٩٧٢-١٩٧٣ لكن الرجل كان يوصف على الدوام بأنه مفاوض شرس، رفض التنازل عن شرط توحيد بلاده وإسقاط النظام العميل للأميركيين في فيتنام الجنوبية.

على الطرف الآخر من مائدة التفاوض كان يجلس الأميركي اليهودي هنري كيسنجر.. كان كيسنجر بالفعل عبقرياً في السياسة الدولية للحد الأقصى، بل ربما واحداً من أهم عباقرتها في القرن العشرين، ونبوغه بدأ من شبابه الجامعي واستمر في

ترقيته السريع المستحق.. لكنها كانت عبقرية شريرة لدرجة قاسية.. هاتف كيسنجر نيكسون في مساء اليوم الرابع من ديسمبر عام ١٩٧٢ وأخبره بأن لي دوك ثو صلب الرأس ويحتاج لمبرر قوي لتقديم تنازلات.. سأل نيكسون كيسنجر.. ما المبرر الذي يقترحه؟ فأجاب كيسنجر على الفور: الكثير من B52

وبالفعل.. ولمدة الأسابيع الثلاثة الأخيرة من ديسمبر ١٩٧٢ بدأت الطائرات الأميركية من ذلك الطراز قصفاً جنونياً على هانوي.. المدنيين كانوا الهدف الأول.. ٢١ ألف قتيل سقطوا.. لا بل تفحموا.. لا.. بل حتى ذابوا من القنابل الحارقة والنايلم. يروي أحد الناجين في وثائقي أذاعته شبكة PBS قبل سنوات.. بأنه شاهد ٤ سيارات وقد تحولت جميعها لما يُعادل حجم صندوق.. سأل المذيع وماذا عن عائلتك؟ أجاب والدمع يتحجر في عينيه.. كانوا داخل ذلك الصندوق..

حققت أميركا هدفها.. عاد “لي دوك ثو” لطاولة التفاوض مع كيسنجر.. وكان توقيع اتفاق السلام في يناير ١٩٧٣

ومن المضحكات المبكيات أن لجنة نوبل للسلام منحت الجائزة مناصفة لهنري كيسنجر ولي دوك ثو.. فرفض الفيتنامي استلامها.. كان يعلم في قرارة نفسه أن الجائزة مسوخة.. وأن له ثأر مع الأميركيين لم ينته بعد..

وبالفعل رفض الجائزة، وعاود الحرب إلى أن استولى على فيتنام الجنوبية بعد أن خرجت منها الولايات المتحدة ووحد بلاده.. قتلت واشنطن ٢١ ألف روح إضافية في قصف جنوبي فقط لإجبار لي دوك ثو على العودة لمائدة التفاوض.. قتل كيسنجر الناس حرقاً، والعالم الأفاق منحه نوبل للسلام.

إذن لماذا تحرق إسرائيل الأطفال في غزة؟

لأن ذلك ما تعلمته من شيطان العالم الأكبر. الولايات المتحدة.. لأن المدنيين بالنسبة لها أدوات حرب.. توجب التنكيل بهم لإجبار المقاوم على الاستسلام.. لأن هذا هو درس كيسنجر، ولأن العالم بالنسبة لهم «أغيار».. وجب الخلاص منهم إن لم يقبلوا العيش كالعبيد.. والفلسطيني لا يختلف كثيراً عن الفيتنامي..

هو ضحية لنفس الآلة.. لنفس الحضارة القائمة على استخدام فائق الدقة للعنف المنظم من أجل بسط سيادتها.

لكن ما يجعل مأساة الفلسطيني جدّ مضاعفة.. أنه مستباح.. أن الأصل في تعامل العالم معه «استباحته»

استباحة أرضه وماله ونفسه وجسده.. وما سوف يجعل عقابه من العالم أقسى وأشدّ تنكيلاً.. أنه خرج للمرة الأولى عن تلك السردية وقرّر أن يهاجم بطوفانه.. ألا يكون الضحية من جديد.. وألا يكون رد الفعل فقط لألف فعل مجرم ضده.. وما الحرق والقتل الجنوني إلا تذكير من العالم «المتحضر» بأمرين.. أن عليك الجلوس إلى مائدة التفاوض والتنازل.. وأنه يتعيّن عليك الندم على ما فعلت، وأن تقبل من جديد أن تعيش راکعاً جاثياً.. الفلسطيني يعاقب على أنه اختار للمرة الأولى أن يعيش كأقرانه.. إنساناً.

هل تعرف إذن لماذا كان القصف على خيام النازحين؟ لأن تلك حضارة الغرب.. ولأن إسرائيل خير من يمثلها.. لكنك فقط تنسى.. والهزيمة تبدأ من هنا.. من نسيان أصل الأزمة وموطن الكارثة.. «الحضارة الغربية»

** من أقوالهم

- السياسة لعبة قدرة عندما يمارسها العلمانيون
- حتى حكم الفرد المستبد له أصول وقواعد.
- من الممكن أن تسيطر على دولة لكن من الصعب جدا السيطرة على خرابة فالخرابات تدار بالتوافق وليس بالسيطرة.
- من تقاليد الثورة الصينية: السلطة تنبع من فوهة البندقية.
- يا صديقي ليس للغرب حليف ضعيف إنما تابع ديني ذليل وإنما يكون الحليف إذا تعادلت القوى وكان صاحب رأى وقول وفعل...
- حين يصبح التنازل عن الحقوق شرطاً للاعتدال، ندرك أن المفاهيم تُصاغ وفق ميزان القوة لا ميزان العدل.. حين يُطلب منك التنازل لتُوصف بالمعتدل،

فاعلم أن الاعتدال أصبح قناعاً للضعف، وأن الحقوق لا تُوهب لمن يساوم عليها.. [عبد الوهاب المسيري]

- مادامت الحكومة تحتفظ بولاء القوات المسلحة، فلا يمكن لأي ثورة أن تنجح [ستانيسلو أندرجيوسكي]

** من أشهر أقوال الفيلسوف البروفيسور الأمريكي "نعوم تشومسكي"

- "لا يوجد شيء اسمه بلد فقير يوجد فقط نظام فاشل في إدارة موارد البلد".
- "لا أحد سيصّب الحقيقة في عقلك، إنه شيء عليك أن تكتشفه بنفسك".
- "إن أردت غزو شعبٍ ما، اصنع لهم عدواً وهمياً يبدو لهم أنه أكثر خطراً منك، ثم كن لهم المنقذ".

- "من أكثر دروس التاريخ وضوحاً؛ أن الحقوق لا تُعطى بل تُؤخذ بالقوة".
- "هناك هدف من تحريف التاريخ وجعله يبدو كأن الرجال العظماء فعلوا كل شيء، إنه جزء من كيفية تعليم الناس أنهم لا يستطيعون فعل أي شيء، وأنهم عاجزون، وعليهم فقط انتظار رجل عظيم ليفعل ذلك من أجلهم!".
- "العالم مكان غامض ومثير للغاية. إذا لم تكن على استعداد لأن تشعر بالحيرة، فإنك تصبح مجرد نسخة طبق الأصل من عقل شخص آخر".
- "حتى تتمكن من السيطرة على الشعب. اجعله يعتقد بأنه هو سبب تخلفه وأنت قادم لتنقذه".

- "العالم أو الغرب سيندم على أفكارهم التافهة التي تخرج الإنسان عن إنسانيته أو عن فطرته. عليهم أن يعرفوا الدين الصحيح والعقيدة الصحيحة.

لعبة الأمم

اللاأخلاقية في سياسة القوة الأمريكية

مايلز آكس كوبلاند جونيور (١٦ يوليو ١٩١٦ - ١٤ يناير ١٩٩١)، موسيقي ورجل أعمال أمريكي وعضو مؤسس لوكالة المخابرات المركزية الأمريكية، اشتهر بعلاقته بالزعيم المصري جمال عبد الناصر وتعليقاته العامة في المسائل الاستخباراتية. شارك مايلز في العديد من العمليات السرية، بما في ذلك الانقلاب السوري في مارس ١٩٤٩، والانقلاب الإيراني عام ١٩٥٣

كان مايلز محافظاً متأثراً بأفكار جيمس بورنهام [فليسوف أمريكي ومنظر سياسي وكان ناشطاً تروتسكياً اشتراكياً بارزاً]، وكان مرتبطاً بالمجلة السياسية الأمريكية «ناشونال ريفيو».

في مقابلة مع رولينج ستون عام ١٩٨٦، قال: "على عكس نيويورك تايمز وفيكتور ماركيني وفيليب أجي، كانت شكواي هي أن وكالة المخابرات المركزية لا تطيح بما يكفي من الحكومات المناهضة لأمريكا أو تغتال ما يكفي من القادة المناهضين لأمريكا، ولكن أعتقد أنني أتقدم في السن".

- إذا أردت أن تفهم لعبة الأمم فعليك أن تضع نصب عينيك القواعد التالية:
- ١ - إن من أول أهداف أية أمة أن تبقى في اللعبة ولا تخرج منها.
 - ٢ - وغالبا ما تتصرف الأمة بصورة لا تهدف معها إلى إحراز أي نجاح في داخل اللعبة بقدر ما تهدف إلى استمرار التأييد الجماهيري لزعيمها.
 - ٣ - ومن السذاجة الخاطئة بمكان أن يفسر أي تصريح رسمي حول السياسة الخارجية بصفاء النية وخلوص الشريرة، والمناورة شريط أساسي لأي زعيم في اللعبة فهو يظهر ما لا يبطن ويقول شيئا ويعني به شيئا آخر

إنها لعبة تختلف عن غيرها من أنواع اللهو واللعب -مثل البوكر أو الحرب أو التجارة- في عدة نواح مهمة وهي:

أولاً: لكل لاعب في هذه اللعبة أهدافه الخاصة التي تختلف عن أهداف الآخرين، كما أن تحقيق هذه الأهداف هو مقياس نجاحه.

ثانياً: كل لاعب في هذه اللعبة مجبر بظروفه داخل بلاده على القيام بأعمال وتحركات ضمن مجال اللعبة دون أن يكون لها علاقة بأسباب النجاح، بل يمكن أن تقلل من فرصة النجاح نفسه.

ثالثاً: وفي لعبة الامم، لا يوجد فائزون البتة، بل الكل خاسرون. لهذا لم يكن حرص كل لاعب على النجاح بقدر ما هو على تجنب الضياع والخسارة. إن الهدف المشترك لجميع اللاعبين في لعبة الامم، هو رغبتهم في المحافظة عليها مستمرة دون توقف. ذلك أن توقف هذه اللعبة -لعبة الامم- لا يعني سوى شيء واحد ألا وهو: «الحرب».

ولا تزال تجول في خواطر كثير منا -ولا شك- أسئلة عديدة عمن كان وراء زحزحة المصريين والبريطانيين عن مواقفهم المتعنتة أثناء مفاوضات الجلاء عن السويس عام ١٩٥٤؟

ومن الذي أطاح بحكومة الدكتور مصدق في إيران؟ وكيف ثبت الناصريون أقدامهم في لبنان عام ١٩٥٨ على مرأى ومسمع مشاة الأسطول الأمريكي السادس، الذين كانوا ينعمون بشمس لبنان وشواطئه الدافئة؟ ولماذا أحجم عبد الناصر عن ضرب إسرائيل في وقت كان مستعداً لذلك ودفع بشعبه لحربها وهو في أقل حالات الاستعداد لها.

فالمؤرخون عندما يؤرخون الحوادث، يهتمون الجواب على مثل هذه التساؤلات، ويمتنعون عن إلقاء الأضواء عليها لأنهم نادراً ما يعلمون عن خفاياها شيئاً.

وكذلك يهتمها الدبلوماسيون في مذكراتهم مدفوعين باعتبارات الأمن تارة، وبالرغبة في عدم الإيقاع بين الحكومات وشعوبها تارة أخرى.. وهكذا تبقى حقيقة

الأحداث مدفونة لا تعرف منها خافية ولا يتكشف للجماهير منها سر، إلا ما كان بمحض الصدفة. بينما يقع الذين أشرفوا على وضع تصاميمها. وقاموا بتنفيذها. خلف جدران دواوينهم الرسمية ينتظرون الفرصة السانحة ليزيحوا الستار عنها ويظهروها عارية على حقيقتها أمام شعوب هذا العالم المخدوع.

عندما تصبح كل مقاييسنا النزينة الثابتة، في بناء علاقاتنا الدولية هباء منثورا عند أولئك الذين يملكون الساعات الطوال في قاعات البيت الأبيض. ويصبح على حكومتنا سلوك طريق لا مفر منه: ففي الوقت الذي ترفض فيه علنا التدخل بشؤون الدول الأخرى، نجدها تبحث عن أساليب مبتكرة خارج جهازها التقليدي لتفعل ذلك.

وليس على الحكومة عندئذ إلا أن تشرع بتحديد معالم وحدود القضية المعنية، ومن ثم تقوم بإطلاق العنان لعدة قوى خفية، تتكفل بتصفيتهما كلياً، أو إزالة أخطارها، دون أن تتورط الحكومة رسمياً في أي جانب من جوانبها. وتبدأ اللحظة الحرجة عندما يبدأ الصراع المستتر بين هذه القوى ومثيلاتها في الدول الأخرى وكلها تعاني من نفس المشكلة المشتركة بينها ألا وهي: اظهار النزاهة والاستقامة، واضمار الغدر والخداع ونية التلاعب بالأمم والشعوب. وهكذا نصل إلى موضوع كتابي هذا وهو ما سميت به، «لعبة الأمم»..

ولئن كان معظم هذا الكتاب يدور حول منطقة الشرق الاوسط عامة والدولة المصرية خاصة، فإن مرد ذلك إلى بضعة عوامل، منها: أن هدف هذا الكتاب كهدف كلية إدارة الاعمال - في أية جامعة - عندما تقوم بتدريس تاريخ إحدى الشركات الناجحة لطلابها، كمثال حي على مادة إدارة الاعمال.

ومنها أنه قد أتاحت لي الفرصة تمضية زمن لا بأس به، أمارس كثيراً من تلك الأدوار المستترة بصفتي وسيطاً طارئاً أن يكون بين المدعويين ثمانية، وهذا هو ما بديبلوماسية ما وراء الكواليس. ولهذا النوع من الدبلوماسية أثر كبير، ظهر في سلوك حكام تلك المنطقة في علاقتهم بالغرب، وعلاقات الغرب معهم، والذي كان يبدو لأول وهلة، أنه سلوك يمحى الذوق السليم ويرفضه المنطق الصحيح. ويبدو في ظاهره خطوط متقاطعة متباعدة لا يتوازي منها اثنان.

وأعتبر هذا الكتاب نموذجاً حياً للتاريخ يهدف إلى إزاحة الستار عن حقيقة ارتباطات الدول الكبرى بالدول المحدودة الإمكانيات التي نجحت أحياناً في إحراز نصر دبلوماسي على بعض الدول الكبرى، وتمكنت مع الأيام من ممارسة دور أكبر من طاقاتها في السياسة العالمية. وأوضح مثال على هذا دور عبد الناصر رئيس الجمهورية المصرية.

الأنظمة الثورية ومشاكل السلطة

رفع هذا التقرير إلى الحكومة المصرية في عام ١٩٥٣ جيمس إيجلبزغر خبير وزارة الخارجية الأمريكية بالأنظمة العسكرية في الدول النامية

** إن جوهر الحكم هو «القوة» فالحكم ليس مجرد اقتراح إجراءات عامة أو إصدار أحكام قضائية، ولكنه اضطلاع، بهذه الإجراءات وتنفيذ لتلك الاحكام. ولهذا كانت المحافظة على السلطة هدفاً في حد ذاتها، لا يختلف في هذا نظام عن نظام، مهما تعددت الأسماء وتبدلت الصور. وأما النجاح في تحقيق ذلك فيبقى رهيناً بانتقاء أكثر الوسائل ملاءمة وأضمنها نتيجة.

ففي الأنظمة الدستورية تلعب التقاليد والقوانين الأساسية، دوراً هاماً في فرض القيود على الوسائل المتبعة للمحافظة على السلطة. فالحكومة في النظام الدستوري لا تملك أن تقوم بإلقاء القبض على زعماء المعارضة لمجرد أسباب سياسية.

ولكن الأنظمة السائدة ليست كلها من هذا القبيل. فهناك أنظمة لا تخضع في تصرفاتها لقيود واضحة المعالم محددة المعاني، بل ولا تجد حرجاً في اتباع كل المسالك التي تضمن لها السلطة، وتؤكد لها البقاء. ويشتهر هذا النوع باسم: حكومات الثورة، أو الأنظمة الثورية.

ويعرض التاريخ لمبدأين أساسيين للمحافظة على السلطة وتجميعها في يد الحكومة. فالمبدأ الأول يقول باعتماد السلطة في بقائها على إجراءات القمع والإرهاب أو باعتمادها على سياسة البناء والاصلاح.

ويتجسد هذان القولان في شكلين متناقضين من أشكال أنظمة الحكم. فالقول الأول يتمثل في نظام ظالم وحكم مستبد، يفرض نفسه على الشعب عنوة، ويرسم للمواطنين ما عليهم أن يسلكوه وينجزوه، دونما رأي منهم أو مشورة. وأما القول الثاني فيتمثل في نظام شعبي وحكم مقبول (دون اشتراط الشكل الديمقراطي له)، يستمد قوته في التنفيذ من رضا الأمة به وتأييد المواطنين له. فالقمع - بكل ما يعني من مخاطر ومباحث وأمن عام - لا يمكنه البقاء طويلا، وإن كان أحيانا ضروريا ويجب أن تحل الإصلاحات محله تدريجيا وأن تطرده أعمال البناء أمامها نهائيا، دون رجعة أو عودة.

إلا أن القولين السابقين لا يمثلان سوى نوعين من أنواع الحكم التي هي على طرفي نقيض. بل وإننا لا نجد في التاريخ ذكرا لنظام حكم التزم حرفيا بواحد منهما واتخذ سنة له وهديا، دون شذوذ أو خروج.

****** إن الإجراءات الحكومية التي لها تأثير مباشر على قاعدة الحكم، تهدف أساسا إلى المحافظة على السلطة وعلى ضمان استمرارها. وكمثال على الإجراءات المباشرة التي تخص قاعدة القمع والإرهاب فإننا نذكر تلك الإجراءات التي من هدفها زيادة فاعلية الجيش، ورفع درجة ولائه، وضمان إخلاص أجهزة المخابرات والأمن العام، وغيرها من الأجهزة الحكومية التي لها صبغة عسكرية.

وكذلك تلك الإجراءات التي تنص على اعتبار بعض أصناف النشاط السياسي غير قانونية وبالتالي يتعرض العاملون فيها إلى الاضطهاد والتعذيب.

وكمثال على الإجراءات المباشرة التي تتصل بقاعدة البناء والإصلاح، فإننا نذكر تلك الإجراءات التي تشجع على ممارسة بعض أصناف النشاط السياسي، مثل تشكيل المنظمات الشعبية والأحزاب السياسية الموالية للحكومة، ويعتبر من هذا القبيل أيضا إصدار بعض التسهيلات الدستورية مثل قانون الانتخابات الذي يجب أن يمنح بعض الميزات والمنافع للفئات والطبقات الموالية لنظام الحكم القائم والمؤيدة لأهدافه.

****** عبقرية زعماء الثورة وقادتها تنعكس دائما في الدقة المتوخاة عند محاولتهم تقرير سياسة الحكومة حسب حاجات الشعب الذي يبقى دائما وأبدا مصدر الدعم الرئيسي للثورة.

ومع أن زعماء الثورة لا يميلون إلى اتباع سياسة غير سياسة البناء والاصلاح، فإنهم لا يتأخرون لحظة واحدة عن اللجوء إلى أقصى وسائل البطش والإرهاب حال إحساسهم بضرورة ذلك. خاصة إن اللجوء لأساليب القمع أمر لا بد منه، وخاصة في المرحلة الأولى للثورة.

وأن قوة أجهزة المخابرات والمباحث، وحسن تنظيمها، وابتعادها عن الارتشاء والعبث، عوامل جد أساسية لتنفيذ تدابير قمع فعالة. وللقيام بتحليل دقيق للقواعد الجماهيرية المؤيدة لنظام الحكم.

فمن الخطأ أن تعتمد الثورة، في مرحلتها الأولى بإفراط على سياسة الاصلاح والبناء، ومن ثم تلجأ إلى إجراءات القمع والإرهاب كعامل حاسم لسحق أعدائها. إن هذا السلوك بعينه هو ذاك المرض الخبيث الذي تعاني منه الثورات، وهو الكفيل بالقضاء عليها قضاء مبرما.

****** بداية قيام الحكم الثوري أنسب الأوقات وأصلحها لإحداث تطورات سريعة، تفقد بموجبها بعض الفئات والطبقات قوتها كمؤسسات سياسية، وتوضع في موقف حرج تضطر معه إلى الدفاع عن نفسها وذلك بسبب التيار الجارف لطبيعة الانقلاب الجديد التي تقف وراءه القوات المسلحة.

كما أن النجاح السريع لنظام الحكم، في تكتيل الجماهير الغوغائية المؤيدة له تحت شعارات الإصلاح والبناء، له أكبر الأثر في تدعيم الخطوة السابقة.

****** وفي أثناء هذه المرحلة، تبرز الأخطار المضادة للثورة في أقوى مظاهرها. وتنتج من أحد المصادر الثلاثة التالية:

- (١) من أولئك الذين كانت لهم مصالح ضخمة في نظام الحكم السابق، أو من مؤيديه، أو ممن تغطي عليهم عاطفة جامحة في تأييده.
- (٢) من أولئك السياسيين الانتهازيين الذين يحاولون الاستفادة باستمرار من الاتجاه الطبيعي نحو الاضطراب وعدم الاستقرار الكامن في الوضع الثوري.
- (٣) من أولئك الساسة الهدامين الذين يحاولون سرقة الثورة وتسخيرها لأهدافهم ومآربهم، كالشيوعيين مثلاً.

**** إن قاعدة القمع والإرهاب التي يجب على حكومة الثورة أن تلجأ إليها عند الضرورة تتألف في هيكلها مما يلي:**

١ - الأنظمة والقوانين

إن الاستعانة بالأنظمة والقوانين لتحقيق الاستقرار السياسي خلال الفترة الأولى من حكم الثورة أمر ضروري لا بد منه. وليس الهدف من ذلك تحريم النشاطات السياسية المنظمة التي لا ترغب السلطة الحاكمة بها فحسب، بل الهدف منها أيضاً إضفاء صبغة اللاشرعية على كل النشاطات الهدامة والداعية إلى الشغب والفوضى. وفي الوقت الذي يجب أن تكون هذه التشريعات واضحة قدر المستطاع، فإنها يجب أن تبقى أيضاً عامة حتى لا تعيق الحكومة نفسها، وتسلب رجال السلطة حرية التصرف المطلوبة.

كما يجب عليها أن تمنح قوى الأمن الداخلي الحق في تحريم الاجتماعات العامة والتجمعات التي تبلغ حد الخطر في الشوارع، وتفرض الحصول على إذن مسبق لإقامتها.

ومن المسلم به جدلاً، خضوع السلطة القضائية برمتها -دون استثناء- لإرادة حكومة الثورة. كما أن كافة الأحكام الصادرة بحق المخالفين لأنظمة أمن الدولة، يجب ألا تكون - بأي حال من الأحوال - مخالفة لرغبة حكومة الثورة وانشراح صدرها.

٢ - قوى الأمن الداخلي

يجب على قادة حكومة الثورة إعطاء أجهزة قوى الأمن الداخلي (الشرطة والمباحث والأمن العام) الأولوية على سائر الأجهزة الأخرى في الدولة. فقوى الأمن الداخلي تعتبر بمثابة الدرع الحامي لنظام الأمن في الدولة وضمان استتباب الأمن والنظام في الأزمات التي لا تبلغ حدا خطيرا يتطلب معه استدعاء الجيش.

ولهذا يتوجب القيام بتفحص وتحري كامل هيئة قوى الأمن الداخلي وعملاتها باستمرار حتى يضمن ولاؤها، ويحافظ على حسن أدائها لمهامها. وعلى قيادة الثورة منح رئيس قوى الأمن ومساعديه ثقتهم التامة، كما عليهم أن يولوا تطوير فاعلية تلك الأجهزة في حفظها للأمن عنايتهم الشخصية والمباشرة.

إن من مهمات أجهزة المباحث التابعة لقوى الأمن الداخلي ما يلي: تجميع كافة المعلومات الحاسية بوضع الأمن في الدولة عن طريق إنشاء شبكة واسعة للتحريرات، وإجراء التحقيقات السريعة في قضايا الأمن بممارسة الطرق العادية للمراقبة والاستنتاج والتسلل إلى المستويات الدنيا لكافة الجماعات المشكوك في ولائها للثورة كما أن عليها القيام بتطوير جهاز فعال ضد المظاهرات والاضطرابات.

٣- أجهزة المخابرات والمباحث ذات الكفاءة العالية.

هو ذاك الجهاز الذي هو على غاية من السرية، والذي لا يعرف تفاصيل وجوده سوى رئيس النظام الحاكم ومن حوله من زعماء الثورة القياديين. ويطلق على ذاك الجهاز اسم «المخابرات»، وتقع على عاتق هذا الكيان المتغلغل في كافة أرجاء أجهزة الحكومة ودوائرها (وحتى خارج أجهزة الحكومة) مسؤولية تزويد رئيس الدولة بالمعلومات الهامة والضرورية للقيام بإجراءات فعالة وفورية ضد الأخطار المضادة للثورة.

٤- وسائل الدعاية

من الخطأ اعتبار الدعاية سلاحا أساسيا لضمان أمن الثورة. فالدعاية في حد ذاتها لا تعدو كونها سلاحا مساعدا لاستمرار السلطة وبقاء النظام. كما أن الاعتماد على الدعاية كليا يعتبر مخاطرة غير قليلة، وذلك لأنها تدفع بسياسة الحكومة إلى وضع تجد

معه نفسها موجهة من قبل احتياجات الدعاية بدلا من أن يكون العكس. وهذا هو أقصر الطرق المؤدية بالثورة إلى سياسة الانجراف والمساومات. وعلى حكومة الثورة أن تقوم بشن حملات دعائية مركزة تهدف إلى إعطاء تبرير مقنع لاستمرار استخدامها لوسائل القمع والإرهاب. كما أن من أهداف تلك الحملات كشف النقاب عن أعداء الثورة وفضح النشاط اليساري.

ويجب أن تستحوذ مسألة الدعاية المضادة التي تقوم القوى المعارضة للثورة بها على اهتمام خاص، بسبب ما يمكن أن تثيره من مشاكل، مثل مطالبتها بحرية الصحافة والتعبير عن الرأي.

وعلى حكومة الثورة أن تكون مستعدة لفرض المراقبة على الصحافة حال إحساسها بضرورة ذلك. إلا أنه يمكن ضبط الصحافة في غالب الأحوال من خلال ممارسة بعض الضغط من قبل الحكومة، بأشكال عديدة، ودون اللجوء إلى المراقبة الصريحة.

٥- قوة عسكرية بكفاءة عالية أو الجيش

في الوقت الذي لا يجوز التقليل من أهمية وجود قوة عسكرية ذات كفاءة عالية وولاء تام للنظام الحاكم، فإنه لا يجوز أيضا اعتبار وجودها ذا أهمية مسلم بها جدلا. فمن أكثر الأمور أهمية، توفر جهاز فعال جدا للمخابرات ضد التآمر والنشاط الهدام في داخل القوات المسلحة. ومن المستحسن وضع برامج ثقافية سياسية وتلقينها لكافة أفراد الجيش. ومن المهم، فوق كل هذا وذاك، ادخال التحسينات على أسلحة ومعدات وتدريب القوات المسلحة، كما يجب دفع المرتبات بانتظام وسخاء حتى تكون أحسن المرتبات في الدولة، وحتى يصبح ذلك الجيش - باختصار - جيشا مواليا تملا الغبطة قلوب أفرادها، ويغمر السرور نفوس ضباطه.

إن اجتماع كل هذه الأجهزة التي استعرضناها آنفا. يعطي الثورة جهازا ضخما لحماية أمنها، وتأمين استمرارها. وإذا ما تم استخدامها بحكمة كافية وعقل راجح فإنه لا يوفر حماية كافية للثورة ضد أعدائها فحسب، بل ويزود حكومة الثورة برصيد مهم يؤمن

لها حاجتها من الاستقرار السياسي. والضروري للبدء بتنفيذ سياسة الإصلاح والبناء. وفي مثل هذه الظروف فقط.

ويجب على زعماء الثورة أن يتطلعوا منذ اليوم الأول لحركتهم إلى تطوير الثورة وتحويلها إلى نظام دستوري جديد.. ولهذا كانت أنجع الوسائل لإجراء عملية التعاقب بشكل منتظم ومستقر (ودون الحاجة للقيام بثورة أخرى)، هي تلك التي تستخدم أي نوع من أنواع. الانتخابات النيابية، التي غالبا ما تقود إلى عهد ذي صبغة دستورية مهما كان مشوه الحقيقة ممسوخ الفاعلية.

ويجب على النظام الدستوري الجديد أن لا يتخذ شكلا يشجع ظهور عدة أحزاب متعادلة القوة تقريبا. ذلك أن وضعها كهذا، لن ينتج عنه سوى عدم الاستقرار السياسي لوجود أحزاب بشعارات قديمة، ولكنها في موقف قوي لإجبار غيرها على اتباع سياسة المساومات والحلول الوسطى. وبهذا يتحقق لها الانقضاء على بعض منجزات الثورة أو كلها.

ومن الممكن تفادي كل هذه الأخطار إذا قامت حكومة الثورة بالاستفادة من الميزات الفريدة - التي يمنحها إياها احتكارها الكلي للنشاط السياسي القانوني في أوائل عهدها - في وضع أسس النظام الدستوري الجديد، يسود فيه حزب واحد، هو وحده وريث الثورة الشرعي في العهد الدستوري الجديد، وله وحده الدور الحاسم في تسيير دفة الأمور، وعندما يحين الوقت لمنح البلاد الدستور الجديد، فإن على حكومة الثورة ألا تنسى أن تصوغه بصورة تعطي الحزب الثوري فرصا مطلقة لا منافسة فيها.

المنظمة الشعبية

هو ذاك النوع الذي يبقى خارج نشاط الحكومة الرسمي. ففي هذا النوع من المنظمات الشعبية يقوم زعماء الثورة، بالتعاون مع بقية موظفي الحكومة ومستخدميها، بإنشاء منظمة شعبية تشترك فيها جماهير غفيرة من المواطنين غير الرسميين، وتدعي هذه المنظمة أهدافا وشعارات مثل تلك التي تنادي بتدعيم الثورة والمحافظة على مكتسباتها وزيادة منجزاتها.

وعلى هذه المنظمة ألا تظهر بمظهر حزب سياسي أثناء الفترة التي تكون الانتخابات فيها معلقة، والاحزاب السياسية منحلة ومحرمة قانونيا، دون أن يؤدي هذا إلى إغفال تنظيمها على غرار حزب سياسي، لتكون مستعدة لانتخابات تجري في المستقبل عاجلا أم آجلا.

وكنتيجة لهذا يجب أن تكون لها قيادات محلية، إقليمية وقطرية، ومسؤولون متفرغون لرسم مختلف احتمالات سيرها وتخطيط سياستها. كما يجب أن يتوفر لها جهاز إداري عامل وآخر للانضباط. وعلاوة على كل ذلك، فإن قيام أمانة عامة لها، متفرغة لشؤونها، مع لجان متعددة المختلف المهام، مثل الدعاية والنشر، أمر حيوي لبقائها في الطليعة متماسكة ومهيمنة.

لا يجوز الإفصاح عن الغاية الحقيقية لإنشاء مثل تلك المنظمة. وكل ما يشاع عن أهدافها هو أنها وجدت لتوثيق الروابط الأخوية بين العناصر المؤيدة للثورة وأهدافها. ولكن هدف انشائها حقيقة. إيجاد جبهة للدعاية لصالح النظام الحاكم، ومن ثم تطورها إلى حزب سياسي - الحزب الثوري - يمارس مهام الحكم في المستقبل. ويتم ذلك عن طريق استقطاب قواعد وطبقات جديدة من الشعب، وغمسها في نشاط سياسي مدعم وبدون انقطاع، وتوفير التدريب الضروري لها على هذا النوع من النشاط، ومحاولة إقناعها بفائدته وبأهميته في حصول الفرد على أحسن مردود لحياته (داخل مجتمعه ودولته) عن طريق إظهار وقائع عملية ملموسة لتلك الفائدة والأهمية.

إن سر نجاح هذه المنظمة هو بقاؤها بقرب السلطة الحاكمة.. واستمرار إشراف الثورة عليها، إشرافا غير رسمي. كما أن مفتاح بقائها هو عدم سماح الثورة بظهور أي منافس لها.

فهي وحيدة في الميدان، عزيزة على قلب الثورة التي تصبر عليها، وتتقبل النقد منها بكل رحابة صدر وسعة، أما كبار قادتها فيجب أن يكونوا نموذجا طبق الأصل من كبار زعماء الثورة، وقادة الحكم، في معظم نواحي تفكيرهم وحياتهم.

وعندما تتوفر مثل هذه الظروف في المنظمة الفتية، فإن جماهير الشعب، التي قامت الثورة برعاية مصالحها، وتأمين حاجاتها، ستظهر عواطف جياشة تنم عن ولاء تام للثورة وقادتها.

ثم لا تلبث أن تجد نفسها تحت تأثير إغراء متزايد يجذبها للانضمام إلى عضوية المنظمة والانخراط في سلوكها. وتشكل الخدمة المدنية معينا لا ينضب للكادرات العاملة في هذه المنظمة.

وكمثال على هذا، فإن التحاق موظفي الدولة ومستخدميها بالنشاطات التابعة لهذه المنظمة، كشرط لاستمرار خدمتهم في سلك الحكومة، يمد المنظمة بأفواج ضخمة من المنتسبين اليها والعاملين فيها.

ولهذا يجب أن يكون واضحا (دون أن يعلن عن ذلك رسميا) أن التأييد النشط للمنظمة والدعوة المتواصلة لها هما من أضمن الطرق للحصول على المغام.

إن المحافظة على السلطة هي هدف في حد ذاتها، لا يختلف في هذا نظام عن نظام. وبعبارة أخرى، فإن على نظام الحكم الثوري أن يتخذ كل ما يراه ضروريا من التدابير لإيجاد قوة حقيقية له سواء أكان ذلك باللجوء إلى إجراءات القمع والإرهاب أم إلى سياسة الإصلاح والبناء. وعليه كذلك ألا يغفل عن تلك القوة الكامنة في المجتمع ويتركها دون السيطرة عليها وتجنيد لها.

مركز لعبة السلاح في واشنطن

لا يمكنك أن تربح المباراة دون أن تكون لاعبا ضمن الفريق

**** القواعد والأسس المتبعة في هذه «اللعبة» هي:**

أولا: الالتزامات الأخلاقية التي تؤخذ بعين الاعتبار هي تلك التي لا تتعارض مع القواعد الأخلاقية لمختلف الدول الممثلة في اللعبة. أما قواعدا الأخلاقية فلا نعيها اهتماما إلا عندما تحاول تحديد اتجاهات حكومتنا وردود فعلها. وليس للقاعدة الشهيرة

«أن الخير هو الخير أينما ذهب. وأن الشر هو الشر أينما حللت»، التي يرددها رجال الكنيسة أي اعتبار في تخطيطنا هذا.

لقد أنفقنا الساعات الطوال محاولين التعرف على الأسس الأخلاقية التي كانت تكمن حقا خلف اتجاهات وتحركات أي من الزعماء الوطنيين، فما كنا لتتكل فقط على أقوال رجال الدين والسياسة أو تكهنات رجال الصحافة ومع كل هذا فلم نكن لنهتم بهذا كثيرا كما لم نكن لنفكر في نعت هذا بالخير، ووصم ذاك بالشر.

ثانيا: كان الرأي السائد أن أول أهداف أي زعيم وطني هو البقاء في السلطة وفي حال تعذر ذلك فإنه يحاول أن يعتزل الحكم بأقل ما يمكن من التضحية بسمعته وشهرته الشخصية - إلا أن هذا المقياس لا ينطبق على تلك الحفنة من الزعماء المخلصين الذين يضحون بأرواحهم وحتى بشهرتهم دون تردد في سبيل مصلحة أوطانهم العليا. إلا أنهم نزر يسير لا يسبب لنا أي ارتباك في دراستنا وتقديراتها. وغالبا ما تعطينا النظرة الواقعية لرعاية الإنسان نتائج أفضل من تلك التي تعطينا إياها النظرة المثالية لها.

ثالثا: نفترض -إلا إذا ثبت العكس- أن تصرفات أي زعيم وطني تصدر عن اعتقاده المطلق أنه بهذا إنما يخدم وطنه ويحقق أهداف أمته. كما يظن مخلصا أن قضيته قضية عادلة ومحقة وعليه أن ينقلها للعالم الذي سيصغي إليه باهتمام وانتباه.

فمفاهيم الخير والشر لا تحظى بأي اهتمام منا إذ ليس عندنا رجال أخيار وآخرون أشرار.. وكل ما يراه المرء هو مجموعة من خبراء التخطيط (اللاعبين) منهمكين في رسم خططهم وإحراز النجاح بالطريقة التي تملئها عليهم ظروف تلك الدولة الممثلين لدورها أو مفاهيم ذاك الزعيم الذين يلعبون دوره في مركز اللعب.

وتصدر الآراء النهائية بشكل تقارير ومذكرات ومن ثم تخضع للتنسيق مع المعلومات الأخرى الواردة باستمرار من وزارة الخارجية ووكالة المخابرات المركزية ووزارة الدفاع، وغيرها من المؤسسات الرسمية. لتكون كلها جاهزة بشكل: حقائق ومعلومات للقرارات يعتمد عليها الخبراء أنفسهم لاستكمال خطواتهم اللاحقة.

وعلاوة على كل هذا فإن نسبة النجاح والتوفيق في لعبتنا لا تتجاوز ٨٥% وهي نفس نسبة نجاح تنبؤات مرصد غرينتش للتقلبات الجوية وهذه النسبة كافية لتضع دراستنا في طليعة غيرها من الدراسات التي تحصل عليها بطرق شتى.

لقد كانت كامل دراستنا لتحركات الدول الأوروبية وتوقعاتنا لردود فعلها ومن ضمنها الاتحاد السوفياتي سهلة وموفقة. لقد اقتصر عملنا في هذا المضمار على تغذية العقل الالكتروني بكافة المعلومات الحديثة والصحيحة حول الشؤون الاقتصادية واتجاهات الرأي العام السائدة في تلك البلدان وحول بعض العوامل المتغيرة باستمرار ثم تركه يتمثل تلك المعلومات ليصدر اقتراحات وقرارا.

ولكن الأمر كان عكس ذلك تماما بخصوص دراستنا وتخطيطنا للأوضاع في الدول الأفريقية والاسيوية. فلم يكن الاعتماد على العقول الالكترونية منها، وذلك لافتقاد عنصر العقل والنظام في هذا الجزء من العالم. وكان اللجوء إلى اعتبارات العواطف والنزعات الفطرية لبني الانسان التي لم توفق للآن إلى طريقة تضعها في شكل يمكن نقله للعقول الالكترونية أمرا ضروريا لا بد منه لرسم معالم المستقبل.

إن رجال وكالة المخابرات المركزية يملكون أدق المعلومات وأحدث التفاصيل السرية حول الكثير من شؤون قادة العالم الحاليين وتحركاتهم وحول نيات زعماء المستقبل.

إلا أن هذه المعلومات السرية لم تكن تحت تصرف اللاعبين في مركز التخطيط ولهذا فلم يكن في وسعهم الوصول إلى نفس النتائج الدقيقة التي وصل إليها رجال وكالة المخابرات، والتي كان ينبغي أن ينتهي اللاعبون إليها قبلهم.

وعلى العموم فلقد أخفقت أحسن الوسائل المعروفة لتحليل المعلومات في الوصول إلى دراسة عميقة تساعد على التنبؤ الصحيح حيال نيات وتحركات زعماء بلدان أفريقيا وآسيا وأميركا الجنوبية.

لقد كانت تواجه هذه الوسائل -مثل المخابرات المركزية ووزارة الخارجية وجهاز اللعبة وما شابه ذلك- أوضاع اقتصادية يائسة في تلك البلدان وهوة سحيقة تفصل بين

الحقائق والأمان لا يمكن ردمها. كما أن شعوب تلك المناطق من العالم تعاني من خيبة أمل مريرة تجعل بقاء الزعماء في الحكم أمراً غاية في الصعوبة إلا إذا اعتمدوا على الأساليب الغوغائية أو ابتكروا أساليب جديدة لابتزاز المساعدات من الدول الغنية. وباستثناء أولئك الزعماء الذين يعولون كلياً على الأساليب الغوغائية وبالتالي يسهل التنبؤ بتحركاتهم فإن البقية الباقية من زعماء شعوب تلك المناطق من العالم لا تخضع ممارستها لأدوارهم في اللعبة لأية قواعد ثابتة وإنما يختلقون قواعد خاصة بهم ومميزة لأوضاعهم.

كما أن سيطرة الحقد والتحيز والجهل على بعض كبار المسؤولين تؤثر تأثيراً بالغاً على قراراتهم النهائية مما يجعل أفعال حكومتنا وردود فعلها صعبة التوقع شاقة التحديد عسيرة الفهم. فقد يستحيل على جهاز اللعبة يطرق موضوع النزاع العربي الإسرائيلي أو مشكلة فيتنام أو روديسيا بنفس اعتبارات الهدوء والاهتمام التي يتدبر بها التحركات السوفياتية في مناطق نفوذها.

**** إن النظام الديمقراطي يضع قيوداً عديدة على سلوك حكوماته تجاه العوائق الداخلية وعلى الأساليب التي تنتهجها الحكومات لمعالجتها، ولكن ليس هناك أياً من هذه القيود على السلوك أو الأساليب المتبعة خارج بلادنا.**

ولا يبقى في هذا المجال سوى قيد واحد ألا وهو اعتبارات الفاعلية والنجاح.. فكل ما تتوفر له فرص النجاح فعلناه ولا تخلينا عنه. وعندما يأتي دور المبادئ الأخلاقية على مسرح الأحداث فإن تعديلات طفيفة تطرأ على ذلك القيد دون أن تقتلعه من جذوره أو تطيح به بعيداً وعندها يتخذ التساؤل هذا الطابع: وهل يمكننا أن ننجح بالتنفيذ دون أن نخوض غمار معركة افتضاح وتعري!

إن كافة التوجيهات التي يزود بها رجالنا في السلك الدبلوماسي تبرز أهمية اتباع وسائل تعكس المبادئ الديمقراطية والقيم الأخلاقية للأمة كعامل أساسي لنجاح أية محاولة من محاولات الضغط على الحكومات الأجنبية.

ان الكشف عن نياتنا صراحة وعدم الدخول في معاهدات لا نزمع على الالتزام بها يجب ألا يعني سوى حقيقة واحدة وهي أننا لم نعر على أية مصلحة لنا في اتباع مثل هذا السلوك.

وبالمقابل فإننا سنبدل المستحيل لكتم نياتنا الحقيقية أو للتحايل على نصوص أية معاهدات وقعتها سابقا إذا ما لمسنا أن ذلك يحقق لنا مآربنا ويوصلنا إلى غاياتنا شريطة أن ننجح في هذا دون الوقوع في مآزق محرجة أو التورط في مواقف فاضحة. إنني لا أحاول البتة أن أقف موقف المدافع عن مثل هذا النفاق والخداع. فالحقيقة أنني لا أملك شعورا واضحا حياله وإن كنت متأكدا من وجوده تماما.

إن كلا من اللعبة التي نمارسها في «مركز اللعب» في واشنطن تحت ظروف مفتعلة و «لعبة الأمم» التي يقوم رجالنا في السلك الدبلوماسي وجنودنا بتنفيذها عبر البحار - باستمرار وكيفما اتفق - تعتبران من أبرز الشواهد على صدق كلامي.

ولعل أبرز مثال على سلوكنا المزدوج، واستراتيجيتنا ذات الوجهين والأخلاقي واللا أخلاقي هو تلك الطريقة التي تعاملنا بها مع عبد الناصر رئيس الجمهورية المصرية.

إن من أول العناصر التي لمسنا ضرورة وجودها في مسرحيتنا توفر شخصية ما مثل عبد الناصر بالذات. وبعبارة أخرى فإن ناصرا ما كان من ضمن العناصر الحيوية للمسرحية التي عزمنا على اخراجها. ولقد تأكد هذا الشعور جليا عندما بدأنا نؤدي أدوارنا حول طاولة الاجتماعات وكنت يومها أقوم بتمثيل دور ناصر نفسه.

لقد بان لكل من يملك إحساسا مرهفا أن غياب دور ناصر سيفقد المسرحية توازنها، وستبدو عندئذ كتمثيلية «هملت» وقد اختفى منها دور بولينوس.

****** كان يتملكني شعور خاص وأنا أجمع شتات قصة ناصر وأعمل جاهدا لوضعها في صيغة قوانين ذات تطبيق عالمي.. إن نموذجا كجمال عبد الناصر كان من الأهمية بمكان بخصوص اللعبة وأنا كنا ملزمين بالبحث عن مثل له فيما لو لم يكن على قيد الحياة. أو أن زعيما مثله لا محالة سيبرز إلى الوجود عاجلا أم آجلا وعلى الأقل لاستكمال أدوار اللعبة.

وبالرغم من الاعتراض الذي أظهره الوزير جون فوستر دالس على الزعماء الذين عليهم مسحة من طراز ناصر في الحكم فقد اقتنعت حكومتنا أخيرا أن وجود هذا النوع من الحكام في السلطة أخف ضررا على مصالحها من وجود أي نوع آخر منهم مهما كان شكله.

** لقد اعتادت حكومتنا على احترام استقلال الدول الأفريقية والآسيوية إلى حد كانت تتغاضى في كثير من الأحيان عن سلوك بعضهم الطائش ما دام ذلك لم يمس مصالحنا بسوء. أما إذا كانت نتائج التزامنا بالمبادئ الأخلاقية خسارة مصالحنا وضياعها فإن موقفنا سيكون العكس، وستكون التضحية بدون شك على حساب تلك المبادئ الأخلاقية وليست على حساب مصالحنا.

وبصراحة أكثر فعندما كنا نضطر في بعض الأحيان لإزاحة حاكم ما ثبت أن وجوده يقف حجر عثرة في سبيل تنفيذ مخطط لنا في أحد تلك البلدان الأفريقية أو الآسيوية (وهذا ما كان يحصل فعلا في مركز اللعب في واشنطن في أحوال تفرض حتمية وجود جميع أولئك الحكام الأصدقاء منهم والخصوم) فإننا كنا لا نتردد في اللجوء لمثل هذه التدابير مهما كانت فداحة المخالفات الأخلاقية.

ومن البديهي جدا أن يكون خليفة الحاكم المخلوع على استعداد تام للسير وفق الخط الذي يضمن مصالحنا هناك.

ولقد اتفق الأمريكيون والبريطانيون على معالجة شؤون الدول الأفريقية والآسيوية من خلال هذه النظرات والمواقف. مكان الحكام من طراز ناصر يعطون الأولوية على غيرهم لأن استيلاءهم على السلطة يوفر أفضل الفرص - أو أقلها سوءا - لنجاح لعبتنا فكنا لا نعتبر نجاحنا في استمالة أي من أولئك الحكام الغوغائيين الذين جاؤوا إلى السلطة في سوريا أكثر من مجرد نصر أجوف ذلك أنه سرعان ما يطاح به ليعقبه من هو أسوأ منه.

إلا أن ناصراً كان من نوع آخر تماماً. لقد اعتاد أن يتأقلم إلى حد ما مع كل ربح نجنيه لصالحنا من خلال عدم اعتباره على أنه خسارة له. وعلاوة على هذا فإن لدى ناصر القدرة على أن يتخذ قرارات حاسمة في المواقف الحرجة تحقق لنا وله بعض المكاسب والمغانم دون أن يدع المجال الجماهير شعبه أن تراها على حقيقتها.

وكمثال على هذا احتمال التوصل إلى اتفاق ما مع الاسرائيليين. فالمبدأ القائل إن عدوا عاقلاً - كيفما كان ذلك - خير من صديق جاهل هو ذاك المبدأ الذي نحرص عليه كل الحرص بل ونعضع عليه بالنواجد.

لقد أثار تمثيل دور ناصر في اهتماما وتعلقا وليس فقط بالشكل الذي كنت أؤديه في ناطحة السحاب بواشنطن (وزارة الخارجية) بل وبالشكل الذي كان ناصر يؤديه بنفسه على الطبيعة في العالم لقد قمت بتمثيل دوره في «مركز اللعبة» في واشنطن مرارا وتكرارا وعلى فترات امتدت من صيف ١٩٥٥ وحتى ربيع ١٩٥٧ وكنت أثناءها أزاوول مهام منصبي كمستشار للجنة تخطيط السياسة الأميركية في الشرق الأوسط في وزارة الخارجية.

ولقد أتاح لي منصبي هذا أن أقوم بزيارات عديدة إلى القاهرة وبعض عواصم الشرق الأوسط توفرت لي خلالها الفرصة لمقابلة ناصر نفسه وغيره من زعماء المنطقة المعجبين به - واستعرضت معه تحركاته وتصرفاته.

إلا أن صليتي بناصر كانت أقدم من هذا التاريخ. فقد كان لي معه صلات عديدة في ظروف جيدة كما كان لي نفس الشيء مع عدد من زعماء الشرق الأوسط بنوعهم الموالي لناصر والمناوئ له.

ومع أن ناصراً كان يتصف بمسحة من الغوغائية (كغيره من باقي زعماء الشرق والغرب) إلا أنه كان يتمتع إلى جانب ذلك بموهبة أخرى جعلته يفوز في «اللعبة» على جميع اللاعبين بما فيهم الولايات المتحدة نفسها والاتحاد السوفياتي باستثناء اسرائيل.

وكانت تعزيرني الدهشة عندما كنت أقارن بين القرارات التي اتخذتها في مركز اللعبة بواشنطن وبين قرارات ناصر نفسه التي كان يصدرها على الطبيعة فعلاً فأجد أن الأولى أسوأ من الثانية من وجهة نظر المحافظة على المصالح الغربية.

وحدث هذا فعلا قبل أسبوع واحد من بدء أزمة قناة السويس عام ١٩٥٦ فقد استشارني يومها نائب مدير المخابرات المركزية فيما إذا كنت أتوقع أن يقوم ناصر بتأميم قناة السويس إذا أقدمت الولايات المتحدة على سحب عرض تمويلها لبناء السد العالي. وأجبتة يومها أنني قد قمت بتأميم قناة السويس منذ بضعة أشهر استنادا إلى دور ناصر الذي كنت أمارسه في جهاز اللعبة إلا أن ناصرا الحقيقي لم يفعل ذلك حتى ذلك الوقت ولهذا لا أدري ما الذي سيفعله ناصر حقيقة في تلك اللحظة!

وعندما أتحت لي الفرصة مؤخرا أن أبحث مع ناصر نفسه قضية قناة السويس تبين لي أنه كان يتوقع ردود فعل انجلو - أمريكية على مستوى أقصى بكثير من التي راودتنا نحن فعلا في واشنطن.

لقد كان بإمكان ناصر أن يكون أجراً بتحركاته لو أنه كان يحتل مكاني في مركز اللعبة في واشنطن وقد تجمعت أمامه على طاولة الاجتماعات كل المعلومات والدراسات التي كانت تحت تصرفي يومئذ.

لم نكن نهتم بالعثور على صيغة لمعادلة توصلنا إلى نجاح مستمر إلا مع طراز ناصر من الزعماء. فلو أننا اكتشفنا فعلا طريقة محددة للتعامل مع ناصر فسيعني هذا أننا قد أحرزنا تقدما ملموسا في مضمار علاقاتنا مع كثير من حكام دول أفريقيا وآسيا وأمريكا الجنوبية، بل ومع كثير من الزعماء المتوقع ظهورهم حتى أواخر هذا القرن.

مخططاتنا قيد التنفيذ في سوريا

١٩٤٧ - ١٩٤٩

إذا لم تريح المباراة فغير اللاعبين

****** كانت مشكلتنا الرئيسية في دول الشرق الأوسط فقدان القيادات الذكية التي تتمتع بقسط وافر من الخبرة والحنكة في إدارة الأمور وتقدير مصالح بلدانها والتي هي على مستوى رفيع من النزاهة والشجاعة الكافيتين لتحقيق كل ذلك. وبهذه الطريقة دون غيرها يمكننا أن نحقق أهدافنا مهما كان لونها وشكلها. ونتيجة لذلك فقد بدأ

تركيزنا على فسخ المجال أمام وصول النوع الملائم من القيادات الى السلطة وتسلمها مقاليد الحكم في داخل أوطانها بينما تكون قد أنجزنا دراسة مخططاتنا وحددنا أهدافنا في المنطقة بكل دقة ووضوح

كانت قواعد: لعبة الأمم تملي علينا أن نبذل قصارى جهدنا لإحراز التقدم والنجاح ضد المناوئين لنا ولكن لصالح المواليين لنا. فاذا تعسرت الخطوات وسدت المنافذ كان لا بد بعدها من تعديل اعتباراتنا لأسباب النجاح وطبيعته. فإذا لم تكف هذه الخطوة كان لا بد بعدها من اللجوء إلى تغيير اللاعبين الذين يشكلون حجر عثرة في طريقنا واستبدالهم بآخرين أكثر انسجاما مع الظروف الراهنة.

ومعظم هذه العناصر التي هي من البعثات التبشيرية أو من أصحاب الفكر وبعض الهواة كانت تعتقد أن تغيير القيادات في دول الشرق الأوسط عامة والدول العربية خاصة لا يستلزم أكثر من مجرد إزاحة بعض الدعائم والقوى التي أوصلت كثيرا من الزعماء إلى سدة الحكم دون أن تتوفر لديهم أية كفاءات أو ميزات وستستمر في مساندتهم طالما امتلكت القدرة على هذا.

انني لا أزال أذكر تلك المحاضرة التي القاها أحدهم في اجتماع توجيهي مشترك لوزارة الخارجية ومجموعة المخابرات المركزية وقال فيها يومها: يظهر في كل من سوريا ولبنان ومصر والعراق أن السياسيين الحاكمين قد استلموا مقاليد الحكم نتيجة انتخابهم من الشعب، ولكننا نتساءل أية انتخابات تلك! كان الفائزون بالانتخابات من مرشحي القوى الأجنبية، ومن مرشحي الاقطاعيين الذين يلزمون الفلاحين والمستخدمين بانتخاب من يخدم إقطاعهم، ومن الرأسماليين الجشعين الذين يشترون أصوات الشعب لحساب أعوانهم بنفس طريقتهم المعتادة في الحصول على ما يريدونه عن طريق الخداع والصوصية. إن العرب يرزحون تحت نير أولئك الحكام المرتشين وهم يستصرخون الجميع لرفع هذا الاضطهاد عن كواهلهم.

** كان رئيس بعثتنا في دمشق رجلا برتبة وزير مفوض اسمه جيمز ميكائيل كييلي.. أما رجل التنفيذ في السفارة فكان الميجر ستيفن ميد. أما المسؤول عن الديبلوماسية

السرية (ديبلوماسية ما وراء الكواليس) في البعثة الأمريكية في دمشق فقد كنت أنا - مؤلف هذا الكتاب.

وصلت دمشق في أيلول (سبتمبر) عام ١٩٤٧ حاملا تعليمات تقضي أن أحقق اتصالا غير رسمي مع الرئيس القوتلي وغيره من الزعماء الرئيسيين في الحكومة السورية. وكان على أن أبذل قصارى جهدي حتى أفلح في إقناعهم بمنح المزيد من الحريات السياسية ومن تلقاء أنفسهم - حتى يغدو النظام السياسي في البلاد أكثر تحرا وتقدما: وكان القسم الاول من مهمتي يسيرا. فقد أفلحت في إقامة علاقات شخصية مع الرئيس القوتلي ومع أصحاب الشأن حوله من الذين لا مفر من إقناعهم بالفكرة حتى يساعدوا في تنفيذها إلا أنني سرعان ما اقتنعت أنني:

تناطح صخرة يوما ليوهنها.. فلم يهنها وأوهن قرنه الوعل.

وعندما وصل كييلي الى دمشق ليتسلم مهام منصبه وكان ذلك بعد وصولي بستة أشهر رفعت له تقريرا عن نتائج جهودي أقنعه بالحقيقة المرة وهي أن الوضع يتجه نحو انفجار سياسي بدأت معالمه تلوح في الأفق لإصرار القوتلي وأعوانه على مواقفهم ورفضهم القيام بأية خطوات تحررية.

وبعدها خاطبني كييلي قائلا: إنه لم يبق أمامنا سوى طريقين أحلاهما مر. وكان كييلي يعني بذلك أنه لا بد تملك الأوضاع السياسية المتدهورة أن تنتهي إلى نتيجتين: إما الى ثورة مسلحة دموية يقودها بعض الانتهازيين بدعم سري من السوفييت أو إلى حركة يقوم بها الجيش السوري بدعم سري منا (أي الأمريكيين) بقصد الإطاحة بالنظام القائم والمحافظة على النظام والهدوء حتى يحين الوقت القيام ثورة سلمية تتمكن من تسيير دفعة الحكم واستلام مقاليد الامور.

ولم يكن اشمئزاز كييلي من النتيجة الثانية أقل من اشمئزازه من الأولى. الا أنه قبل بها مرغما حتى لا تضطر البلاد إلى سلوك طريق سفك الدماء وازهاق كما أن الإطاحة بالنظام القائم على أيدي رجال الجيش سيفسح المجال أمام العناصر الصالحة في المجتمع لتتقدم الصفوف وتضطلع بأعباء الحكم بعدما منعتها نزعة العنف في نظام حكم القوتلي من القيام بدورها الفعال في حكم الأرواح والمجتمع.

كان انقلاب حسني الزعيم يوم ٣٠ آذار (مارس) ١٩٤٩ من إعدادنا وتخطيطنا. فقد قام فريق العمل السياسي بإدارة الميجر ميد بإنشاء علاقات صداقة منتظمة مع حسني الزعيم الذي كان رئيساً لأركان الجيش السوري ومن خلال هذه الصداقة أوحى الميجر ميد لحسني الزعيم بفكرة القيام بانقلاب عسكري اضطلعنا - نحن في السفارة - بمهمة وضع كامل خطته وإثبات كافة التفاصيل المعقدة.

إلا أن تحركاتنا هذه لم تثر أكثر من شكوك عند الساسة السوريين فقد كانت كلها سرية ومنتقنة الوضع والتخطيط.

وآثارت هذه الشكوك - فيما بعد - فضول رجال الصحافة الغربيين وفئات من الطلبة فقاموا بإجراء مقابلات مع من كان لهم ضلع في العملية كما قاموا بفحص الوثائق التي لها صلة بالموضوع. وكانت نتيجة ذلك أن اعترفوا بصحة شكوك الساسة السوريين ودقتها.. بيد أن الانقلاب حافظ على صبغة سورية محضة أمام أنظار العالم الخارجي إلى أن بدأت الروائح تفوح منه وأخذت الألسن تتناقل وأن حسني الزعيم ليس أكثر من مجرد صبي من صبيان الأمريكان.

ظن بعض أعضاء البعثة في دمشق أن الباب قد فتح على مصراعيه أمام السلم والتقدم نتيجة نجاح انقلاب الزعيم. لقد كان حسني الزعيم رجلاً لنا سهل الانقياد قبل الانقلاب ولم يخطر ببالنا أن هذه الصفات الشخصية قد تتغير بعد تغيير الأحوال والأزمان. وحتى تاريخ صدور الاعتراف الرسمي الأمريكي بنظام الحكم الجديد في سوريا لم يبد أي تغيير يذكر على طبيعة سلوك حسني الزعيم. وفي اليوم الثاني للانقلاب أمضى الميجر ميد ساعات طويلة مع حسني الزعيم وهو يحدد له أسماء أولئك الذين يجدر أن يكونوا في مناصب دبلوماسية ومن يجدر به أن يكون سفيراً وما هي وجبات الطعام التي يجب أن تقدم إلى الرئيس القوتلي في سجنه حتى لا تلهب القرحة في معدته.

وما أن أذيع الاعتراف الأمريكي بنظام الحكم الجديد حتى بدا حسني الزعيم وكأنه رجل جديد لا يمت إلى الماضي بصلة. فقد أبلغني الميجر ميد في أحد الأيام فجأة أن علينا أن نتمثل له قايماً كلما دخل القاعة وأنه من الضروري تبديل كلمة أنت بكلمة وأنتم في سياق خطابنا له (وكان يتكلم الفرنسية) بل ويستحسن استبدالها بكلمة:

صاحب الفخامة.. وباستثناء هذه الأمور الثانوية فلقد بقيت علاقاتنا معه ودية لآخر أيامه. الا أنه بدأ يتضح لنا أننا قد أغفلنا أمرا ضروريا جدا عند رسم خططنا وأن الوقت قد حان لبدء البحث عن رجل آخر يحل محل حسني الزعيم الذي لا محالة قد اقترب من نهايته.

لقد أكدت حادثة حسني الزعيم لكل من اهتم بدراستها أن عمالة أي حاكم لدولة عظمى - حتى ولو كانت من أقوى دول العالم - لا تكفي لضمان بقائه في الحكم واستمراره في السلطة وليس هناك أي سحر أو فن في تقرير هذه الحقيقة فما كانت ميكانيكية قيادته لتتطوي على أية براعة أو حسن صنعة مع إصراره على طريقته وتشبثه بها.

فلم تتح له فرصة ليلم بالنظرية الحديثة لفن القيادة كما أنه لم يقتنع أن مهمة الحاكم الرئيسية هي أن يضع مرؤوسيه في ظروف لا يجدون فيها مهربا من تأييده واتباع توجيهاته.

لقد أمضى حسني الزعيم فترة طويلة من حياته في ظل ظروف عسكرية مشابهة للظروف التي تمر بها البلاد يومها ولهذا فقد اعتاد على حياة تنفيذ الأوامر دون اعتراض. لقد عامل مرؤوسيه وحتى أتباعه من كبار الضباط الذين كانوا الدعامة الرئيسية لحكمه بنفس الطريقة العسكرية التي نشأ بها. وما لبثت بعد شهور أن بانث الحقيقة المؤلمة وهي أن حسني الزعيم أصبح لا يمثل أكثر من نفسه سواء في علاقاته مع مناصريه من الأمريكيين أو في طبيعة معاملته للشعب السوري.

وفي صبيحة الرابع عشر من شهر آب (أغسطس ١٩٤٩) قامت مجموعة من أصدقائه الضباط بقيادة سامي الحناوي اسما وأديب الشيشكلي فعلا بمحاصرة بيته وقتله ثم دفنه في المقبرة الفرنسية. ولقد أخبرني الشيشكلي بعدها أنه كان لبقا معنا إذ عامل حسني الزعيم على أساس أنه عميل فرنسي وليس عميلا أمريكيا.

وبعد أربعة أشهر تماما قام الشيشكلي بدوره باعتقال سامي الحناوي وبدأ بإدارة البلاد من خلال واجهات مدنية متعددة حتى تشرين الثاني نوفمبر ١٩٥١ عندما ظهر على أنه رجل سوريا القوي.

وبقي الشيشكلي في سدة الحكم حتى شباط (فبراير) ١٩٥٤ حيث غادر البلاد هرباً من وجه أحد الانقلابات العسكرية العديدة التي تعاقبت على سوريا منذ ذلك الوقت حتى أضحى من الصعب على المرء أن يبقى متابعاً للأحداث ويعرف من يمسك بيده مقاليد الأمور مهما كانت معرفته بالسوريين قوية وخبرته بهم واسعة.

لقد أمسك حسني الزعيم بمقاله السلطة ولم يدم حكمه أكثر من أربعة أشهر كما يمسك رئيس عصاة بمقاله السلطة داخل عصابته. ولقد أضاعها لنفس السبب الذي يفقد رئيس العصاة سلطته. فأفراد العصاة يطيحون برئيسهم عندما يبدأ الشك يتسرب الى نفوسهم أن رئيسهم قد غدر بهم وخذلهم.

ولم يستمر حكم خلفاء حسني الزعيم لمدة أطول إلا لأنهم كانوا أكثر مهارة في حفظ توازنهم وهم يسرون على حبل البهلوان المشدود.

فقد كانوا يلتمسون الاعذار لأنفسهم فيما كان يثار ضدهم من شكوك وظنون. ولم يتخرجوا أحياناً من إغفار صدور ضباطهم ضد بعضهم البعض بغية تأخير اتفاقهم ضد الذين في السلطة.

ولم يتعد التقارب بين بعض السياسيين والعسكريين شكل زواج مصلحة الذي يعقد طمعاً في مغامرات سياسية واقتصادية مشتركة بينهم.

وكان السياسيون بدورهم يتظاهرون بتعاطفهم مع الأمة بأسرها وباعتمادهم على تأييد الشعب لهم لاشتراكهم وإياه بعقائد سياسية واحدة (لا تمت حقيقة بأي صلة الى مفاهيم الأمة ودينها وتراثها التاريخي).

وما كان ذلك إلا بقصد الدعاية ليجتأروا أنفسهم بهالة من الشعبية والقدسية. وهكذا فلم يكن السياسيون في سوريا أكثر من مجرد تبع للعسكريين. فهم يظهرون على المسرح عندما يظهر العسكريون. فلم يكن بقاؤهم في السلطة في يوم من الأيام رهن قوتهم الذاتية أو تأييد الشعب لهم وإنما كان لسرعة تلونهم واستمرار تذبذبهم. ومن الطبيعي أن نظاماً قاسياً من هذا النوع:

(١) لا يمكنه أبداً أن يحافظ على بقائه واستمراره

(٢) ولن يكون في صالح تقدم البلاد وازدهارها.

(٣) وسيكون مدعاة لقيام: لعبة أمم متسمة بطابع الفوضى والغموض.

إلا انه لن يتمكن في مثل هذا الخضم من إحراز أي نصر على أعدائه إطلاقاً. كما أن بقية اللاعبين في. لعبة الامم لن يشعروا بارتياح وهم يؤدون أدوارهم حول طاولة اللعبة لاستمرار قيام احتمالية تمرد أحد اللاعبين وان كان من الذين اعتادوا الخسارة دائماً.

** إن الشرط اللازم لبقاء أي حاكم أو مجموعة حكام مثل: حكومة الأقلية. في السلطة في سوريا، واستمرار تقدمه في مجال البناء والاصلاح هو أن يظهر بمظهر يستحيل القول معه أنه صنيعة لنا وأن يتصرف بطريقة لا تظهر أي انسجام مع أذواقنا وميولنا.

وباختصار فإن مساندتنا لأي زعيم للوصول إلى سدة الحكم والبقاء هناك حتى يحقق لنا بعض المصالح التي نريدها لا بد أن ترتطم بالحقيقة القاسية وهي أنه لا بد له من توجيه بعض الإساءات لنا حتى يتمكن من المحافظة على السلطة ويضمن استمرارها. كما أن هيكل النظام السياسي الذي يتبع ذاك الحاكم لا بد أن يكون طبيعياً وفطرياً وغير مصطنع وبالتالي يجب أن يتضمن بعض العناصر التي تضمن عداء لمصالحنا. وهذه نقطة رئيسية في كتابي هذا. فلقد قصدت من خلاله توضيح استراتيجيتنا في لعبة الامم التي نتبعها مع غير العالم الغربي. إننا نقبل انتساب عدد من اللاعبين ونرحب بجلوسهم معنا إلى طاولة اللعب دون أن يكون سلوكهم كما نحب ونهوى تماماً. إلا أننا نعتقد أنه بإمكاننا أن نفوز عليهم بمجرد اتباع طرق وألاعيب خاصة، ولكنها تختلف كل الاختلاف عن تلك التي نتبعها في لعبة الصراع مع خصومنا كالسوفييت والصينيين أو عن تلك التي نتبعها في لعبة التعاون مع أصدقائنا.

فشل في سوريا وأمل في مصر

١٩٥١ - ١٩٥٢

«لن تكسب الحرب بالأيتام وحدهم حتى يسود على الجمهور أعرفهم»

كان لفشل تجربتنا في سوريا أثر كبير على العديد من تصرفاتنا. فقد أثرت الانسحاب مؤقتا من مسرح الشرق الاوسط، وفضلنا الانتظار ريثما يتضح لنا الطريق أكثر فأكثر.

وخلال الفترة التي امتدت لغاية ١٩٥٢ كان موظفو وزارة الخارجية منهمكين في العثور على أفكار أنضج وطرق أفضل. لضم أحد الحكام العرب الى طاولة اللعب. وفيما عدا قيامنا ببعض أعمال الجاسوسية المحدودة والتدخلات الروتينية في الانتخابات البرلمانية فقد حافظنا على عهودنا والتزمنا بشعاراتنا طوال تلك المدة فلم نتدخل في الشؤون الداخلية لأية أمه ذات سيادة.

ولا أزال أذكر جيدا ما صرح به أحد كبار موظفي وزارة الخارجية بعد الانتخابات السورية في ١٩٤٧ وأمام مجموعة من المسؤولين الذين انتدبوا لمهمات رسمية في الشرق الاوسط اذ قال: «إن أهدافنا في تلك المنطقة لا تتعدى إيجاد ظروف ملائمة تتوفر فيها حرية تقرير المصير لشعوبها من غير أن يكون لاي كان ضغط عليها أو تأثير»

وبقي هذا الاعتقاد سائدا رغم الأدلة المتزايدة ضده، وكان غالبية مسؤولي وزارة الخارجية يعتقدون أن نتيجة أية انتخابات حرة في المنطقة. ستكون ظهور قادة مفكرين لا يتلكؤون في التعاون مع العالم الحر، وحتى العرب الذين هم أكثر شعوب المنطقة طيشا سياسيا وأمهرهم في فوضى الحكم كان بإمكانهم أن يقرروا مصيرهم بأنفسهم إذا ما أتيح لهم ذلك من خلال ممارسة الشعائر الديمقراطية كما نفهمها نحن في الغرب - وأزيحت عنهم الضغوط الاجنبية والتأثيرات الخارجية.

وعلى الرغم من تعلق وزير الخارجية دين اتشيسون الظاهري بالدبلوماسية التقليدية الا انه لم ينجب شغفه بدبلوماسية ما وراء الكواليس في مجالسه الخاصة. بل ولقد دفعه اهتمامه بذلك لأن يطلب من وكالة المخابرات المركزية إعارته كيرميت روزفلت

ليرأس - وبسرية تامة- لجنة ضمت نخبة من الأخصائيين بالشؤون السياسية في كل من وزارة الخارجية ووزارة الدفاع كما ضمت أيضا مستشارين من قطاع الأعمال التجارية والجامعات الأمريكية.

ولم يكن لأحد منهم صلة بوكالة المخابرات المركزية سوى كيرميت روزفلت نفسه. وأوكلت إلى هذه اللجنة مهمة دراسة شؤون العالم العربي عامة والنزاع العربي الإسرائيلي خاصة وأن تقوم بنفس الوقت بتحديد المشاكل والصعوبات وترتيبها تبعا لأهميتها لاقتراح حلول لها من أية طبيعة كانت سواء تعارضت مع مفاهيم حكومتنا وقتئذ في احترام سيادة الشعوب وعدم التدخل في شؤونها الداخلية أم لا.

وخلال شهر واحد تقريبا كانت لدينا عدة حلول ومخططات جاهزة للتداول والتنفيذ، ولكن لم يكن أي منها يتلاءم والأعراف السلمية المتبعة يومئذ.

ولا أزال أذكر أنه كان من بينها فكرة تحريك الشعور الديني للوقوف في وجه المد الشيوعي. ولكننا أدركنا بعد الخطوة الأولى أن الفكرة غير مضمونة النتائج. فأبى بعث لأمثال هذه الأفكار والمشاعر لا يعني سوى الكشف عن سلاح ذي حدين يقف في وجه المد الشيوعي والمصالح الغربية في آن واحد. وهذا ما دفعنا بعد سنوات الى تطبيق دعوة الملك فيصل لبعث الشعور الديني.

كما كانت هناك مخططات أخرى تعرفنا من خلال دراستنا لها على ما يحوز على موافقة العرب وعلى ما يرفضون. ولكن لم تكن هناك أية محاولة لتبني حلولاً مثل حل حسنى الزعيم.

وفي أوائل عام ١٩٥٢ أنهت لجنة الاختصاصيين وصف الحالة في الشرق الاوسط وحددت امكانيات - لعبة الأمم- آخذة بعين الاعتبار خبراتنا السابقة، وطاقاتنا الحالية ومواقف كل من أعدائنا وأصدقائنا والمحايدين. وفي مخططاتنا لم نخرج عن أهدافنا المألوفة. ومع أننا قد قتلنا القضية بحثاً ودرسا فقد كدنا نبدأ من منطلقات خاطئة، ولكن شاءت الأقدار ألا يكون ذلك وكان قرارنا الأخير أن تكون في مصر أولى خطواتنا الجديدة.

وكان لهذا عدة أسباب عامة. فقد وهبت الطبيعة مصر مكانا يجعل أي تأثير فيها لا ينحصر داخل أرجائها، بل يمتد وينعكس في جميع الأقطار العربية الأخرى.. ومن الوجهة التنفيذية فقد كان اعتقادنا أن الخطة مضمونة النجاح لا لطبيعة الشعب ومفاهيمه السياسية فحسب، بل لأننا كنا نمتلك جهازا تنفيذيا ذا كفاءة عالية ودراية واسعة بالدولة المصرية. ومن جملة أفراده كيرميت روزفلت الشهير.

وكانت دراستنا للمجتمع المصري تفرض علينا مسلكين لا ثالث لهما. أولهما: أن نستعرض عددا من المرشحين لأن يكونوا زعماء وطنيين مثاليين لبلد عربي وننتقي منهم واحدا ذا مواهب خلاقة وحصافة فائقة يستطيع أن يظهر أنه الحاكم الفعلي ولكنه في الحقيقة ليس أكثر من واجهة لحاكم قوي. بينما نبقي نحن وراء الكواليس.

وبنفس الوقت يتم اختيار صفوة منتقاة من كبار شخصيات بلد ذلك الحاكم لتكون طرفا في كل ما ننوي انجازه. فلها ستقدم الاقتراحات ومعها ستناقش الاجراءات وستجري المساومات، ولكن عليها أخيرا أن تنصاع لترتيباتنا النهائية التي نخفيها عادة وراء مساعدات اقتصادية وعهود نقطعها على أنفسنا بأن نتركها تسرح وتمرح في السلطة وتتخذ من الإجراءات ما يحلو لها لتضمن بقاءها في الحكم.

ونعدها أيضا بأن نستبدل ضغطنا عليها باقتراحات تتضمن وجهات نظرنا في طريقة إدارة البلاد وحفظ أمنها. بعد استلامها مقاليد الأمور.

وفي المسلك الثاني: كان علينا أن نواجه بشجاعة وحنكة حقائق ووقائع عديدة تتعلق بفرن السلطة السياسية. ولقد تطرق إلى هذا كثير من فلاسفة علم السياسة المشهورين ابتداء من برتراند رسل وانتهاء بجيمس بورنهام الذي عمل مع كيرميت روزفلت سنة ١٩٥٣ وكانت هذه الوقائع تتلخص كما يلي:

١ - لقد كنا بحاجة إلى حاكم عربي يجمع بكلتا يديه سلطات تفوق كل ما تيسر لحاكم عربي آخر من قبل.. سلطات تمكنه من اتخاذ قرارات تنفر منها الشعوب وتأبأها. وكان علينا أن ننشد ضالتنا في رجل متعطش إلى تسلم السلطة لا يدفعه إليها إلا حب مطلق وشغف فريد بها.

وقد ثار جدل في وزارة الخارجية حول هذه النقطة بالذات واستدل بعضهم أنها كانت سبب انهيار حكم حسني الزعيم. ولكن دراسة نفسية مجردة لسلوكه أظهرت أنه لم يكن. مجنون سلطة إلى الحد المطلوب أو أنه عشقها لأسباب خاطئة وأغراض زائفة. فقد كان يرضى بالمظاهر الخارجية، وما كان ليقلقه أن يبقى تابعا لنا ودائرا في فلك الولايات المتحدة الأمريكية طالما كنا نتمثل له قايما كلما دخل علينا ونخاطبه بلفظ صاحب الفخامة.. وكان مبتغانا أن ندفع إلى سدة الرئاسة حاكما أكثر شغفا بالسلطة. ولكن باتزان وإدراك كاملين لأبعادها. ومتى تم لنا ذلك فليس لنا بعدها أي حق في التذمر والشكوى مهما كانت النتائج. وإن كنا نفتعل هذا أحيانا لأسباب تكتيكية محضه.

٢- وكنا بحاجة إلى رجل يقاسم أتباعه انتصاراته. وقد اعتبر برتراند رسل هذه نتيجة منطقية لمقدمات مهمة وهي شعور الطبقة الحاكمة أنهم يؤيدون رئيسهم برغبتهم وأنهم يمارسون القيادة الجماعية. انتصار أحدهم هو انتصار لهم جميعا. ولم تكن دراسة أوضاع زعيم المستقبل تفي بالغرض لوحدها. بل كان يلزم إلى جانبها دراسة وافية عن أوضاع كل رجال الصف الأول (الصفوة) الذين يلونه مباشرة وكذلك الصف الثاني، والقاعدة أو الصف الثالث. وهؤلاء كلهم سيؤلفون وحدة متفقة الأهداف موحدة الغايات والنيات.

٣- كان علينا الاعتراف بعدم نجاح أي حاكم في قيادة أحد الشعوب العربية ما لم يتمكن من توحيد هذا الشعب للوقوف صفا واحدا ضد الأخطار التي تهدده فأسلوب [يجب أن أعرف وجهة الغوغاء لاني أنا رئيسها] لم تعد مرغوبة منا. فللمصريين تاريخ طويل امتد قرونا عديدة تسلط عليهم فيه قيادات أجنبية وفاسدة ولكنها كلها لم تحظ بثقتهم أبدا.

وينطبق على هذا الجزء من العالم قول برتراند رسل [إن الخطر الذي يهدد الجميع هو السبيل الأسهل لتحقيق التجانس بين الجميع].... وكان قادة العرب يستغلون فكرة الخوف من اسرائيل ليقوا شعوبهم في شبه وحدة وطنية.

ولم يكن أماننا مفر من استغلال الشعارات ذاتها في مصر شريطة أن لا نفقد زمام الموقف فتؤدي إثارة هذا الشعور إلى عواقب وخيمة. وعلى كل حال فاحتمال وقوع هذا الخطأ ضئيل جدا لبشاعة هزيمة الجيش المصري على أيدي الاسرائيليين سنة ١٩٤٨ بالإضافة إلى فقدان الأمل في تبني أي زعيم بنجاح ما لم يعتمد إلى هذه الشعارات فيطرحها للجماهير لتتلهى بها سنوات طويلة.

وهكذا طفقنا نبحث عن زعيم من النوع الثاني - الذي يكون الحاكم فيه مجنون سلطة ولكن بادراك واتزان - وعند اليأس كنا نعاود البحث عن حاكم من النوع الأول - أي زعيم الواجهة -.

ورحل كيرميت روزفلت في شباط فبراير ١٩٥٢ الى مصر كي يشرف على تنفيذ المخطط الأول عن كذب. وكانت بعثته أول من حاول تنظيم ثورة سلمية في مصر. تحت قيادة الملك فاروق نفسه يصفى فيها النظام القديم ويشرف على إبداله بنظام جديد مطوقا بذلك محاولات الثورة المتكررة ضده. والتي كانت وكالة المخابرات المركزية على صلة بها قبل أكثر من سنتين. وكان روزفلت مفوضا بأن ينتقل إلى المخطط الثاني إذا واجهته صعاب في إخراج المخطط الأول الى حيز الوجود.. ولم يكن المخطط الثاني يعني سوى البحث عن زعيم من النوع الثاني وهو: مجنون السلطة أو زعيم من النوع الأول (الواجهة) أو الاثنين معا إن أمكن ذلك.

و كيرميت روزفلت - حفيد الرئيس الراحل تيودور روزفلت - مشهور برباطة جأشه وشجاعته في الملمات. فهو من النوع الذي يستهوي أفئدة الشرقيين ويتمتع بميزة فريدة ألا وهي القدرة على دعم كل من الحكام التقليديين والثوريين معا.

وكان مولعا بالمغامرات وقد دفعه ولعه هذا إلى الالتحاق بوكالة المخابرات المركزية التي خيبت آماله فيما بعد. إذ وجد فيها كثيرا من التقيد لأحلامه. ولم يزل برئيسه الجنرال بيديل سميت حتى وافق على انتدابه إلى وزارة الخارجية وعمل كمبعوث خاص للوزير دالس لتنفيذ مهمات غير عادية كعملية أجاكس التي وقعت في آب (أغسطس) ١٩٥٣. عندما قاد روزفلت أنصار الشاه في إيران، في مظاهرات صاحبة ضد الدكتور

مصدق وتخلص من حكمه وعاد الشاه من منفاه في روما إلى عرشه في طهران. وكان تنظيم الثورة السلمية في مصر ١٩٥١-١٩٥٢ أولى مهمات روزفلت الشهير هذا. كان الملك فاروق معجبا بروزفلت منذ أيام الحرب العالمية الثانية عندما كان البريطانيون يضغطون عليه بالسلاح للتخلص من العناصر المؤيدة للمحور واستبدالها بوجوه تختارها بريطانيا.

وقد وقف روزفلت إبان تلك الأزمة إلى جانب الملك وتوقع له نظاما مستقلا ذا سيادة بعد انتهاء الحرب الثانية وسيكون الملك أول حاكم مستقل منذ ألفي عام. ولذلك فقد استقبل الملك فاروق المستر روزفلت استقبالا حارا عندما عاد إلى القاهرة سنة ١٩٥٢، ولكن الملك لم يكن من ذلك النوع من الرجال الذين كان روزفلت يبحث عنهم فقد كان الملك فاقدا القدرة على تركيز أفكاره. وكم من جلسة أبدى فيها تفهما عميقا لما يدور في مملكته ووافق على اتخاذ بعض الإجراءات الأساسية في خطة روزفلت.

ولكن كان في اليوم التالي يخنفي عن الانظار مفضلا ممارسة هوايته في العريضة والجنس وضاربا عرض الحائط بكل ما اتفق عليه في اليوم السابق. ولا يتحرج في الأسبوع التالي من اتخاذ إجراء ينسف خطة روزفلت برمتها.

وقد أمضى روزفلت في القاهرة الشهرين الأولين من سنة ١٩٥٢ مع الملك يلهوان بتنفيذ مخطط الثورة السلمية وذلك بأن دفعا رجلي الحكم القويين: مرتضى المراغي، وزكي عبد المتعال لخلق أزمة وزارية. بينما أوعز الملك إلى البوليس السري لجمع الأدلة والوثائق ضدتهما ليثبت - حين تحين الفرصة - أنهما عميلين للمخابرات الأمريكية.

ثم قام الملك بتكليف نجيب الهلالي ذو الشهرة الواسعة والسمعة الجيدة في مصر ليتولى مهام رئاسة الوزراء. ولكن الملك لم يستدعه بلباقة كافية مما جعل الهلالي يرفض تسلم رئاسة الوزارة حتى اتصل به روزفلت وأسر له أنه لم يتسلم رئاسة الوزارة ويقوم بتطهير جهاز الدولة من المرتشين والفاستدين ويكون رائدا للثورة السلمية فإن الثورة لن تبقى سلمية أبدا.

ولذلك فقد قام الهلالي بإبعاد المسؤولين عن الفساد والفوضى في الحكومة واستبدلها بآخرين أكثر لصوصية، ولكنهم من أنصاره. فكانت النتيجة أن اضطر روزفلت في أيار مايو ١٩٥٢ أن يرفع يديه مستسلما وموافقا على أن الجيش وحده هو القادر على مواجهة الموقف المتدهور في مصر، وعلى إقامة حكم يستطيع الغرب أن يقيم معه علاقات ود وتفاهم.

وكان «كافري» أيضا يعرف مصر جيدا فهو أقدم سفير في السلك الدبلوماسي للولايات المتحدة. ولم يبق بعيدا عن مجرى الحوادث، بل كانت له وسائله الخاصة التي تختلف كليا عن وسائل بقية أفراد السفارة. فقد اعتمد على بعض الأمريكيين من أصدقائه خارج سلك السفارة كما اعتمد على أحسن اثنين من رجاله وهما: الملحق العسكري المساعد العميد دافيد ايفان والمسؤول السياسي وليام ليكلاند. أما بقية أفراد السفارة فقد كانوا يعتبرون القاهرة والاسكندرية أماكن نزهة مريحة للطبقة الارستقراطية وللسلك الدبلوماسي، ولكن ليس لهما أي مستقبل سياسي بسبب تدهور الأوضاع إلى حد اليأس.

وقد اضطر كافري في أحد المرات أن يلفت نظر أفراد سفارته الى الكف عن استعمال بعض الألفاظ النابية بوصف المجتمع المصري بها، ومع أن كافري نفسه يرى أن السياسيين القدامى هم وحدهم الفئة الأليفة التي يجدر بها أن تحضر حفلات الكوكتيل الدبلوماسية.

وفي خضم مثل هذه الأحداث لم يكن ليدرك مدى أهمية الدور الذي سيلعبه الجيش المصري ويعيره انتباها كافيا إلا كافري نفسه وبعض المقربين منه.

ولقد كره روزفلت الانقلابات العسكرية وخصوصا ما شاهد بأمر عينه الفوضى التي آلت إليها الأوضاع في سوريا. ولكن كان كرهه هذا قبل اجتماعه ببعض الضباط الذين أشارت إليهم وكالة المخابرات المركزية على أنهم القادة المحتملون لتنظيم الضباط الأحرار الذين يزمعون القيام بانقلاب عسكري.

وقد حصل هذا في آذار (مارس) ١٩٥٢ قبل أن يقوم عبد الناصر بانقلابه بأربعة أشهر. وعندما علم عبد الناصر بمعرفه وكالة المخابرات المركزية بتنظيمه وافق على

التقرب منها وأرسل بعض ضباط التنظيم من المرتبة الثانية للالتقاء بروزفلت في البداية. ولكن في الاجتماع الثالث أوفد عبد الناصر أحد أكثر ضباطه ثقة وأمانة كمبعوث شخصي له. ويومها توصل الضابط إلى اتفاق رائع مع روزفلت جدير بالاهتمام والانتباه وتم الاتفاق فوراً على ثلاث نقاط جوهرية:

الأولى منها نصت على عدم إمكانية جماهير شعب ما القيام بثورة تطيح بالنظام القائم بدافع من سوء الاحوال الاقتصادية. ولقد بذل روزفلت قصارى جهده لإقناع وزارة الخارجية الأمريكية بذلك داعماً رأيه بشواهد من كتاب كرين برينبتون حول: تشريح الثورة وأن العوامل الاقتصادية لم تشكل في يوم من الأيام قوة دفع رئيسية للثورات الكبرى في التاريخ. وأن حكومة الولايات المتحدة لا يمكنها التخلص من نظام حكم قائم بمنع القذح عنه. ولقد استفاد عبد الناصر من هذا الرأي فيما بعد. عندما هاجم الولايات المتحدة بعد سنوات من انقلابه لأنها أوقفت شحن القمح لمصر واتهمها بتجويع شعبه وألقى على كاهلها مسؤولية تردي الأوضاع الداخلية وبرا نفسه منها.

وكانت النقطة الثانية تؤكد عدم إمكانية جماهير الشعب المصري القيام بأية ثورة ضد أي نظام قائم مهما ساءت الظروف وتردت الأوضاع. وكان في مصر يومها حركتان ثوريتان هما: حركة الإخوان المسلمين والحزب الشيوعي المصري. وكل منهما يعتقد أن الشعب المصري بكل طبقاته الممثلة في العمال والفلاحين والمهنيين والموظفين في غليان شديد. وأن تفجير الأزمة يمكن أن تحدثه نداءات مناسبة للظروف التي تمر فيها الأمة. ولكن عبد الناصر لم يوافق على هذا الرأي، وكان اعتقاد ممثليه في الاجتماع أنه بغض النظر عن نوع حكام القطر المصري فإن احتياجات الشعب المتزايدة ستضعهم ثانية أمام التحديات الاقتصادية الملحة.

ولقد قال أحد كبار مندوبيه في أحد الاجتماعات: إن الشعب المصري لا يرغب في الحصول على الكثير وأنه أمضى آلاف من السنين على كفاف العيش وباستطاعته أن يمضي ألفاً آخر من السنين معتمداً على موارده الثانوية. كما أن الشعب المصري غير مهياً لأن يثور بسبب هذه الدوافع. وإن ثار فإنه غير راغب في عيشة جد وعمل بعدها. وسوف يبذل الضباط الأحرار قصارى جهدهم لبعث هذه المفاهيم في شعبهم ولكنهم لا

يجدون الوقت الكافي الآن. ولذلك فالجيش المصري سيقوم بالاستيلاء على السلطة في أول فرصة مناسبة تكفل له تأييدا سياسيا من سكان المدن ومن ثم بقية أنحاء البلاد. وكانت النقطة الأخيرة في الاتفاق تبحث طبيعة التعابير المتبادلة بين حكومة الولايات المتحدة والحكومة المصرية الجديدة - فإن الجزء الذي سيكشف منها للجماهير يجب أن يحتوي على شعارات للاستهلاك المحلي مثل: إعادة الحياة الديمقراطية وإقامة حكومة نزيهة حرة ولكن يجب أن يكون مفهوما بيننا وبصورة أكيدة أنه لا أصل لهذه الشعارات في حقيقة الأمر. وأن الشروط اللازمة لتطبيقها غير متوفرة على الإطلاق. ولن تتوفر إلا بعد سنوات عديدة وجهود مضنية تقوم بها الحكومة الجديدة مثل:

١ - نشر التعليم وتعميمه

٢ - التشجيع على ظهور طبقة متوسطة كبيرة ومستقرة.

٣- نشر شعور عند الجماهير بأن الحكومة الجديدة هي حكومة الشعب منه وإليه وليست حكومة مفروضة من قبل الفرنسيين أو البريطانيين أو طبقة الاقطاعيين والرأسماليين المصريين

٤- كل ما سيسود من المثل والمبادئ، يجب أن يصبغ بالصبغة المحلية الوطنية حتى لا تكون الأنظمة والمفاهيم الجديدة، محض تقليد لمثيلاهما في الولايات المتحدة أو بريطانيا. وقد تأكد لروزفلت وممثل عبد الناصر أن عامة الأمريكيين من صحفيين وموظفين وأعضاء في الكونغرس ورجال الحكم وحتى وزير الخارجية بالذات لن يكفوا بسهولة عن ترديد الشعارات القديمة وبنفس الوقت فلقد أدرك الجميع أن أية محاولة مبكرة لإعادة الحياة الديمقراطية لن تعنى سوى العودة إلى الفوضى والفساد السابقين.

فالانتخابات ستجرى بين مرشحين تدعمهم الولايات المتحدة وبريطانيا ضد مرشحين بدعمهم السوفييت. ومن أصل ٢٨ مليون مصري كان هناك حوالي ٢٤ مليونا من الفلاحين المصريين لن يدلوا بأصواتهم الا حسب تعليمات الاقطاعيين وتوجيهاتهم. وستلجأ الجماهير في المدن إلى الاضطرابات كوسيلة وحيدة للتنفيس عن آلامها والتأثير على الوضع السياسي ولن يجدوا أمامهم سوى الانضواء تحت راية الاخوان المسلمين أو الشيوعيين المتنفسين الوحيدين في ذلك الوقت لفئات الشعب.

وكانت هناك مشاكل عديدة لم تتمكن من الوصول الى اتفاق صريح حولها. ولكنها ساعدت كثيرا في الوصول إلى تفاهم مشترك حول الدوافع الأساسية وراء حركة الانقلاب المقبلة.

وقد اشتملت على الأمور التي يجب علينا أن نبحث عنها تحت المظاهر السطحية للأحداث. وكان بعض هذه المشاكل ذا أهمية لا بأس بها. إلا أن واحدة فقط تستلقت انتباهنا فوق العادة وهي قضية فلسطين. فالجماهير العربية على اختلاف فئاتها وطبقاتها تولي فكرة استرجاع فلسطين الأولوية على سائر شؤون الحياة الأخرى بصورة لا تقبل البحث في هذا الموضوع ابتداء. وعبد الناصر نفسه مع ضباطه الذين خططوا للانقلاب كانوا يعتبرون هزيمة الجيش المصري سنة ١٩٤٨ على أيدي القوات الاسرائيلية هزيمة مريرة يصعب تناسيها. وأن شعور الكراهية لإسرائيل من العناصر التي لا يمكن التغاضي عنها كمبررات لأية ثورة تقع في البلاد.

ولكن لم تمض خمس سنوات على تلك الهزيمة في فلسطين حتى كانت أحاديث الثكنات ومناقشات عبد الناصر ورفاقه مع المئات من الضباط قد انتهت الى رأي معاكس.

فقد لمسوا أن حشدتهم لموارد الدولة المصرية وطاقت شعبها سوف يساعدهم على الوصول إلى أهداف أبعد من خدمة القضية الفلسطينية. ولكنهم لن يستفتحوا فترة حكمهم بمثل هذه الشعارات التي لن تفيد الثورة إطلاقاً.

وقد أخبر عبد الناصر كيرميت روزفلت صراحة أن ضباطه لن ينسوا ذلك الإذلال الذي لاقوه على أيدي الاسرائيليين سنة ١٩٤٨. إلا أن نقيمتهم ستنصب بالدرجة الأولى على كبار ضباط الجيش المصري ثم على بقية حكام العرب والبريطانيين، وأخيراً على الإسرائيليين.

ولقد توصل روزفلت الى نفس النتيجة من خلال محادثاته مع الزعماء المدنيين في مصر ومن منهم فاروق نفسه. وكان السفير كافري قد حصل بدوره على نتائج مشابهة.

وبعد كل ذلك الاستعراض لجميع النواحي وصلنا إلى مسألة أكبر حساسية ودقة ألا وهي مشكلة القومية العربية. فلم يكن لدي أي من المسؤولين المصريين يومها سواء من العسكريين أم من المدنيين أي مفهوم واضح حول والعروبة والعرب.

وكان أول المبادئ المتبعة في صناعة الانقلابات في أي بلد عربي هي أن ترفع شعارات وطنية إقليمية فمصر للمصريين وسوريا للسوريين، والعراق للعراقيين. وكل الكلام عن الأخوة العربية وشعار كلنا عرب لم يكن ليتعدى الحدود العاطفية الضيقة ولم يكن له أي اعتبار في ميزان القوى لأي انقلاب عسكري ويبقى الولاء للانقلاب هو المقياس الرئيسي لنجاحه وفشله.

ولقد انطبق هذا الوضع تماما على المصريين عامة وعبد الناصر خاصة. فعندما قام بانقلابه لم يكن يعرف إلا القليل عن العرب، بل ولم يكن يشعر أنه عربي. وكذلك لم يكن قد زار أي قطر عربي أو واجه أي شعب عربي. ولكنه أصبح زعيما عربيا بعد أن دخلت كلمة عرب القاموس السياسي لشعوب المنطقة. ولم تفلح معرفته المحدودة وقتئذ بالعرب في تحريك محبته لهم. ولم تساعد زيارته لبعض الدول العربية منذ سنة ١٩٥٢ على اكتساب أية خبرة جديدة في هذا المجال وإنما أكدت له شكوكه السابقة بالعرب.

فقد بقي العراقيون في نظره متوحشين واللبنانيون مرتشين فاسدين ولم تكن بيروت في نظره أكثر من ناد ليلي مترامي الأطراف، والسعوديون قذرين، واليمنيون أغبياء متخلفين والسوريون مخادعين لا يقدرון المسؤولية ولا يثقون بغيرهم.

ولكن عبد الناصر بالتأكيد ينكر الآن جميع مواقفه وآرائه تلك بل وعلى العكس فهو يعتقد أن في العالم حقيقة ملموسة هي «العالم العربي» وبدأ هذا بعد عودته من مؤتمر باندونغ.

كما أنه يتمتع بشعبية لا بأس بها في أوساط السوريين واللبنانيين والليبيين والأردنيين الذين سيطرت على مشاعرهم فكرة الوحدة والعروبة وتجاوزت نزعاتهم الإقليمية بعد تخلصهم من أنظمتهم الفاسدة ومن الجدير بالذكر أن رفاق عبد الناصر الذين ساعدوه في الوصول إلى السلطة ويعود لهم الفضل في بقائه فيها حتى الآن.. لا

يشاطرونه رأيه ولا وقد يسايرونه في مواقفه العربية إلا ضمن حدود المصالح المصرية المحضة.

وقد كانت النزاعات المصرية العربية تعكس نوعا خاصا من التصورات داخل قصور السياسة المصريين، ساعدت على تأمين توازن مستمر بين الأزمات الداخلية والانتصارات الخارجية. على أن عبد الناصر نفسه سرعان ما يصبح أكثر تعصبا لمصريته وأقل حماسا لعروبه كلما نشبت الأزمات داخل مصر. وأما في تخطيطه لاستراتيجيته السياسية فلا يتردد في وضع المصالح المصرية فوق غيرها معتبرا مصالح العرب كلهم تبعا لمصالح مصر.

ولقد أتيت على ذكر هاتين النقطتين: عدم أهمية موضوع تحرير فلسطين وعدم قيام أية علاقة بين القومية العربية ودوافع الثورة المصرية بسبب ما أثارتا من سوء تفاهم أدى إلى تعكير صفو علاقاتنا معه وارتكابنا أخطاء فادحة معه ومع الزعماء العرب الذين لهم نفس الأهداف والغايات.

وقد احتل موضوع عدم رضى المصريين عن وضع البريطانيين في مصر وسخطهم عليه جانبا مهما من الأحاديث التي دارت بين الضباط الاحرار ومندوب وكالة المخابرات المركزية كرميت روزفلت ولكن لم تكن النظرة ذاتها تجاه بعض الشخصيات أو التقاليد البريطانية التي كانت تستحوذ على اعجاب المصريين والضباط الاحرار. ولا أزال أذكر استهزاء عبد الناصر ببزة أمريكية أهديتها له ووصفها بأنها مدعاة للضحك. فسألته أية البزات تفضل؟ فأجاب: البريطانية طبعاً.

وعندما عاد روزفلت الى واشنطن - قبل شهرين من وقوع الانقلاب في مصر - قدم تقريراً إلى وزير الخارجية الأمريكية دين اتشيسون تضمن النقاط التالية:

١ - لم تعد الثورة الشعبية التي كان يسعى إليها كل من الاخوان المسلمين والشيوعيين - وتخشاها وزارة الخارجية الأمريكية - واردة في الحساب.

٢ - لم يعد هناك أي أمل في إبعاد الجيش عن القيام بانقلاب قريب وإثناؤه عن عزمه على استلام السلطة رغم كل التحفظات التي كان يبديها واضعو مخططاتنا في واشنطن من أن تكون النتائج مشابهة لما جرى في سوريا على أيدي العسكريين.

٣- أن قادة الانقلاب المحتمل يرفعون شعارات قياسية تخالف ما اقترحه كثير من المراقبين الدبلوماسيين وتجعل منهم -وهم في السلطة- طرفا لنا ومرنا في أية مفاوضات نخوضها معهم كما أنها تزيد من فرصتهم في النجاح

٤ - يجب أن توافق الحكومة الأمريكية على إقصاء الملك فاروق وربما دفن النظام الملكي نهائيا في مصر. ولا يمنع هذا من اتباع بعض الشكليات الدبلوماسية وإرسال مذكرة احتجاج رقيقة تفسح المجال آمال السفير كافري لإظهار قلقه المصطنع على سلامة الملك فاروق.

٥ - على الحكومة الأمريكية أن لا تفكر على الإطلاق ببذل أية محاولة بعد وقوع الانقلاب لإقناع العسكريين بإعادة الحياة الدستورية واجراء الانتخابات وما إلى ذلك.. وعليها أن تبني علاقاتها مع العهد الجديد على أساس أن الحياة الديمقراطية ومؤسستها يجب إعادة بنائها من جذورها.

٦ - على الرغم من الاجتماعات التآمرية العديدة التي مهدت للانقلاب فمن المستحسن أن لا يحاول أي من المسؤولين الأمريكيين أن يفكر بأن الانقلاب إنقلابا بل إنه مجرد حدث داخلي متحرر إلى حد ما من نفوذنا، وكل ما علينا أن نقدمه من مساعدة وتأييد هو عدم وقوفنا في طريقه. وأما بشأن الحاجة الى عدد يلتقي الجميع على كراهيته والخوف منه وفقا لمبادئ برتراند رسل - فان هذا العدو لن يكون إسرائيل، بل طبقة السياسيين القدماء والإقطاعيين والطبقة المروضة في مصر البريطانيين سواء رضينا بهذا أم أبيناه. -لمي.

وقد أفاض روزفلت في حديثه عن صفات الحاكم الذي سيرز على مسرح الأحداث عاجلا أم آجلا. وأول ما تم الاتفاق عليه في اللجنة التابعة لروزفلت هو الحاجة إلى حاكم يستطيع أن يضفي على نفسه صبغة القدسية والإنقاذ. ولكن الظروف السائدة في مصر وقتئذ لم تكن بحاجة لأكثر من حاكم يرفع شعارات أضيق ومفاهيم أبسط. وعلى هذا الحاكم أن يتمتع بشيء من قوة السلطة وسحر الشخصية. ليتمكن على الأقل من السيطرة على مجموعة من الرجال تتمكن مجتمعة من إدارة دفة الأمور في البلاد. وكان كل ما طلبناه متوفرا في مجموعة الضباط الاحرار.

ثم ذكر روزفلت أنه: سواء بقي الحاكم مسيطرا على زمرة صغيرة تمكنت من حكم البلاد، أم تحول إلى زعيم ذي شعبية كبيرة فإنه يبقى دون مقومات الرعامة كما نتصورها نحن الغربيين. وفي أسوأ الظروف فإن لم نحقق أي نجاح من تفاهمنا مع زعيم كهذا فلن نخسر شيئا وسيكون ذلك درسا نافعا لنا في مواجهتنا لأمثاله سواء في مصر أم في بلاد عديدة أخرى تمر في نفس الظروف وتعاني من نفس الصعوبات.

حليفنا المستقل: ناصر في الحكم

«نجاح مخططاتنا رهين بزعيم يتخذ منها أهدافا ومبادئ»

كان كيرميت روزفلت بخشى رفض لجنة المتابعة في الكونغرس لمناوراته. فعندما عاد الى واشنطن لم يفصح أمامها عن كل خفايا نشاطه في مصر فغدا تقريره لها مريحا غير مخيف. فلم يذكر فيه حقيقة الجهود التي بذلها مع غيره من المسؤولين الأميركيين حتى أمكنهم العثور على زعيم متعطش للسلطة بونابرتي الطراز: ذي قدرة على جمع شمل شعبه حول قضية ما تتوحد فيها مخاوف الأمة وآلامها.

أما تقارير روزفلت الشفوية فقد اتسمت بطابع الصراحة والوضوح. فقد أخبر المسؤولين أنه من العسير لرجل ما يتأجج فيه حب جامع للسلطة وحرص بالغ عليها أن يبقى مكتوف اليدين منتظرا أحد عملاء دبلوماسية ما وراء الكواليس الأميركيين ليلهبه حماسا ويدفعه الى تحقيق أمانيه.

وأوضح أيضا أن صفات كالتى سبق ذكرها لا يمكن تطويرها وإبرازها نتيجة بحث طويل واستقصاء شامل لمواهب وكفاءات بني الانسان وإنما هي محض فطرية وشخصية. وانتهى روزفلت إلى النتيجة أن لقاءاته في مصر أفهمته أن الجميع من قابل من الضباط علاقة وثيقة بضابط ما قد استوعب كليا شروط أي استيلاء على السلطة والحفاظة عليها. وأنه لا محالة مقدم على هذا.

ومن خلال الملاحظات والأفكار التي أرسلها روزفلت الى ذلك الضابط فقد تأكد له أن الأخير أدرك تماما مقاصدنا ومرامينا وقبل التزامنا بتسديد تكاليف تحقيقها. ونتيجة

لذلك، فإن قيام أي تفاهم متبادل وعلاقات وطيدة لم يعد أمرا عسيرا عندما يحين الوقت المناسب.

ولم تعلم الحكومة الأمريكية بوقوع الانقلاب إلا من الصحف الصادرة صباح ٢٢ يوليو (تموز) ١٩٥٢. ولكن سبق هذا سيل من المعلومات تتدفق من خلال تقارير وكالة المخابرات المركزية مشيرا إلى أن أحداثا ما ستقع في مصر بدون تحديد زمانها أو تحركاتها. وأيدت الصحافة المصرية الانقلاب الأبيض بكليتها ووقف الشعب مع رجال الثورة بدون أي أسف أو ندم على الإطاحة بالملك الخليل.

وظهر اللواء محمد نجيب وديعا أنيسا بغليونه الجذاب كأنه الأمر الناهي وإن لم يكن كذلك حقيقة. كما ظهر مساعدوه من الضباط الشبان بقاماتهم النحيلة وأجسامهم الرياضية على أنهم آمال الشعب وأحلامه في بناء كيان الدولة المصرية الحديثة.

ولم تردد الإذاعات المصرية أيا من البلاغات المثيرة أو البيانات العنيفة التي كانت ديدن الانقلابات العسكرية في سوريا وإنما اكتفت بتعريف الشعب عن عزمها على تطهير الحكومة من الفساد وإقامة حكم قادر فعال وإصلاح الأحزاب السياسية وغير ذلك. ولكن البلاغات كلها لم تتطرق البتة إلى مشكلة فلسطين أو أي ذكر الاسرائيل ولا على الاقل بكلمة واحدة.

وأما السفارة الامريكية فلم تقف على تفاصيل الانقلاب إلا من فم علي صبري أحد ضباط عبد الناصر الذي أصبح فيما بعد من أشد خصوم الأمريكيين.

وقد وقع الانقلاب في الساعة الثالثة ليلا. وفي ساعة متأخرة من صباح ذلك اليوم أرسل عبد الناصر السيد علي صبري للاجتماع رسميا بالسفير كافري وتقديم تقرير شامل له عن وقائع وأحداث ليلة الانقلاب إلى جانب تأكيد الحكومة الجديدة عن عزمها على إقامة علاقات وطيدة مع الولايات المتحدة وتلا ذلك تأكيد علي آخر من اللواء محمد نجيب - وكان يعتبر آنئذ أب الانقلاب - أن قضية فلسطين لا تعنيه في شيء.

ولكنه سرعان ما قام بزيارة السفير كافري بعد ساعات طالبا سحب ذاك التصريح واستبداله بآخر أقل تقبلا للرأي العام في الولايات المتحدة ولكنه أكثر انسجاما مع

المبادئ والأسس التي اتفقنا وعبد الناصر على أنها ضرورية وهامة لكسب الرأي العام المصري ونيل تأييده للعهد الجديد.

أما المسؤولون في واشنطن فقد غمرتهم موجة من السرور نتيجة هذا الانقلاب وأدركوا جميعاً أنه أصبح في حوزتهم على المسرح العالمي لاعب جديد من الطراز الذي بذلوا قصارى جهدهم للعثور عليه وأن كل ما سيصنعونه معا من الخطط سيحظى بنسبة عالية من التعاون المثمر واحتمالية ضئيلة من الخلاف والشجار.

كانت التقارير والتفسيرات الأولية تشير إلى أن اللواء محمد نجيب كان رأس الثورة وعلى هذا الأساس بنت الحكومة البريطانية والأمريكية علاقاتها مع العهد الجديد. ولكن سرعان ما ذاب الثلج وانتزع عبد الناصر زمام الأمور منه ولم يمض بعد أكثر من عدة شهور على الانقلاب.

والغريب ان كيرميت روزفلت قد اقتنع عندما أكد له عبد الناصر أنه ليس هو رأس الثورة مع أن وليم ليكلاند المسؤول السياسي في السفارة الأمريكية في القاهرة وبعض موظفيها قد أكدوا أن اللواء نجيب لم يكن أكثر من ستار اتخذه عبد الناصر لنفسه حتى يحين موعد ظهوره على المسرح شخصياً.

وزادت العلاقات قوة بين ليكلاند والضباط الاحرار عن طريق حسنين هيكل الذي كان صلة الوصل بينهم. وقد أصبح هيكل فيما بعد من أقرب المقربين لعبد الناصر في حين لم يكن آنئذ أكثر من محرر في صحيفة سياسية يملكها مصطفى أمين أحد أصدقاء عبد الناصر. وقد هيا هيكل الجو للعديد من المقابلات بين ليكلاند وقادة الضباط الاحرار بما فيهم عبد الناصر نفسه واعتاد ليكلاند أن يستقبلهم في شقته المطللة على النيل بترحاب واکرام زائدين.

وكانت نتيجة هذه اللقاءات أن بدأت سفارتنا في القاهرة ترسخ علاقاتها مع عبد الناصر نفسه كرجل الدولة الحقيقي والأمر الناهي بلا منازع في حين بقي الشعب يصفق للواء محمد نجيب ويهتف له في الشوارع والساحات. ولكن السفير كافري لم يقطع علاقاته الرسمية باللواء نجيب وقام بزيارات تقليدية متقطعة له ناقلاً بعض الرسائل الرسمية

من حكومته في واشنطن التي لم تنطو على أكثر من مجاملات وتقاليد دبلوماسية. في حين كانت العلاقات الحقيقية للحكومة الأمريكية مع الثورة المصرية تتم عبر الصلات الوطيدة التي نشأت بين عبد الناصر وليكلاند بفضل جهود هيكل نفسه الذي أضحي ذا دور رئيسي فيها بعد نجاحه في إلباس وجهات نظر كل من عبد الناصر والسفارة الأمريكية حلة بهية قبل نقلها إلى الطرف الآخر.

أمسك كيرميت روزفلت وأعضاء لجنته الخاصة عن الاتصال المباشر بعبدة الناصر بعد الانقلاب وقنعوا بمراقبة تطورات الأحداث في مصر بدون الانغماس فيها فقد تطورت الأمور بهدوء تام حسب الخطة المرسومة لها. وكان الكف عن الاتصال المباشر بعبد الناصر ضروري لاستبعاد أية شبهة لتواطئنا مع النظام الجديد. وكانت رغبة جميع المهتمين بشؤون الشرق الأوسط ترك الحرية كاملة لحكومة الانقلاب لمعالجة مشاكل البلاد وحلها بطريقتها الخاصة. ولم نعثر على أي مبرر للكشف عن القوى الحقيقية وراء الانقلاب وإظهار اللواء نجيب على أنه ليس أكثر من ستار ما يلبث أن يزاح

ولكن لم يكتب لهذا الوضع أن يعمر طويلا فما لبث أن تبدل في عام ١٩٥٣ بعد مجيء الرئيس ايزنهاور إلى البيت الأبيض وابداء رغبته في العودة إلى ممارسة دورنا مباشرة فيما نزمع تخطيطه وانجازه مع نظام حكم عبد الناصر. وكان الدافع الأول لهذا هو اتقان دراستنا لدور هذا اللاعب الجديد في مسرحياتنا والتأكد من تحركاته وفق توقعاتنا. وكان الدافع الثاني ضمان حصولنا بتحركاته هذه على استراتيجية نصر عند نشوب أول نزاع مع أعدائنا. وأما ثالث الدوافع فكان الاستفادة من هذا التقارب والتفاهم لتحقيق تعاون أوسع وأعمق بيننا قدر الامكان.

ومع أننا أدركنا أن مساعداتنا لعبد الناصر سوف تزيد من قوة مركزه في مسرحياتنا الدولية ولكننا لم نستبعد تحول دوره فيها إلى خصم لنا ومنازع. وكل ما بقي لنا وقتئذ هو الأمل فقط في أن نفلح في موازنة خطر خصومته لنا بزيادة طاقتنا وتوطيد عزائمتنا على أن يكون سلوكنا هذا يخدم أهداف ومصالح كلا الطرفين معا.

وبينما كان وزير الخارجية جون فوستر دالس يحزم حقائبه عشية جولة له في الشرق الأوسط في أيار مايو ١٩٥٣ أبلغ كيرميت روزفلت عن رغبته في الوقوف على نيات ومطالب رجال الثورة في مصر بعدما استتب لهم الحكم ودانت لهم قطوفه.

وانتهى الرأي إلى قيام روزفلت بانتقاء رجل عسكري من طراز ضباط الانقلاب وانتدابه لتلك المهمة. وكان اختيار روزفلت موفقا عندما انتزع من زوايا النسيان المستر ستيفن ميد، حيث كان يمضي وقته في الصين الشيوعية بمهمات كإنقاذ العلماء الالمان المعتقلين هناك والتواطؤ مع قادة العشائر الكردية على الحدود السوفييتية لأغراض تجسس على الأمور الحربية ومهمات أخرى كالتى عهدت إليه سنة ١٩٤٩ في سوريا (انقلاب حسني الزعيم) وسماها وقتئذ بالعهد الحزين.

فروزفلت ضئيل الخبرة بشؤون الضباط في الجيوش العربية الناشئة في حين أن تاريخ إنسان مليء بالمغامرات كستيفن ميد سيكون له انطباع حسن في نفوس الضباط الاحرار في مصر.

وكان روز فلت موفقا في رأيه ذاك فلم يكد يمضي على وصول ميد إلى القاهرة (وقبل زيارة دالس) أسابيع قليلة، حتى حاز على إعجاب ضباط الثورة وملك عليهم لبهم.

كان مظهر ميد شبيها كل الشبه بمظهر الأبطال في الافلام الأمريكية. فهو من رجال المظليين المتواضعين الذين انضموا إلى وكالة المخابرات المركزية الأمريكية نتيجة خطأ في جهاز الفرز الالكترونى قضى بإرساله إلى المخابرات مع احتمال نزوله بمظلة في الاراضي السوفياتية، بدلا من إرساله إلى جبهة القتال.

ويملك ميد قدرة هائلة على التقاط اللغات الاجنبية المعقدة بسهولة فائقة ومنها اللغة العربية. أما سلوكه فكان سلوك ضابط نموذجي في أي جيش من جيوش العالم وحتى في الجيش المصري. في حين كان تاريخ حياته المليء بالمغامرات يشكل مادة شيقة لأحاديث السهرة وولائم الليل.

على أن انتداب ميد آثار حفيظة عبد الناصر الذي رأى فيه أن وزير الخارجية دالس ما يزال ينظر إلى الثورة المصرية من خلال نفس المنظار الذي ينظر فيه إلى

الانقلابات العسكرية في دول أمريكا الجنوبية. وحدث مرة أن حاول أحدهم التدليل على قيمة ميد وفعاليته بذكره إحدى مناقبه أمام عبد الناصر، وهي أن ميد هو الوحيد من العرق الأبيض الذي فاز بعضوية الشرف في منظمة الماو ماو، فما كان من عبد الناصر إلا أن طرده خارج القاعة.

أما وجهة نظر الحكومة الأمريكية وراء انتداب ميد فهي تمتعه بموهبة فائقة في معرفة الناس ووزنهم وتحليل دوافعهم ونياتهم دون اقحام نفسه في مناقشة ميولهم السياسية. وبالرغم من صداقته لكثير من العسكريين في بلدان مختلفة (بما فيها صداقته لأديب الشيشكلي رئيس الجمهورية السورية) فانتدابه لم يثر أية شكوك بخصوص التأثير على اتجاهات الثورة المصرية إلى جانب أنه لم يقيم حقيقة بمثل هذه المحاولة مطلقاً.

وما لبث ميد أن سجل ملاحظات مهمة أثبت التاريخ صحتها وانطباقها ليس فقط على صفوة عبد الناصر المختارة من ضباطه الأحرار بل أيضاً على أية صفوة عسكرية في بلدان غير غربية بما في ذلك فيتنام وأفريقيا الغربية واليونان.

وبصدد حديثه عن هذه البلدان الناشئة قال روزفلت للوزير دالس مرة: «إنه يستحيل صنع ثورة بغير ثوار وأن الجماهير -على حد زعم بيان كروزيه- لا تثور بدافع سوى أحوالها المعاشية. ولكن الثورة هي التي تولد الثورة.

وبخصوص استقرار الثورة المصرية أخذ ميد يميل بعد أسابيع من لقاءاته المتكررة مع الضباط الأحرار - إلى الاعتقاد أنها لن تكون شبيهة بالانقلابات في سوريا التي كانت تفتقد ميزة الاستقرار والثبات لكثرة الثوار فيها. فالثورة المصرية من تصميم وإخراج عبد الناصر لوحده وأتباعه ينقادون له بسهولة ويسر.

وبعد مدة غير بعيدة كتب ميد إلى روزفلت يقول: إن هؤلاء الفتیان يرون أنفسهم كأفراد عصابة روبن هود المرحة وهم مسرورون بهتاف الجماهير لهم على أنهم أبطال الثورة ولكنني لم أجد واحدا منهم قادراً على شرح ما تريده هذه الثورة لي فهم لا يكثرثون للسياسة ولعل هذا من حظنا وحظ عبد الناصر معاً. انهم بحاجة إلى من يدهم إلى ما عليهم التفكير به وانجازه ولست أرى صعوبة في اعادتهم إلى ثكناتهم والاحتفاظ بهم هناك.

ولم تخل مقابلات ميد للضباط الاحرار من فترات حرجة. فقد حاولوا أن يدفعوه بعد أيام قليلة من وصوله للقاهرة إلى إقناع عبد الناصر بنصب صف طويل من أعواد المشانق أمام قصر عابدين إلى جانب سرادق خشبي يتسع لمئات المشاهدين، لتنفيذ أحكام الاعدام بأعداء الثورة.

إلا أن عبد الناصر وضع حدا لانتشار مثل هذه الافكار الهدامة عندما طلب من رجاله أن لا يتفوهوا بهذا الموضوع ثانية. غير أن بعضهم استمر في ترديد مثل هذه الأفكار إلى أن تسربت إلى الرأي العام. وكان سبب ذلك وجود خليط ضخم من الأفراد اهتموا بأنهم أعداء الثورة وباستغلالهم مناصبهم لأغراضهم الشخصية مما اضطر ضباط الثورة إلى مراقبتهم والتضييق عليهم. ومع أن الألسن بقيت تلوك مثل هذه الأفكار حتى خشي البعض من تطور الأحداث وتدهورها على غرار ما حدث في سوريا لكن ستيفن ميد ما لبث أن تحول عن مثل هذا الرأي ومال إلى اعتبار مثل هذه الوقائع شيئا عاديا في المراحل الأولى التي تلي الانقلابات والثورات فقد شهدت فرنسا مثلها عندما دخلتها قوات ديغول الحرة بعد انسحاب الألمان منها.

واستمد ميد كثيرا من آرائه حول الضباط الاحرار من خلال أحاديثه معهم حول طريقة التحاقهم بتنظيم عبد الناصر وتمكن معها من تحديد أبعاد هذا التنظيم السري الواسع، وكشف الكثير من العهود والوعود التي قطعها الأفراد على أنفسهم. ومع مرور الايام وكثرة الأحاديث واللقاءات، بدأ ميد يرسم صورة أكثر واقعية - ولكنها أقل جاذبية للعقلية الشرقية - حول ذلك التنظيم للضباط الاحرار.

فقد اتضح له أن التنظيم قد أصبح مقتصرًا على البقية الباقية من ضباط الجيش بعدما تم صرف الكثير منهم من الخدمة وتطهير صفوفه من المنتفعين الانتهازيين الذين كانوا وكأنهم خشب مسندة لهم من القادة العسكريين أشكاهم وعقولهم بريئة من الشؤون العسكرية فهما واكتراثا لطبيعة الجيش لأنهم أولاد الذوات يرثون مناصب أسلافهم العسكريين. إلا أن عبد الناصر انتقى ضباطه من العناصر الجدية والفعالة الذين شغلوا مراكز حساسة في القطاعات العسكرية.. ولم يحدث انقلابه أية فوضى أو اضطراب، بل ساعد على ترسيخ السلطة واستتباب النظام.

ولم يدع عبد الناصر انقلابه أن يحمل طابع العصيان المسلح الذي لا يهدف إلا إلى اغتصاب السلطة بل عمد إلى تسليم الإدارات المدنية إلى ضباطه المقتنعين بآرائه السياسية والمعاهدين على تنفيذها ليتيح لهم الفرصة لإصدار أوامره وتبليغ تعاليمهم من خلال هذه المؤسسات العامة.

وقد حالت رتبته الصغيرة نسبيا دون تصدره لقيادة الثورة واضطراره لدفع اللواء محمد نجيب أمامه إلى الواجهة. ولكن لم يلبث أن ملك مفاتيح الأمور كلها وانتزعها من يد اللواء نجيب عندما حان الوقت لذلك.

تابع ميد كافة تفاصيل الانقلاب بحذافيرها وعلم أنه لم يخل من مضاعفات ومتاعب شرحها عبد الناصر شخصا للجنرال كابل الذي كان يشغل نائب رئيس وكالة المخابرات المركزية.

فقد كان أحد ضباطه المكلفين بالسيطرة على مراكز الاتصالات يحضر عرضا سينمائيا مع زوجته عندما وصلته رسالة التكليف. وأوقف شرطي المرور سيارة عبد الناصر وهو في طريقه لموعد هام بسبب خلل في المصابيح الخلفية في حين لم يتعرف قائد إحدى قطعات الانقلاب على عبد الناصر بصفته رئيسا للضباط الأحرار، بل وكاد يدهسه في الشارع.

وتسربت أنباء حركته الانقلابية إلى الملك عن طريق والدته أحد ضباطه في سلك الأمن العام فقد غادر الأخير منزله في ساعة متأخرة من الليل مما أثار قلق والدته عليه فاتصلت بالشرطة للاطمئنان عليه خشية أن يكون قد ألم به مكروه، ولكن ما إن حانت ساعة الصفر حتى كانت الأجراس تقرع معلنة بدء الثورة.

وانقلبت بعض تلك الأخطاء إلى عوامل مساعدة في النجاح. فقد استفاد عبد الناصر من تأخر أحد ضباطه في قطع الاتصالات من الاتصال بالقطعات الصديقة في الأسكندرية وأصدر لها أوامره بالتأهب والتحرك. (ولا تزال هذه العقدة لغزا محيرا: فكيف كان سيتصل بالأسكندرية لو قطعت الاتصالات كلها كما كان مخططا لها)؟

وانقلبت الوحدة العسكرية التي وصلت لاعتقال عبد الناصر إلى وحده مؤازرة له في اللحظة التي حاول عبد الناصر اعتقال ضباط القيادة العامة الذين تداعوا لاتخاذ

خطوات مضادة للانقلاب بعد ابلاغهم بأنباء التحركات العسكرية من قبل والده الملك. فقد اتصلت بمراكز المخابرات والأمن العام للهدف نفسه فعملت تلك المراكز وقتئذ بالانقلاب بصورة غير مباشرة وأيدته وأخذت تبلغ عبد الناصر شيئا فشيئا عن التحركات المضادة له.

إن أمر تنظيم واعداد قطعات ووحدات عسكرية داخل جيش كبير للقيام بانقلاب عسكري ليس سهلا ويسيرا وخصوصا في التاريخ الحديث. وعبر عبد الناصر عن هذا الرأي خلال لقائه مع الجنرال كابل كما حدثه أيضا عن خطوات الإعداد التي مهدت لقيام الانقلاب ونجاحه. وكان يرى أن الفعالية التامة في العمليات العسكرية لا تكمن دائما في السرية المطلقة، ولكنه مع كل هذا تبني السرية التامة في التخطيط والإعداد بغض النظر عن عواقبها. واعتقد أنها كفيلة بإحراز النجاح إذا ما قورنت باختيار الوقت المناسب وترك الشكليات والتفاصيل لأنظمة الجيش الروتينية. أما بعض الأخطاء القاتلة التي لا بد منها فإن سرعة الاندفاع في تنفيذ الخطة وعنف صدمة المفاجأة عند تحرك الوحدات كفيل بتلافيها والقضاء عليها.

وقام ستيفن ميد بجمع شتات أحاديث تلك اللقاءات وما فيها من أفكار مبعثرة وبتدوينها وإرسالها لواشنطن بشكل مذكرة قيمة للاستعانة بها كدراسة علمية لانقلابات آتية وكان منها ما يلي:

١ - إن قوة أي جيش (دون استثناء جيوش الدول غير الغربية التي لها أهداف غير عسكرية) تعتمد على توفر رجال إداريين من طراز رفيع على رأس قيادته مدركين كل الإدراك حقيقة دورهم في إصدار الأوامر وتنفيذها وحقيقة كونهم جزءا لا يتجزأ من قيادته وتركيبه العام. ويعود سبب انتصار عبد الناصر إلى إدراكه هذه الحقيقة وسيطرة رجاله الإداريين الأكفاء على وحدات الجيش وقطاعاته. وسواء أكان عبد الناصر وأصحابه الأوائل ثوارا بحق أم لا فإن بقية أتباعه من الضباط ليسوا كذلك. وكان إتباع عبد الناصر للأساليب العسكرية في التحضير للانقلاب وفي انجازه ضمانا لفوزه لسهولتها المأمونة في إصدار الأوامر وتنفيذها.

٢ - وينبغي أن يكون زعيم الانقلاب من نفس الطبقة الاجتماعية المؤيدة له أو أن يكون قادرا على التظاهر بهذا حتى يتحقق نوع من التقارب والانسجام بينه وبين أتباعه ليشاركوه انتصاراته ويشاطروه مشاعره. وهذا ما حدث فعلا: فالانقلاب انقلاب الجميع من الضباط الأحرار وعبد الناصر -برأيهم- لم يكن أكثر من منسق لعلاقاتهم ومنظم لتحركاتهم. وخيم نفس الشعور على علاقات الفئة الأولى من الضباط الأحرار مع الفئة الثانية وكذلك بين الأخيرة والفئة التي تتلوها وهكذا دواليك. وكانت هذه طريقة فنية مكنت عبد الناصر من ضبط أمور الدولة وكسب تأييد ذاك الجزء المهم سياسيا من جماهير الشعب المصري والذي لا يتجاوز ١٠ ٪ وبذلك سلك أحدث الطرق في إدارة أضخم المؤسسات الصناعية ومراقبة الأوضاع فيها.

٣ - وسيستبدل العديد من أفراد الإدارة في النظام القديم بغيرهم بغية إقامة نظام إدارة العهد الجديد على أساس من الانضباط والنظام الدقيقين. وليس على أساس الولاء للأشخاص ويتوقع أن يتم ذلك حال استكمال قادة الانقلاب سيطرتهم على أركان الدولة ولم يكن ولاء أنصار ضباط عبد الناصر له مباشرة وإنما كان ذلك من خلال ولائهم لأحد أولئك الضباط الأحرار فكانوا يعرفون برجال زكريا أو رجال البغدادي. وكان على عبد الناصر أن يتخلص من هذه الظاهرة الخطيرة دون اقضاء أعوانه الرئيسيين الذين كان لبعضهم دور رئيسي في نجاح انقلابه ولكنهم أضحووا عالة عليه بعدئذ (وهذه ظاهرة مشتركة بين جميع قادة الثورات) واضطره ذلك إلى تعيينهم في مناصب شكلية. وقام بإسناد المناصب الرئيسية إلى ضباطه الموهوبين والموثوقين حتى يشغل عليهم كامل أوقاتهم. في حين قام بنقل من يدين لهم بالولاء الشخصي إلى مراكز أخرى. وأدرك ستيفن ميد أن هذه الظاهرة التخطيطية التي بدرت من عبد الناصر يجب اعتبارها مبدأ أساسيا يحتذى به لتثبيت دعائم حكم قادة الانقلابات العسكرية عامة (وهذا ما أخفق حسني الزعيم في سوريا في تنفيذه بناء على اقتراح ستيفن ميد نفسه).

٤ - وكان اعتقاد عبد الناصر أن الاعتماد على الجيش حتى يقف النظام الجديد على قدميه أمر لا بد منه في كافة أرجاء البلاد، كما أن استرضاء كافة السياسيين المتطرفين، والمفكرين الصوريين والمتزمتمين من كافة الأحزاب والهيئات لإظهار تأييدهم

للثورة وإعراهم عن أنها أمل الجماهير لتحقيق الإصلاح والازدهار أمر لا يقل أهمية عن السابق.

وفي حال منح هؤلاء الأفراد أي قسط من الحريات فلن يكون هذا سوى هدف لتشكيل واجهة منهم للرأي العام مهمتها تهدئة هياج الجماهير وتبرير كافة تصرفات الحكومة وقراراتها (وعلى أساس اقتصار مهمتهم على هذه الشكليات رفض عبد الناصر اقتراح قبولهم أعضاء مؤسسين في مجلس الثورة).

واتفقت آراء جميع ضباط الثورة من رؤساء ومرؤوسين على أن من مهام عبد الناصر تحويل الجيش إلى مؤسسة ذات نظام دقيق وانضباط رفيع كالتى كانوا يحملون بها قبل التحاقهم به.

كما اتفقوا على الوقوف ضد أصحاب الفكر والاضطرابات العامة وإباحة المحرمات وتفترج المجتمع والتحلل الجنسي وغيرها من مفاسد حكم الملك فاروق التي تهدد نظامهم المدلل. أما قيام المظاهرات فقد خشي منه بعض أتباع عبد الناصر واعتبروه ظاهرة خطيرة لتحريك المشاعر وتحييجها. وبالتالي فتح الطريق أمام الهيئات السرية للاستيلاء على الحكم في البلاد أن عبد الناصر وقف ضد هذه الفكرة في البداية ولكنه حقيقة لم يشذ عن هذا المنحى من التفكير اطلاقاً.

وفي الوقت الذي اعتبر ميد أن الانقلاب في سوريا في ١٩٤٩ كان قطعة فنية نادرة من ناحية تنفيذه بدقة متناهية فإن حسني الزعيم مع الأسف لم يعثر بعد نجاحه على خطأ إلا واستهواه ارتكابه.

ولكن الأمر في مصر كان عكس هذا. فلقد نجح انقلاب كان من المفروض أن يفشل لو نفذ في أي بلد آخر لأخطاء عديدة. أما بعد نجاحه فإن عبد الناصر التزم بالمبادئ السالفة الذكر وأفلح في توحيد البلاد وإقامة حكومة اتصفت بالمناعة ضد الانقلابات فقد كان عبد الناصر يعتقد أن تقوية مركزه وتوطيد سلطة شخصه يجب اعطاؤهما الأولوية وتقديمهما على أي هدف آخر.

وبسلوكه هذا المسلك تمكن من اتخاذ اجراءات أقلقت يومها المراقبين الغربيين.
فدفع عبد الناصر بالعلاقات المصرية - السودانية إلى الحضيض مثال لا ينسى على خطته هذه.

فقد انتهز بعد ذلك فرصة ترديها للانقضاض على أحد ضباطه (صلاح سالم) وقام بتحميله تبعاتها وتوجيه اتهامات مدمرة لسلطانه ونفوذه الذي شعر عبد الناصر بتزايدته إلى حد المنافسة الخطيرة له.

وأما ستيفن ميد فقد أدرك سلوك عبد الناصر هذا ونوه اليه في أحد تقاريره ل واشنطن واعتبره أساسيا جدا لبقاء واستمرار أي زعيم انقلاب ناجح وعلى الأمريكيين أن لا يقلقوا البتة حيال تصرفات كهذه.

ولكن القلق بقي ينتاب المسؤولين عن وضع خططنا في واشنطن بخصوص أفكار عبد الناصر حول الصفوة المختارة والمؤهلة للحكم فطريا.. وكانت مثل هذه الأفكار تصلهم عن طريق هيكمل - ليكلاند (بدل طريق ستيفن ميد) وتدعي الحق لهذه الصفوة في التمتع بنفوذ واسع وامتيازات لا حصر لها لكفاءتها العالية ولنظرة الشعب اليها على أنها منه وإليه فلا يمحقتها بعدئذ ولا يثور ضدها.

ولم تكن تطلعات عبد الناصر هذه إلى الصفوة المختارة في بلده إلا على غرار وجود مثلها في كل البلدان المزدهرة والمجتمعات المستقرة كما كان يشك بقدرة شعبه على اختيار ممثليه للحكم وتقييم كفاءاتهم. وعودة النظام الحر بدون أي قيد أو شرط لا تعني في نظره سوى عودة تلك الشرذمة من السياسيين الانتهازين للحكم ثانية التي صبر عبد الناصر عليها كثيرا قبل قيامه بانقلابه العسكري.

وتعزز اعتقاده يومها بضرورة عزلها مهما كانت الأمور، وإحلال. الصفوة المختارة من العسكريين مكانها ولكن مع ضرورة إبعاد الجيش عن الشؤون السياسية للدولة.

إلا أن النمو المطرد لهذه الفكرة كان مصدر قلق لنا، فهي لن تقلل من فرصة مشاركته لنا كلاعب في لعبة الامم (إن لم يكن العكس) ولكنها تضعنا في مواقف حرجة أمام الرأي العام الأمريكي بعد أن اتهمت حكومة الرئيس ايزنهاور بأنها نصيرة الديكتاتوريات العسكرية اليمينية، واضطربنا يومها للرد على أن تساهلنا معها مؤقت

ريثما يستتب النظام والهدوء في أقطارها وأنا لا نفعل هذا الا نتيجة اقتناعنا بعزمها على إعادة النظام البرلماني.

إلا أن تصميم تلك الديكتاتوريات العسكرية الفاشيستية على البقاء، وتوطيد العزم على ذلك كان بمثابة عقبة في وجه تحركاتنا تعيق مرونة مساراتنا في رسم مخططاتنا. وأما تردد عبد الناصر في اتخاذ موقف نهائي من شكل التركيب الاجتماعي المقترح لمصر فكان مصدر إزعاج لنا وخصوصا أنه طلب وقتا أطول للتفكير به كما أنه أراد منح الشعب المصري نفسه فرصة لمناقشته والإعراب عن رأيه فيه.

وبعبارة أخرى فقد أراد تطوير ملكة التفكير عند المصريين في بناء أهدافهم وتحديد مطالبهم إيجابيا ورأى أن منح الشعب حريته قبل الأوان كما أخبر السفير كافري بذلك مرة لا يعني سوى ترك أطفالك في الشارع تحت رحمة الظروف وتحويل البلاد إلى ميدان للصراع بين المتطرفين من جهة والسياسيين الانتهازيين والمرترقة من جهة أخرى. كما أن إفساح المجال أمام المواطنين للتدخل في طريقة سيره بالدولة المصرية، بثقافتهم المحدودة وضيق أفقهم في شؤون الحياة لن يسهل له تحقيق أهدافه البعيدة المدى في مجالات السياسة العالمية.

وباختصار فقد كان عبد الناصر يطالب بأقصى الحريات لشخصه ولأطول مدة من الزمن ليتمكن من تحقيق ما يأمل به، دون أن يمارس الرأي العام أي ضغط عليه أو يفرض أية مراقبة على سلوكه.

واقترضى هذا اللون من تفكيره تركيبا اجتماعيا هرميا: تتمركز الصفوة المختارة الحاكمة في القمة ثم تليها الفئة الثانية فالثالثة فالرابعة وهكذا دواليك، على أن تبقى كلها مترابطة متماسكة مع بعضها البعض عن طريق الوعود تارة والمداهنة تارة أخرى.

وأما ستيفن ميد الخبير بدوام الانقلابات وبقاء زعمائها فلم تثر هذه الاعتبارات أي قلق في نفسه أو انزعاج، ولكنها فعلت عكس هذا في نفس كيرميت روزفلت فعندما أرسل ميد تقريرا إلى واشنطن ينوه فيه إلى نية عبد الناصر لإقامة ديكتاتورية عسكرية من وراء تعديل أركان حكمه بذل روزفلت قصارى جهده لإقناع السفير كافري باستدعاء

أحد الخبراء في الانظمة العسكرية في الدول الناشئة وأحد رجال العلوم السياسية في وزارة الخارجية الأمريكية لدراسة الوضع في مصر عن كثب وكان هذا جيمس ايلبرغر.

وكان هدف روزفلت أن تساعد دراسة ايلبرغر للوضع في مصر في تبرير سياسة عبد الناصر المترعرة أمام الوزير دالس، أو اقناع ناصر بتعديلها ان لم تخط بموافقة الوزير. وكان هذا مهما لروزفلت بعد أن قدم توصياته بمنح مصر مساعدات اقتصادية ضخمة وأوشك على تقديم توصيات أخرى بإمدادها بالمساعدات العسكرية.

وأما السفير كافري. فقد طلب من جيمس ايلبرغر، أن يعمل تحت إمرته مباشرة ومعزل عن كامل جهاز السفارة الأمريكية في القاهرة. كما مهد له سبيل الاطلاع على كافة المعلومات الواردة من وزارة الخارجية في واشنطن ومن ملحقي السفارة ومن موظفي وكالة المخابرات المركزية الأمريكية كما طلب منه أن ينهي دراسته بوضع تقديرات للحالة السائدة في مصر وتقديم اقتراحات بشأن مستقبلها.

وبقي السفير كافري يومها ممسكا بزمام الأمور مراقبا التقارير المرفوعة إلى واشنطن بأكملها دون التمييز بين وجهتها -وزارة الخارجية او وكالة المخابرات المركزية أو إلى بعض المسؤولين فيهما مثل كير ميت روزفلت- ومتخذاً بنفسه آخر القرارات والتوصيات.

أما جيمس ايلبرغر فقد عقد محادثات طويلة مع أفراد حاشية عبد الناصر العسكريين منهم والمدنيين وكان منهم المحرر الصحفي محمد حسنين هيكل الذي قيل إنه كان وراء كتاب عبد الناصر وفلسفة الثورة.

فقد برع هيكل في التمييز بين ما يجب أن يكون فلسفة حقيقية للثورة وبين ما يجب أن يبقى في حيز الاستهلاك المحلي لإلهاء الشعب به داخل حدود البلاد. وسأقت الصدفة ايلبرغر أخيراً للالتقاء بأستاذ هيكل الصحفي المشهور مصطفى أمين ذي الذكاء المتوقع.

فقد كان مصطفى أمين من المعجبين بعبد الناصر إلا أنه أقل افتتانا به من تلميذه هيكل. كما اجتمع ايلبرغر إلى الصاغ صلاح سالم. وزير الإرشاد القومي وقتئذ، وإلى

كثير من أركان وزارته ومساعديه الذين أتى بهم من الجامعات واتحادات العمال وحتى من بعض الأحزاب السياسية السابقة ليُقدموا له دراسات حول الرأي العام واتجاهاته.

وأخيرا التقى بعبد الناصر نفسه، وتبادلا وجهات النظر حول سلسلة طويلة من المواضيع والمشاكل وتمكن خلالها أن يحدد أبعاد إدراك عبد الناصر لدور القوى السياسية التي تأتمر بأمره وأهميتها في المعركة داخل مصر وبعد كل هذه اللقاءات والأحداث قدم ايجلبرغر سلسلة من التقارير شرح فيها المصاعب والعقبات التي يتوقع أن تواجهها حكومة عبد الناصر وحدد الحلول المقترحة لمعالجتها.

ونقلت بعض هذه التقارير من الانكليزية إلى العربية وارسلت لعبد الناصر للاطلاع عليها والعمل بها وكان أكثرها أهمية وأجلها شأنًا ما جاء تحت عنوان: مشاكل السلطة والحكومات الثورية (ويجد القارئ نصه في أول الكتاب).

وبعد نقله للعربية علق عليه عدد من مساعدي عبد الناصر ونقلوه مع الإضافات الجديدة عليه إلى الانكليزية ثانية وأعادوه لايجلبرغر حتى يعيد دراسته له وبقي هذا التقرير مدة وهو ينقل من العربية إلى الانكليزية وبالعكس حتى انتهى إلى صيغة نهائية عرفت في خارج مصر على أنها من تصميم وإخراج زكريا محي الدين أذكى رجال عبد الناصر وأعمقهم تفكيرًا.

ولاقى ذاك التقرير بحالته تلك وبالظاهر من معانيه قبولًا عند رجال النقد والتحليل في وكالة المخابرات المركزية ووزارة الخارجية وفي بعض الدوائر المختصة التابعة لبعض الحكومات الأجنبية.

ومهما كانت قيمة فحواه الفلسفي وقد استخف ايجلبرغر نفسه بالتقرير فيما بعد وأنكر علاقته به، فقد كان التقرير في حد ذاته ذا أهمية فائقة إذ كشف النقاب يومها عن أبعاد تصورات عبد الناصر للعلاقة بين أعمال القمع والشدة في الداخل و بين كسب تأييد الشعب والرأي العام له.

وقد أبلغ السفير كافري -وكان كاثوليكي المذهب- ايجلبرغر بضرورة مراقبته لمسرح الأحداث في مصر بعين الناقد المحذر. فكافري نفسه لم يظهر أي ارتياح لتأكيدات ستيفن ميد أن نظام عبد الناصر أضحى أقوى من أن يطيح به أي انقلاب

آخر. وشعر كافري أن نظام عبد الناصر قد دخل مرحلة الخطر لمرور عام على وقوعه إذ أن الحركات المضادة عادة تظهر بعد مرور عام واحد على الحركة السابقة، وأن الاحداث تشير إلى توقع الخطر من ثلاثة مصادر.

أولها: بعض الشخصيات التي عولت على النظام السياسي البائد وربطت به مصالحها

وثانيها: بعض السياسيين الانتهازيين الذين يفكرون باغتنام فرصة القلق وعدم الاستقرار.

وثالثها: العناصر السياسية الهدامة والمكشوفة كالشيوعيين الذين تظاهروا بتأييد عبد الناصر ولكنهم أخذوا يتحينون الفرصة للانقضاض عليه وتحقيق آمالهم في الحكم. ومع هذا فان أخطارا ثلاثة محدقة بالوضع الراهن يومها في مصر ستوقف أي ناقد يعتمد كشف العيوب وانتحال التشاؤم وهي:

(١) انقلاب عسكري شبيه جدا بانقلاب عبد الناصر يقوم به المعارضون والمنشقون من أفراد حاشيته بالتعاون مع بعض ضباط الجيش والبوليس من ذوي المراكز الحساسة.

(٢) انقلاب عسكري، ولكنه مضاد للثورة يعتمد على عناصر من نوعية شبيهة بعناصر الانقلاب المتوقع أنفا ومدعومة بعناصر سياسية من خارج الضباط الاحرار ويبيدها قدرة السيطرة على الشارع. وتآليب الجماهير ضد النظام القائم.

(٣) تغلغل بعض القوى داخل حكومة عبد الناصر تحت ستار الصداقة ومظاهر التأييد، ولكن بأهداف وغايات على نقيض أهداف وغايات عبد الناصر.

كانت الدلائل والمعلومات الواردة من نظام مخابرات عبد الناصر إلى جانب المعلومات الواردة في كل من وكالة المخابرات المركزية الأمريكية والمخابرات البريطانية تشير إلى أن الخطر الاول ذو احتمالية ضئيلة. في حين كان الخطر الثالث يدفع كلا من السفير كافري وايفرغر إلى اعتباره الخطر الوحيد الذي يجب الاحتياط له كما أنهما أثارا الانتباه إلى الاحتمالات التالية:

تخريف خبيث لبرنامج الحكومة الجديد يرتكبه أحد كبار الشخصيات الموالية لشخص عبد الناصر، ولكنها تعارض آراءه وأفكاره أو تخريب عام لمخططات الحكم يقوم به رجل من نفس الطبقة والمستوى، ولكن من الذين يشك في ولائهم لعبد الناصر، أو تسلل إلى جهاز الحكومة وتغلغل فيه لا للضغط عليه والتأثير على خطواته، بل لإضعاف قدرته على الامساك بزمام الامور. والسيطرة على أركان الدولة مما يؤدي إلى قيام حركات ضده بهدف الاطاحة به

ولم تكن نزعات ضباط عبد الناصر للشهرة وحبهم للظهور أقل خطرا من العوامل السابقة. أما ايجلبرغر فقد أشار في أحد تقاريره المرفوعة للسفير كافري إلى ما يلي:

إن عبد الناصر نفسه غير واضح الأفكار والاتجاهات. وأدركت من خلال أحاديثي مع كل من صلاح وجمال سالم وغيرهما من أعضاء مجلس الثورة أنهم يسلكون في سياستهم مسالك الانحراف والمساومات كما أنهم فقدوا اقتناعهم بقدرتهم على السيطرة على أجهزة الدولة أو استمرارهم بسياسة القمع والشدة.

ومع أن نزواتهم لا تتعدى حب الهتاف والتصفيق لهم فإن الطرق التي يسلكونها لتحصيل هذا سوف تثير في النهاية أزمة نفسية مستعصية في إدارة شؤون الحكم أما إذا حاولوا أن يسيطروا سيطرتهم على الحكم من خلال إرضاء فئة حينا وأخرى حينا آخر فإن العاقبة ستكون وخيمة جدا وستوضع على الرف أفكارهم ومبادئهم حول تقدم البلاد وازدهارها وستبقى الأوضاع تحت رحمة الأقدار وفي مهب الرياح.

ولن يمضي وقت طويل حتى يدرك الجميع إفلاسهم الفكري وفشلهم الذريع ولن يحالفهم الحظ بعد ذلك في مغامراتهم وسيجدون أنفسهم بعد فوات الأوان مضطرين إلى اللجوء إلى أساليب القمع والشدة التي طالما يتندر بها عبد الناصر. وأما النتيجة الحتمية لكل هذا فهي قيام حكومة مستبدة تتسكع أمامنا بكل بشاعة وقذارة..

ولكن ايجلبرغر لم يقدر عبد الناصر حق قدره، ولم يدرك أن الأخير قد فهم خطورة الشعبية الزائفة وزيفها فلم يسع لها إلا بعد أن رسخ دعائم سلطته ووطد أركانها.

ولم يتخل عبد الناصر طوال سنين حكمه -وحتى عندما كان في أوج شعبيته- عن شعوره بضرورة الاحتفاظ - على الأقل - بالقدرة على استعمال وسائل القمع عندما تقتضي الضرورة ذلك.

وفي أواخر أيار مايو ١٩٦٧ اعترف عبد الناصر أمام أحد الدبلوماسيين الأجانب بقدرته على حكم البلاد وإدارتها بنفس الطريقة التي يحكم بها. بابا دوفاليه جزيرة هايتي في الكاريبي إذا ما اضطر لذلك، ولكنه يأمل أن لا يضطر إلى سلوك تلك المسالك أما ظهور الانحرافات وازدياد المساومات في نظام الإدارة بعد الانقلاب فلم يكن نتيجة شكوك عبد الناصر بأهدافه وغاياته بقدر ما كان نتيجة تردده حيال انجازها والوصول إليها.

ولم يدرك مراقبو عبد الناصر يومها حقيقة أهدافه حيال شكل حكومته. فهو لم يفكر إطلاقاً في أن يطور حكومته الديكتاتورية إلى أخرى برلمانية وإنما أراد تجاوزها عن طريق الادعاء بوجودها ومن ثم ينتقل إلى صيغة بونابرتية يحكم فيها بتفويض من الشعب يحصل عليه عن طريق الاستفتاء أو ما شابه ذلك.

وفي بلد كمصر فإن تحصيل هدف كهذا يستلزم وضع مخطط معقد لكنه على جانب كبير من الخبث والدهاء حتى يبدو للناظر الساذج مضطرباً وغير واضح إلا أنه يكون في حقيقة الأمر في منتهى الجلاء والتركيز في مخيلة عبد الناصر وتفكيره.

وفيما يخصنا نحن الأمريكيين فكل ما نطمح إليه لا يتعدى العثور على لاعب ملائم وماهر، يشاركنا الجلوس إلى طاولة لعبة الأمم ويؤدي دوره بكل انسجام وهدوء فعلى صعيد السياسة الداخلية، لم نكن لتدخل في قرارات عبد الناصر وتصرفاته إطلاقاً ولم تكن تعيننا شيئاً طالما أنها لا تضع مخططات سياسته الخارجية موضعاً يتعارض مع سياستنا الخارجية ويعرض مصالحنا للخطر.

وليس لنا أن نوجه أي انتقاد لعبد الناصر بخصوص طريقة توطيده لدعائم سلطته الداخلية واتباعه أساليب بونابرتية. فقد كانت وجهة نظره حيال أصدقائه الأمريكيين ترتكز دائماً على قوله المشهور: «إذا كنتم تعافون وسائلتي للوصول إلى أهدافي فلا تنلكنوا في اقتراح وسائل أفضل.. إنني - على الأقل - سأصغي إلى ما ستقولون»

ولم نفكر أبداً بامتحان إخلاصه هذا سوى لأنه لم يخطر ببالنا طرقاً أفضل ووسائل أنجع ليسلكها بدل وسائله ويستخدمها لتحقيق ما يخططه لنفسه.

الطراز الناصري للحكم ووسائل القمع

«وكان بقاؤه على مسرح الأحداث معنا أول أهدافه مهما كان الثمن»

كم طرح علي ذلك السؤال عبر السنين والأيام، ولم يتغير جوابي عليه أو يتبدل: لنفترض جدلاً، أن القدر أحاط عبد الناصر بظروف ما، وأوصدت دونه جميع الأبواب إلا اثنين: إما بقاؤه في السلطة ودمار البلاد، أو خروجه منها ونجاة البلاد، فأيهما يختار؟

لم يكن جوابي دائماً سوى: ليس لنا خيار في الجواب. ففي تحليلنا لواقع أي زعيم من فئة عبد الناصر، يعشق السلطة حبا في التسلط، يتبين لنا أنه سيفعل كل ما في وسعه للبقاء فيها ولو أدى ذلك إلى انهيار البلاد اقتصادياً، أو دخولها حرباً خاسرة متقطعة مع عدوتها (إسرائيل) وإذا كان الحاكم بونابرتي الطراز.. فإن مبررات استنثاره بالسلطة ستبقى قوية على أمد الدهر، ولن يتزحزح قيد أنملة عن اعتقاده بأن أسوأ الكوارث والنكبات لن تفلح في طي صفحة ذلك التفويض الذي منحه إياه الشعب في يوم من الأيام. ولن يجرأ إنسان على تجريده من السلطة والإطاحة به وهذا ما حصل تماماً أثناء الحرب العربية الإسرائيلية في عام ١٩٦٧ فلقد كانت أسوأ كارثة عرفت في مصر في تاريخها الطويل، كما كانت أعظم فرصة لأعداء عبد الناصر لينقضوا فيها عليه ويطيحوا به. ولكنها مرت وانقضت، وخرج منها عبد الناصر أقوى مما كان عليه في أي يوم مضى.

ولربورت ميشلز كتاب ظريف حول ظاهرة «عقدة السلطة» عند الزعماء، أو ما يسمى بالبونابرتية. وفيه يسرد بعض خصائصها مثل الاستمالات النفسية، التي يمر بها بعض القادة مثل عبد الناصر. فنتيجة لتمتعهم بسلطات واسعة، يمتلكهم شعور جامع بازدياد أهميتهم وقيمة أشخاصهم، وحاجة الجماهير الملحة لقيادتهم. وهذا يورثهم نوعاً من الشعور بالتفوق والعظمة. والحقيقة أن كل من يتربع على عرش السلطة، يشعر

بالحاح مستمر لتجميع أقصى ما يمكنه منها في قبضة يده، ولبسط نفوذه على أوسع رقعة من الأرض، والمضاعفة الأسوار التي تحميه، والنجاة بنفسه بعيدا ما استطاع عن رقابة الجماهير.

ولقد كان احتكاكي بعبد الناصر على مر السنين أكثر من أي إنسان غربي آخر. ومع أنني لا أزال أملك حرية زيارته، والتحدث إليه، حتى الآن في ظروف مريحة ينطلق فيها على سجيته مرة كل شهر أو شهرين، إلا أن الظروف لم تعد لتسمح بتكرار تلك الزيارات العابرة التي اعتدت أن أفاجئه بها حيث كنا نتناول معا طعام الغداء.

ومع أنني كنت أزوره أحيانا لأنجز مهمة لرفيق، أو تكليفا - رغم أنفي - من طبيب نفساني أو عادي أو مسؤول في وكالة المخابرات الأمريكية لأتحرى لهم أية بوادر انخيار في صحته أو انحراف في تفكيره، فإن الطابع العام لزيارتي له كان طابع صداقة وألفة. ولم أكن في يوم من الأيام هاويا لإدراك ما وراء الوجوه التي اعتادت أن تخفي ما يجول في خاطر أصحابها وتظهر بغير حقيقتها. وإن كان في نفس أي إنسان حاجة ليعرف رأيي عن نفسية عبد الناصر وحالته الراهنة، فلن أتردد في القول إنه - بعض النظر عن سياسته معنا - لا يزال يتمتع بكامل قواه العقلية، ولم يفقد شيئا من قوتها ومرونتها.

أما بخصوص سياسته معنا، فرأيي صريح: أن ما يحل - عاجلا أم آجلا - بالزعماء من طراز عبد الناصر لا بد وأن يحل بعبد الناصر نفسه فمهما كانت قوة تحمله الشخصية لضغط التملق والمداهنة، أو الولاء الأعمى والخوف منه، فإن الأسوار الفاصلة بينه وبين العالم الخارجي غدت أكثر من المعتاد، فلا ينفذ منها في هذه الأيام إلا ما يشهد عصمته وخلوده، ويؤكد ضرورة بقائه حاميا لأعجاد الثورة والتحرر.

وحق لو كان ناصر من أكثر الناس عبقرية، وأقواهم شخصية، وأشدهم متانة، وأحدهم ذهنا، فمن المستحيل عليه أن يبقى محتفظا بنفس مركزه السابق بينما يمثل أدواره في مسرحيتنا «لعبة الأمم» أو أن يبقى دون أن تكتنفه الأشواك التي قلما تترك زعيما من نوعه بدون أن تتشابك حوله لتطويقه والقضاء عليه.

وفي الوقت الذي يفترض خصومه أنه يقوم بمناقشات متزنة محسوبة على ضوء إدراكه لما يجري على رقعة اللعب، إلا أن إدراكه هذا قد زاغ وضل حقيقة. أما كيف حصل ذلك فإنه سيبقى لغزا محيرا.

إن عبد الناصر لن يتمكن على الأرجح، بعد اليوم، من رؤية مفارق الطرق عند وصوله إليها: مجد شخصي ودمار للبلاد، أم تنح عن السلطة ونجاة للبلاد.

كان أول ما يبدأ به لضمان الحكم واستتباب السلطة هو توفير وسائل القمع كما جاء في تقرير ايجلدبرغر. فلو كان تصور عبد الناصر للقيادة ليس أكثر من مجرد بقاء في طليعة الغوغاء أينما حلت وارتحلت، فإن الأمر ليس صعبا. وعندها تعتمد حلول القضية على تحركات وتنقلات مزخرفة أكثر مما تعتمد على دور القيادة الحقيقية.

إلا أن عبد الناصر قد رأى أنه ببركاتنا ورضانا سيتمكن من البقاء في القيادة طويلا وبدون صعوبة. وكل ما كان عليه أن يفعله وقتئذ هو أن يتعرف على آمال الجماهير وأحلامها ثم يهتف بها بأعلى صوته دون منافسة أحد له ولكن «لتكون زعيما صالحا» فإن الأمر أكثر مشقة وعسرا. إنه عليك هنا أن تدفع الجماهير إلى أن تتشوق وتطمح إلى ما يفيدها ويصلح أحوالها.

وعلينا أن نتذكر، للمرة الثانية، نقطة مهمة في مقامنا هذا وهي: أن الهدف الرئيسي من دعمنا لعبد الناصر هو رغبتنا في توفر زعيم في بلد عربي رئيسي يتمتع بنفوذ قوي على شعبه وعلى بقية العرب وله من القوة ما يمكنه أن يتخذ ما شاء من القرارات الخطيرة وغير المقبولة عند الغوغاء - مثل عقد صلح مع إسرائيل - واستنادا إلى قواعدنا المدروسة وقواعد عبد الناصر، فإن استتباب النظام ورضوخ الأمة أمر يجب تحقيقه ولو اقتضى الأمر استخدام القوة واتباع أساليب البطش والإرهاب.

ولم تكن هذه مواقف وقرارات مطلقة وقطعية لا تقبل الأخذ والرد على طريقة الكولونيالات، اليونانيين (بعد عدة سنوات). فقد كان عبد الناصر يفكر بالقضية ويناقشها مع ضباطه وكبار سياسي عصره، ثم لا يلبث أن ينقل اهتمامه هذا وقلقه إلى أصدقائه في الغرب الذين كانوا سرعان ما يتجاوبون معه بخصوص إصراره على ضبط النظام واحترام القانون. وكان تفكيرنا يعزى إلى رأي عبر عنه الديبلوماسي الليبرالي جون

دافيس بقوله: ليست المشكلة مشكلة كون الحكومة ديكتاتورية أو برلمانية دستورية، ولكن المشكلة هي في قدرة الحكومة مهما كان نوعها على توحيد المجتمع وجعله متماسكا مترابعا بصورة تتمكن من الانتقال معه إلى مراحل متقدمة للرفي والازدهار. ولكن الجزء الآخر من تفكيرنا كان ضعيفا وركيكا. فلقد ظننا أن جميع وسائل القمع والبطش بما فيها الجيش والبوليس وأجهزة المخابرات ستكون بجانبنا، في حين ستتجه القاعدة الشعبية لعبد الناصر وجهة يسارية لعدة أسباب. والتقرير الشهير بـ «مشاكل السلطة والحكومات الثورية»، يشرح كيف حققنا بعض التوفيق بين وجهات النظر المختلفة.

واستنادا إلى هذا التقرير -أو بعبارة أخرى-، استنادا إلى «الدوق العام» فقاعدة القمع التي تعتبر ركيزة الحكومات الثورية للبقاء، يجب أن تعتمد على المؤسسات التالية: التشريعات، البوليس (قوى الامن الداخلي). أجهزة المخابرات الدقيقة، أجهزة الدعاية، القوة العسكرية أو الجيش.

ومن الأهمية بمكان إعطاء لمحة عن تطورات هذه المؤسسات وكيفية تصميمها.

التشريعات:

لا يختلف اثنان ليبراليان على ضرورة بقاء الأحكام العرفية لفترة ما بعد استلام الحكم نتيجة انقلاب عسكري. كما أنه من الضروري اتخاذ الخطوات اللازمة لاستئصال شأفة الفساد واقتلاع جذورها من جميع مؤسسات الدولة وإداراتها، لأن ذلك هو السبب الرئيسي لقيام مثل ذلك الانقلاب. ولهذا. فللنظام الجديد إذن الحق في ممارسة السلطات التشريعية ليتمكن من كشف الخطر وتحديد مواطن الفساد، وبالتالي ليتمكن من فرض إجراءات رادعة وعقوبات زاجرة، وهذا ما فعله عبد الناصر في تشريعاته: فقد حدد مهمة البوليس وأجهزة المخابرات والمباحث وأعطاهم حرية التصرف المطلقة والأخذ بزمام المبادرة في الكشف عن كل مؤامرات الإطاحة بنظام الحكم والتحريض على أعمال العنف، والإباحة بأسرار الدولة، وكل ما يشتبه بأن له ميول لارتكاب مثل هذه الجرائم.

وكانت هذه التشريعات تصدر على الأمة بشكل مراسيم وأوامر صادرة من مجلس قيادة الثورة وفي صياغة جيدة وأسلوب محكم ولقد وصفها المستشار القانوني للسفير

كافري بأنها من الدرجة الأولى، وفريدة من نوعها في مثل هذه البقعة من العالم. وقد فاقت مثيلاتها في فرنسا. ولكن الطريقة التي اتبعت في تنفيذ التشريعات قد وضعت نظام عبد الناصر في مهبط رياح النقد والتشهير التي ما تزال صاحبة حتى يومنا هذا ويوجهها بعض المصريين المنفيين في سويسرا وأماكن أخرى.

وقد كان الافراد يعتقلون بدون أن توجه إليهم أية تهمة، وكانت الممتلكات تصادر، وخضعت المطبوعات كلها للمراقبة. وقد نفذ كل ذلك بطريقة منتظمة ولكن بدون أن تكون العلاقة بينها وبين التشريعات واضحة بينة.

وقد أطلق سراح بعض المعتقلين، وسمح لهم بمزاولة نشاطهم السياسي السابق، بل وشجعوا على ذلك ورفعت أوامر المصادرة عن بعض الأملاك، ورفعت المراقبة عن الصحف عندما لم يعد ثمة حاجة إليها. ولكن لم تمض أسابيع قليلة على موجة إطلاق الحريات هذه، حتى عاد الاضطهاد والكبت مرة ثانية، وعادت الاعتقالات بصورة أكثر، وكذلك مصادرة الممتلكات ومراقبة المطبوعات.

واستمر عدم الاستقرار: مرة إطلاق للحريات ثم يتلو ذلك موجة من القمع والشدة، حتى اضطر بعض أصدقاء عبد الناصر من المراقبين الغربيين للاعتقاد بأنه يمارس نشر الرعب والفرع في أرجاء البلاد بصورة تهدد نظامه كما لم يكن شك هناك أنه قد ولد تأثيرا سيئا على العالم الخارجي.

وبدأت غالبية السفارات الأجنبية تردد شكوكها حيال احتمالية قيام ديكتاتورية عسكرية فاشستية في مصر. ولم يكن قلق (وخرج) السفارة الأمريكية بسبب اشمئزازها من أعمال الاعتقال ومصادرة الممتلكات وتكميم الصحافة، بل كان بسبب الطريقة التي ترجمت بها الحكومة تلك الاعمال للشعب.

وهكذا نشأت علاقة متردية بين الحكومة وشعبها. وقد تجلى الخلاف بين المفهوم الليبرالي للتشريعات ومفهوم عبد الناصر في أن المفهوم الليبرالي يعتبرها وسائل سلبية ومجموعة أنظمة يبقى الإنسان خارج السجن إذا لم يتحدها.

في حين كان عبد الناصر يعتبرها شيئا إيجابيا، بمعنى أنها المبررات لتصرفاته وقراراته - التي ستطيل عمر ولايته على الشعب - ضد بعض العناصر المعروفة في المجتمع

المصري، تلك العناصر التي لا يمكن أن تبقى مسالمة له ومهادنة لنظامه، ولن يشيها عن عزمها على الإطاحة به مهما كانت ميزات ناصر وحسناته وسيبقى عداؤها لنظامه قائما وإن تظاهرت بعكس ذلك.

وكان يعلم هذه الحقيقة المؤلمة السفير كافري، وبعض أعضاء سفارته، لما كان لهم من صلات مع بعض تلك العناصر. كما كان يعلم هذا تمام العلم عبد الناصر وجميع الجماهير المصرية. وهكذا فإن التطهير الذي قام به عبد الناصر لم ينشر الذعر والخوف. ولقد قال مرة أحد ضباط الأمن المواليين له: "إن أولئك الذين لهم العذر في أن يخافوا قد عزلوا مدنيا".

البوليس - قوى الامن الداخلي:

لم يكن للبوليس أي دور في الانقلاب، ولم يكن إلا لواحد أو اثنين من كبار ضباط علاقة بسيطة مع زكريا محي الدين رئيس جهاز المخابرات العسكرية. ولكن رجال زكريا قد تغلغلوا في البوليس جيدا، وساعدوا في القيام بحملة تطهير بعد الانقلاب مباشرة. وقد استلم عبد الناصر وزارة الداخلية واعتنى بالبوليس بشكل خاص بعد تسريح ثلاثين أو أربعين ضابطا، وحوالي مئة من رجال البوليس المشكوك في ولائهم. وفي غضون أسابيع أصبح البوليس جهاز أمن قوي أحسن من أي وقت مضى ولم يعد مصدر خطر على النظام الجديد.

ولم يكن جهاز المباحث في وزارة الداخلية يدار من قبل أحسن العقول في البلاد وأنظفها، بل كان (كغيره من أجهزة الأمن الأخرى) يعاني من عقلية ذاك الصنف من البشر الذي تقوده نزواته للالتحاق بأجهزة الأمن عامة.. فقد أخبرني مرة أحد ضباط عبد الناصر في أجهزة الامن قائلا: إننا نتصرف على أساس أن الشعب كله موال للنظام وذلك ليعلم الجميع أننا على استعداد لمعاملة من يشك بولائه وإخلاصه بمنتهى القسوة..

وعندما يصلح انسان ما، في استنباط وسائل تقنع بعض الرجال من ذوي حساسيات الطف ليصبحوا ضباطا في الأمن العام، فسوف تختفي كل الوسائل البشعة

ولن يعد لسمع بها عبد الناصر أو مستشاريه الأمريكيين. وأكثر ما كنا نأمله هو تحقيق القسوة في إجراءات الامن وزيادة المراقبة والمتابعة.

أما المراقبة (عمل المباحث) فكانت تجري عن طريق نظام - عيون المدينة، الذي ورثه عبد الناصر عن العهد البائد وقد مضى على وجوده في مصر عدة قرون لكنه نظام غير فضولي.

فقد قام أحد رجال وكالة المخابرات المركزية - وسابقا أحد رجال مكتب المباحث الفيدرالي - وهو خبير في شؤون المراقبة المباحثية، بالتجول من أقصى مدينة القاهرة إلى أقصاها، وأقسم أنه لم يكن تحت المراقبة ولا حتى الدقيقة واحدة. ولكن أحد ضباط الأمن طمأنه إلى أن جميع تحركاته ومكالماته الهاتفية وكل اتصالاته قد سجلت وضبطت. والسري في هذا بسيط: فالبوابون، وسائقو التاكسيات، وعمال التلفونات، والشحاذون، والبائعون الجوالون، وغيرهم يعلمون أنهم سيمنحون بضعة قروش مقابل اعطائهم أية معلومات لرجال الأمن الذين يستفسرون منهم عن أجنبي عبر منذ لحظات. إن أشخاصا كهؤلاء يشغلون الأحياء المتفرعة حول أحسن الفنادق وبعض الأماكن الأخرى حيث يتجمع الأجانب عادة، ولقد أحسن إليهم كثيرا في الماضي، وأجزل لهم العطاء، حتى أن مواهبهم قد تحسنت، وقويت ملكة الملاحظة والمراقبة عندهم إلى جانب نمو ذاكرتهم وقدرتها الفائقة على تمييز التفاصيل التي عادة ما يهتم بها البوليس السري.

أجهزة المخابرات الدقيقة:

لم يشغل عبد الناصر منصب وزير الداخلية أكثر من أربعة أشهر. وقبل أن يتركها لخليفته زكريا محي الدين، أذكى وأمهر ضباطه، والذي كان وقتئذ رئيس المخابرات العسكرية، نظم كلا من جهاز المخابرات والمباحث العامة ووضع كافة التفاصيل لهما. ثم أدخل عليها زكريا بعض التحسينات ووضعها قيد العمل.

وقد كان قسم المخابرات العامة يقبع في قمة الهرم (وقد أسس على غرار وكالة المخابرات المركزية الأمريكية) وألحق به بعض الضباط الأحرار الذين كانوا تحت إمرة زكريا

أثناء فترة ما قبل الانقلاب. وكان عديد منهم من ذوي الكفاءات العالية والقدرة التنظيمية الفائقة، ولم تقل أهميتهم بعد الانقلاب عنها قبله، (ومنهم حسن بلبل وكيل وزير الخارجية للشؤون الادارية، وفريد طولان محافظ بور سعيد، وحسن التهامي السفير في النمسا سابقا، وسعد عفرة السفير في بولندا، وغيرهم كثير).

وباتباعهم الأساليب الأمريكية في هندسة الإدارة فقد بنوا الوكالة الجديدة على أنها الرأس والمهيمن المنسق، وبعدها المباحث العامة لوزارة الداخلية ثم مخبرات الجيش على أن يكون كل واحد متمما للآخر وساعده الايمن.

وأخيرا أنشأوا (النظام الخاص) للمخابرات والتحريات المتصل مباشرة بالمخابرات العامة العليا. وكان بعض هذه الدوائر يختص بالمسائل الخارجية مثل تدريب رجال حرب العصابات. والتجسس على إسرائيل، وخطف العملاء المزدوجين، الذين يعملون مع اسرائيل أو مع العربية السعودية، مخدرين في صناديق، من روما إلى القاهرة، وغير ذلك. ولكن أغلب تلك الدوائر كانت تهتم بمعالجة شؤون الأمن الداخلية. وإلى جانب أجهزة: عيون المدينة، ذات الفعالية الجيدة، فقد أضافوا إلى ذلك أدوات وطاقت علمية للمراقبة.

كما أنهم اشتروا سلسلة كاملة من الاجهزة الاليكترونية صنعتها المنظمات الأمريكية للتجسس ومكافحة التجسس. واستعانوا بعدد من ضباط المخابرات الألمان النازيين وزاد عددهم فيما بعد ليدربوهم على استعمالها.

ولكنهم غرقوا في طوفان من المعلومات والأخبار، وأضحى تصنيف ذلك والاستفادة منه بطيئا جدا، إن لم يكن بدون فائدة. وعندما أدركوا أن مراجعة ومراقبة الأشرطة المسجلة يحتاج إلى وقت يساوي تماما الوقت الذي استغرقه تسجيل المحادثات عليها مع كل التفاصيل المملة، كان قد تكدر عندهم أكواما كبيرة من الاشرطة - دون مراجعة - في أقبية المخابرات العامة ومباحث وزارة الداخلية، ومضى وقت طويل حتى تعلموا كيف يهتمون بالخطر ويتركون الغث الضعيف.

وفي عام ١٩٦٠ أصبح لديهم من الوسائل ما يمكنهم من تركيب الميكروفونات الدقيقة في أي من الفنادق أو موائد الضباط، في البيوت الخاصة أو السيارات الخاصة،

في القاهرة والإسكندرية كما أتقنوا التنصت على المحادثات في الشارع عن بعد، والتصوير عن مسافات بعيدة وفي الليل.

ولكن بناء على إلحاح وزارة السياحة ولعقبات كثيرة من الناحية العملية (مثل الوقت الطويل لمراقبة الأشرطة وقدرة المترجمين) فقد اقتصر استعمال هذه الفنون على الحالات الخاصة والهامة وإلى حد يكفي للكشف عن مصادر الخطر على العهد الجديد.

وسائل الدعاية:

كان موضوع الدعاية مجال خلاف كبير بين الأمريكيين - وخاصة السفير كافري وإيخلبرغر - وبين عبد الناصر. فعبد الناصر نفسه لم يكن ذا ماض عسكري عريق حتى يشكل عنصر دعاية. ولم يكن حتى ليدرك العقبات التي تعترض اتصاله بالشعب مباشرة. ولكنه بنفس الوقت أدرك حدود نشره دعائيه في أوساط شعبه، كما أدرك مدى تقصيره فيما كان يجب عليه فهمه منذ حين، وما يجب عليه أن يتصف به من حذر وخبث تجاه الرأي العام الخارجي.

فا إيخلبرغر (الذي كان يوما ما المسؤول عن تنفيذ التقارير في أضخم مؤسسة للدعاية والعلاقات العامة في العالم والتي يملكها. ج- والتر طمسون) قد توصل إلى أن الإنسان يجب أن يتقرب إلى غيره أو إلى الجماهير عن طريق مصالحهم هم وليس عن طريق مصلحته الشخصية. ولقد اعترف عبد الناصر يومها بأنه جاهل بأصول التقرب إلى الجماهير المصرية. ولكنه كان مقتنعا بأن ذلك يجب أن لا يتم عن طريق مصالحه الخاصة. وكان يشك في أن يكون عامل التقدم الحضاري ذا نتيجة جيدة في تقرب الثورة من الجماهير.

وكوسيلة للقمع في الفترة التي كان فيها عبد الناصر يجمع قوى الانقلاب، كان التفكير منصبا على خط ثانوي، وهو مسألة مراقبة المطبوعات. وسرعان ما ثارت المشاكل بسبب انعدام خبرة المراقب العسكري التابع لعبد الناصر - وهذا ما كان متوقعا- فقد أثار ذلك حفيظة المراسلين الأجانب لإيقاف رسائلهم وحذف كل ما يثير الشك من عباراتها.

وكان ذلك في غاية الازعاج للأمريكيين الأصدقاء الذين حرصوا على أن يكسب العهد الجديد الصحافة إلى جانبه. وكان هذا مثبطا لعزائم المراسلين المصريين الموالين لنا وذوي القدرة الكبيرة على صياغة وسبك التقارير. فقد كانت مساعدتهم لنظام الحكم ضرورية لإبراز صورة الثورة جذابة ومشوقة للرأي المحلي، وللعالم العربي، بل وللعالم كله. وكان هذا عملا صعبا وعلى جانب كبير من الدهاء والخبث.

ولقد عولجت المسألة على الطريقة التي اعتاد أن يسلكها أي نظام من طراز نظام عبد الناصر فقد جرى تصنيف المراسلين الصحفيين في قائمتين: الأولى تحوي الموثوق بهم والذين سيرسلون تقارير لصالح الثورة. والثانية، تحوي الصنف المعاكس للأولى.

وبناء على ذلك فقد أعطيت اللائحة الأولى مطلق الحرية وحرمت الثانية من أي منها. وانتبعت الحكومة إلى مشكلة المراسلين الأجانب الذين لم يتخذوا بعد مواقف صريحة من الثورة، فعمدت إلى الاحتفاء بهم، ومن ثم زودتهم بمعلومات لها تأثير لا بأس به عليهم ولصالح الثورة.

وهكذا انقلبت قضية مراقبة النشر والصحافة إلى مسألة روتينية امتدت حتى الحرب العربية الاسرائيلية في عام ١٩٦٧، باستثناء بعض الشطط العارض بسبب عدم كفاءة المشرفين عليها. وهكذا فلم تكن مراقبة المطبوعات جزءا من وسائل القمع عند عبد الناصر سوى مدة وجيزة وذلك لاتباعها بعدئذ القاعدة الروتينية المبينة أعلاه.

أما الدعاية الموجهة من قبل الحكم، فقد كانت منصبة وبكثرة على أعداء النظام لكشفهم، وتسليط الاضواء على مساوئهم، ولتبرير الإجراءات التعسفية التي كانت تتخذ صدهم.

ومن أبرز الأمثلة على ذلك أقدام الأخوين علي ومصطفى أمين اللذين كانا يملكان أضخم دار للنشر في القاهرة، «أخبار اليوم» على نشر إعلان وعدا فيه بتقديم المكافآت للذين يخبرون عن قصص الفساد في الحكم البائد أو في حياة البلاد السياسية.

ولقد أتاحت هذه القصص للأخوين أمين وحسين هيكل وغيرهم إغراق صحفهم
بمثل هذه القصص الدراماتيكية، مظهرين شرور النظام البائد مع ذبوله، والحاجة إلى
إجراءات قاسية لاستئصاله وطمس آثاره نهائياً.

وبارك الأمريكيون هذه الخطوات إلى الحد الذي دعا السفير كافري إلى إعاره
النظام المصري أعظم الاختصاصيين في الدعاية السوداء والرمادية وهو ه بول لينبارغر،
الذي كان مسؤولاً عن الدعاية في مكتب الخدمات السرية الأمريكي أثناء الحرب العالمية
الثانية. وكان يذيع ما كان يظهر أنه ألماني ولصالح الألمان ولكنه في الحقيقة كان مثبطاً
لعزائم الألمان ومخطماً لهممهم.

وقام لينبارغر بتعليم المختصين بالدعاية من المصريين كيف يقومون بتحطيم
الشخصيات المحبوبة (ومنها اللواء نجيب على سبيل المثال) بطريقة مدحهم والثناء عليهم
ولا يزال هذا الأسلوب متبعاً حتى اليوم من قبل الغربيين في سياسة العالم العربي.

الجيش:

إننا في غنى عن القول إن الجيش المصري كان حصن عبد الناصر الحصين وقاعدة
قمعه المنيعه. وقد تمكن عبد الناصر من ذلك عن طريق تأكده من عدم وجود أي
شخص ذي طموح سياسي أو اتجاهات ثورية في مركز حساس أو في أي مركز على
الإطلاق.

أما ضباط عبد الناصر ذوو الطموح السياسي المعروف فقد أخرجوا من الجيش
واسندت إليهم مناصب مدنية، إما شكلية أو مهمة. ولكنهم في كلتي الحالتين إما أن
يكونوا أهلاً للمنصب الجديد أو أن يتحطموا ويظهر عجزهم عن الإدارة.

أما الضباط الذين ما زالوا ينوون القيام بانقلاب جديد، أو أولئك الذين أظهروا
امتعاضهم لإقصائهم عن مراكز القيادة في الثورة، أو أولئك الذين ما زالوا يدينون بالولاء
للنظام القديم، فقد أعطوا الفرصة تلو الفرصة كي يتأمرؤا، وبالتالي ليحكموا على
أنفسهم بالإجرام أو أنهم كانوا يستدرجون إلى ذلك عن طريق بعض المحرضين المدسوسين
ليعتقلوا بعد ذلك من قبل البوليس السري.

وبقي هناك الضباط الذين لا غبار على سلوكهم، ويمكن أن يخضعوا للنظام ويضمن ولاءهم عن طريق إرضاء رغباتهم، كمنحهم بعض الامتيازات لرفع مراكزهم وبعث الفخر في نفوسهم، إلى جانب بعض العلاوات والتسهيلات التي لا تضر وطالما أنهم غير ثائرين ضد علاقة عبد الناصر بأصحاب الفكر واليساريين وأشخاص آخرين غير مرغوب بهم أو بالأحرى طالما أنه لا يترك لهم الوقت الكافي ليفكروا بمثل هذه المسائل فلا مانع من اعتبارهم قوة موالية يعتمد عليها إذا ما دعت الحاجة لذلك.

وتجدر الإشارة هنا إلى وجهة النظر الأمريكية بخصوص استخدام عبد الناصر للجيش كقوة للقمع فهي تقول: عندما طلب عبد الناصر في الأيام الأولى من حكمه مساعدات عسكرية، لم يكن هناك أي بحث في أن تكون هذه المساعدات لأهداف قتالية عادية مثل قتال الإسرائيليين أو اليمينيين أو غيرهم كما لم يكن هناك أي بحث في أن تكون كميات السلاح ضخمة أو فوق المتطلبات الداخلية المحضة.

فلقد أكد عبد الناصر بوضوح لجميع السفراء الأمريكيين أن نظامه يعتمد على الجيش لضمان بقائه. وأنه يعتبر أي جيش رث الثياب مهلهل المظهر جيشا تفوح منه رائحة العداء والتوثب.

وقد طالب عبد الناصر في أيامه الأولى بأربعين مليوناً من الدولارات كمساعدة عسكرية وما لبث أن اختصرها إلى عشرين مليون دولار، ثم مسخت إلى مليون أو مليونين من الدولارات لتغطي شراء أجهزة وأدوات للاستعراضات العسكرية كالحوذ وقرابات المسدسات الجلدية وقطع براقية من مختلف الأنواع تكفي لإظهار الجيش بمظهر جميل عند استعراضه في شوارع القاهرة وبحيث تعكس على الضباط والجنود الشعور بالاعتزاز والفخر.

وكما سأشرح فيما بعد فإن تلك وزارة الخارجية في الموافقة على منح مثل هذه المعونات المحدودة هو الذي دفع بعبد الناصر للاتجاه نحو السوفييت والحصول منهم على مساعدات ضخمة تفوق الأربعين مليون دولار (التي طلبها في البداية) مرات عديدة.

في الوقت الذي طلب فيه عبد الناصر مساعدات خارجية لجهاز مخابراته ودوائر أمنه وكانت حكومتنا تجد حرجا في مساعدته مباشرة. ولأسباب تتعلق بسياسته. فقد ألح ناصر على طلب خبير عسكري يتقن إدخال النظام الروسي إلى جيشه الحديث، واقترح الملحق العسكري الأمريكي اسم الجنرال "ويلهام فارم باشر" الذي كان يجد صعوبة في العودة إلى ألمانيا لميوله النازية السابقة. كما أن فقدانه لأية مواهب خاصة تتناسب ورتبته العالية لم تجعل منه شخصية مرغوبة في أي مكان آخر. إلا أن جرأته التي ذاع صيتها في الحرب العالمية الثانية قد جعلته مؤهلا للاضطلاع بمسؤوليات كنتلك التي كانت في مصر يومها -على حد رأي بعض ضباط المخابرات الأمريكية- وهذا ما حدث فعلا.

فقد كانت أولى مناورات الجيش المصري تحت إمرته. ولكن لم تحظ القوات "الخضراء" بالقوات "الحمراء"، طيلة المناورة في الصحراء، لأن، "فارم باشر" كان قد أعطى كل فئة خرائط الآخر بالخطأ. وكانت التعليمات والأوامر معقدة لدرجة أن القوات لم تتمكن من ملاحظة الخطأ. وعلى كل حال فقد كان ذا رتبة عالية جدا مما نال إعجاب عبد الناصر وزادنا حظوة عنده وبعدها كانت قصة "أوتو سكورزني" الذي اشتهر بخطفه الموسوليني من معتقله الحصين.

وكان أوتو من المفضلين عند الهيئة الأمريكية للعمل ضد مخابرات الأعداء وقد أقام صداقات قوية مع الذين أسروه قبل أن يفلت من قبضتهم. وكان من المعتقد أنه يصلح المسير مع عبد الناصر من ناحية طباعه وشخصيته. وجرى الاتصال معه روتينيا، ثم على مستوى أعلى، وبعد ذلك عن طريق زيارة شخصية قام بها لواء في الجيش الأمريكي له، وأخيرا بواسطة والد زوجته الدكتور مجامر شاخت، وزير مالية هتلر.

ومع أنه كان قد فقد شغفه في أعمال المخابرات والأمن وكان يدير أعمالا أكثر ربحا. فقد وافق أخيرا على زيارة مصر ليقف بنفسه على مدى ما يمكنه تقديمه في زيارة قصيرة. ومهما كانت النتائج فقد قيل -وهذا غير صحيح- أن سكورزني مكث في مصر عدة أشهر كمساعد لعبد الناصر للشؤون العسكرية والشؤون الجغرافيا السياسية.

إلا أن طول المدة التي مكثها سكورزني في القاهرة قد أثارت موجة اتهامات ضد نظام عبد الناصر وأظهرته على أنه يدار خلسة من قبل نازيين متعصبين. ولم يكن باستطاعة سكورزني مغادرة مصر بسرعة تخفف من حدة الهجوم على ناصر. إلا أنه أخيرا عاد إلى مزرعته التي اشتراها في أيرلندا ومن ثم التحق ثانية بمقر عمله في شركة هندسية في أسبانيا كانت تدر عليه ربحا وافرا.

وقد فكر سكورزني بشيء من الإخلاص بإرسال حوالي مائة من الألمان، إلى مصر كانوا سبب الضجة المعادية لناصر يومها. وحقيقة هؤلاء أنهم: كانوا - باستثناء واحد أو اثنين - من ذوي المناصب المتواضعة، ولم يكونوا من النازيين المتزمطين بدليل سرعة تأقلمهم مع التفكير اليساري لحكومة ناصر وقد اضطرتهم لهذا حاجتهم لكسب عيشهم وليس غير ذلك.

لم يحاول المصريون الاعتماد عليهم رئيسيا بل اكتفوا بسماع بعض نصائحهم كما كانوا يعاملونهم بشيء من عدم المبالاة وخصوصا عندما يضطر أحد الألمان الانتظار لساعات المقابلة أحد المسؤولين المصريين للإدلاء ببعض النصائح أمام.

لم يدفع المصريون أية مرتبات مغرية للألمان على عكس ما كانوا يدفعونه للخبراء من الجنسيات الأخرى كالبريطانيين والأمريكيين. فالجنرال فارمباشر - كمثال - لم يكن يتقاضى أكثر من خمسين جنيها مصريا في الشهر إلى جانب بيت قريب للسكن. في حين كان يتقاضى بعض المستشارين الأمريكيين أكثر من ٥٠٠ جنيه شهريا إلى جانب مسكن فخم وسيارة مع سائقها.

والحق يقال إن عبد الناصر وزكريا، بالرغم من كل المستشارين الأجانب قد بنوا أجهزة المخابرات والأمن بدون أية مساعدة خارجية تذكر. وعلى حد زعم أجهزة المخابرات الغربية - عن طريق تسليها إلى هذه الأجهزة - أن هذه الأجهزة تتمتع بكفاءة عالية وافية بالغرض.

وأخيرا: فبالقوانين والمراسيم، وبالبوليس وأجهزة المخابرات، وبالمدعية والجيش، شكل عبد الناصر قاعدة للقمع تمكنه حقا من حكم مصر بنفس الطريقة التي حكم بها بابا دوفاليه جزيرة هايتي - دون أن يستعمل كل تلك الوسائل دفعة واحدة.

وقد اعطته مركزا قويا يستطيع أن يصدر منه أية قرارات إيجابية بدون أن يخاف ويخشى أية انتفاضات شعبية.

ولقد قيل الكثير عن اتباع عبد الناصر للأساليب البوليسية في الحكم والإدارة مثل منع ممارسة حرية الرأي والتعبير، ولكن الحقيقة أن عبد الناصر لم يفعل أكثر من التخلص من بعض الصحف التافهة التي اعتادت أن تستقي أخبارها من الإذاعة البريطانية والإسرائيلية. ولذلك لم تشعر طبقات الشعب المتوسطة أنها قد سلبت أية حرية من حرياتها بتصرفاته تلك. أما المصريون أعداء عبد الناصر فهم أعداؤه سواء منحهم أية من هذه الحريات أم لا، وعلى هذا فإنه سيخسر بعقد أية صفقات صلح أو مساومة معهم، ولن يربحهم إطلاقا

وكان أمرا محرجا وكرهيا للمراقبين الغربيين أن يروا حجر الممتلكات واعتقال الناس مجرد الشبهة. مع تكميم الصحافة ومعاملة المراسلين الاجانب برعونة وفظاظة. ولم تكن هذه الأعمال محبة إلى نفوس أصدقاء عبد الناصر الذين كانوا في السلك الدبلوماسي، وكان لهم علاقات اجتماعية متشعبة مع طبقة المصريين المروضة (البورجوازية) والتي عانت الكثير..

ومن جهة أخرى فإن اجراءات عبد الناصر في الشدة والقمع - بغض النظر عن مظهرها أمام العالم الخارجي - كانت تخطط بهدوء ولم تكن لتتخذ اعتبارا. وهذا يعني أن عناصر محدودة هي التي عانت من ذلك وليست عامة الشعب وقد كان عبد الناصر يبرر أعماله القمعية بحجة (الدفاع) عن النفس تماما كما يفعل اليهود بمنعهم الهيئات غير اليهودية من العمل في بلادهم.

وكان يعتقد بضرورة إخضاع الفرد إلى الدولة في جميع مظاهر الحياة وإن كان لا بد من الاعتراف بالحقيقة أن هذه السيطرة ستمارس بنفس التخلف الذي تدار به شؤون الدولة الأخرى. كما أنه من طبيعة الأشياء أن يكون البوليس في بلد شرقي أكثر غباء من أمثاله في الدول الغربية.

ومن جهة أخرى فلا مانع من القول بأن المصريين قد حصلوا على نتائج أفضل فيما يختص بقضايا الأمن، وبتباه وعجرفة أول من السائدة في بقية دول الشرق الاوسط.

ومع مرور الأعوام فقد حافظ عبد الناصر على وسائله في القمع بشتى الطرق، مع أن الناظر العديم الخبرة لن يراها من وقت لآخر إلا ألغازا محيرة.

وذلك أن عبد الناصر كان يدفع إلى المسرح عملاء جددا ذوي أهداف وغايات تظهر بأنها للجميع. ولكنها كانت انتهازية ميكيفيلية مثل: بوليس ضد الاقطاع، ومحققى الاتحاد الاشتراكي العربي وغيرهم من الذين كان يحركهم ضد بعضهم البعض ليحصل على فوضى منظمة ومحسوبة، في الوقت الذي يريده ويحتاجه في سياسة العنف والشدة.

إن أهم ما يجب أن يفهمه المراقب الدبلوماسي من أسرار تصرفات وسائل القمع

عند عبد الناصر هي:

أولا: بالرغم من بعض المظاهر الآنية المعاكسة (مثل أخبار الاحتكاك بين عبد الناصر والجيش) فإن وسائل القمع كانت دائما على أهبة الاستعداد، ولها المقام الأول في اهتمام عبد الناصر واعتناؤه. كما أن كثيرا من تحركات عبد الناصر على المسرح العالمي، من التي اعتبرها المراقبون الأجانب مخالفة للمزاج المصري، تفسر على أنها إحدى حاجات عبد الناصر للاحتفاظ بوسائل القمع في داخل بلاده.

ثانيا: وبالرغم من أن كثيرا من الرسميين الغربيين الذين يكرهون عبد الناصر قد هاجموه ونعتوه بأنه ديكتاتوري فاشيستي وكان معظمهم من المسؤولين في الحكومة الأمريكية والبريطانية إلا أنهم كانوا على علم تام بكل خطواته عندما كان يبني وسائل القمع وأجهزته متجاهلين عمدا كل تصرفاته في هذا المجال.

وفي كتابه «مصر الجديدة وعبد الناصر»، يشرح "كيت ويل لوك" وجهة نظر يعتبرها ممثلة لوجهة نظر المراقبين المطلعين في الخارج في الثورة المصرية. وفيها يشير إلى ذاك "التردد"، الذي كان يتصف به عبد الناصر. كما يشير إلى تذبذب، مجلس قيادة الثورة الظاهر بين النظام البرلماني والدكتاتورية العسكرية. ويتأسف ويل لوك على تلك المبادئ التي هجرتها حكومة الثورة في مصر بعدما رفعتها عاليا وانتهى أخيرا إلى أن أي مؤرخ يحاول أن يدون تاريخ تلك الفترة المضطربة في مصر سيكون معذورا إن كال لعبد الناصر وجماعته القذف والاتهام

الا أن الحقيقة لم تكن كذلك -وسنرى هذا لاحقا-. فلقد كان عبد الناصر أبعد ما يكون عن التردد والتقلب طوال تلك الفترة

وأن تذبذبه الظاهر بين الحكومة البرلمانية والدكتاتورية العسكرية كان موضع دراسة عميقة وعناية فائقة من قبل الرسميين الأمريكيين وغيرهم من بعض الشخصيات المدنية الشهيرة بميولها الليبرالية. ولكنهم كانوا كلهم ينظرون إلى الاوضاع في مصر نظرة واقعية وقد أدركوا أنه لا طريق آخر أمام عبد الناصر ليسلكه غير هذا الطريق. وأن أية محاولة مبكرة - وقبل أوانها -

للعودة إلى تلك المبادئ التي نادى بها الضباط الاحرار سابقا سوف تنتهي إلى فوضى واضطراب كاملين.

وإذا كنا لم نشارك ناصر فعلا في انقلابه وفي توطيد سلطته وفي بناء وسائل القمع في بلاده فذلك يعود إلى رفض ناصر لمساعدتنا له فيما عدا بعض النصائح التي كانت تهم الطرفين معا، كما أننا لم نبد أية شكوى من سلوك ناصر مسلك الديكتاتورية، لأننا كنا نعتقد أنه سيشرع في أول فرصة مناسبة في إيجاد الظروف الملائمة التي اتفق عليها مع روزفلت كمتطلبات ضرورية لإعادة الحياة الديمقراطية الحقة وهي: محو الأمية، وتقوية وتوسيع نفوذ الطبقة الوسطى، وانتشار الشعور عند الشعب أن الحكومة منه وإليه، ورسوخ الأفكار والقيم الوطنية حتى يصبح من السهل قيام مؤسسات ديمقراطية وطنية وليس مجرد تقليد أعمى لما هو في الولايات المتحدة أو بريطانيا.

تعاملنا وبغض النظر عن كيفية نمو وسيطرة وسائل القمع، فعلينا أن نقر في مع ناصر أن وجودها مهم بالنسبة لبقائه. ويجب أن لا تعترينا الدهشة عندما نرى أن عبد الناصر وضباطه جلسوا بعد أشنع هزيمة في التاريخ العسكري الحديث (حرب ١٩٦٧) لا ليتباحثوا في طريقة إعادة بناء مصر من جديد بل لينسقوا خططهم حيال طريقة إعادة الثقة إلى الجيش. وستبقى هذه الفكرة ذات المنزللة الأولى في التفكير المصري ولسنوات طويلة مقبلة.

الطرز الناصري للحكم ووسائل البناء

«وهدفه الثاني توطيد سلطته بالبناء والإصلاح»

في أوائل عام ١٩٥٦ قضيت مع الرئيس عبد الناصر والسفير المتجول اريك جونستون أمسية طويلة في حديقة قصر الأول نتباحث حول ما يستطيع عبد الناصر تقديمه من مساعدة لعرض مشروع نهر الأردن على زعماء الدول العربية الأخرى. وكان مشروع جونستون يهدف إلى اغراء العرب للدخول في تعاون محدود مع الإسرائيليين على الأقل. ولم يكن المشروع أكثر من فكرة من الدرجة الثالثة ارتفعت إلى الدرجة الثانية لمجرد اختيار مفاوض من الدرجة الأولى لها، هو اريك جونستون. وأما فرصة نجاح المشروع فهي وجود شيء من المنطق فيه. ففي حالة تنفيذه سيستفيد السوريون واللبنانيون والإسرائيليون والأردنيون من اصلاح ٣٠٠ ألف فدان من الأراضي الصحراوية مع توفير القوة الكهربائية للصناعات اللازمة لتشغيل اللاجئين الفلسطينيين الذين سيتعرضون للفاقة والجماعة لسنين طويلة قادمة إن بقوا دون موارد ثابتة.

وقد تأثر عبد الناصر كثيرا بحجج جونستون العملية، غير أن العقبات السياسية كانت أكبر من أن يتحداها بنفسه ويتخطاها.

ومع ذلك فقد بقي الموضوع شيقا ومغريا لاستمرار المناقشة، فقد قضينا النصف الأول من الأمسية نتلمس الطرق المؤدية إلى إنشاء هيئة نهر الأردن على نفس منوال - هيئة سهل تينيس- التي يمكن لها أن تحل محل خطط مشاريع التنمية الإقليمية التي تزمع الجامعة العربية وغيرها اخراجها إلى حيز الوجود.

وفي هذه المرحلة من حكمه، كان عبد الناصر يشك في جميع مشاريع التنمية الإقليمية وبالسوق العربية المشتركة، وبالأراء الأخرى التي تدور حول التعاون الاقتصادي العربي، وإن كان لا يمانع من تمضية الوقت ببحثها.

وأمضينا القسم الأخير من الأمسية نستعرض المضاعفات السياسية المنفرة من المشروع. فقد أبدى عبد الناصر عطفه الشديد عليه عموما، ولكنه قال لجونستون:

«لقد جئتني في وقت لا أملك فيه القدرة على الإقدام على أي عمل لا يحظى بموافقة الجماهير الشعبية».

واندفع بعدها في محاضرة كانت تفيض بتوابل الفلسفة الليبرالية، مثل: «المرونة السياسية» و «إطارات التسامح»، بصورة جعلته يعتقد أنه كلما زادت شعبيته فإنه يصبح أكثر حرية في تفكيره فيما يعود بالفائدة على مصر. أما أثناء شعوره بضعف مركزه وشعبيته فإن عليه أن يسلك طرقا يتوقع مناصروه أن يسبقهم إليها، بغض النظر عن نتائج ذلك على مصر نفسها.

وكان جونستون يصغي بصبر متزايد ما لبث أن نفد، فقال لناصر إنه قد أمضى الأسبوع الفائت وهو يصغي إلى عديد من المقترحات البديلة التي اقترحها الزعماء السوريون واللبنانيون، ولكنه أصيب بخيبة أمل عندما سمع زعيم العالم العربي بلا منازع يتحدث عما يمكنه، وما لا يمكنه فعله بنظر الغوغاء (الديماغوجيين). ووقف جونستون مهتما بالانصراف. وصافح عبد الناصر واتجه نحو الباب. ولكنه ما لبث أن التفت بطريقة دراماتيكية (ملئية بالحركة والانفعال) وقال: «سيدي الرئيس لقد تذكرت الآن كلمات مأثورة لزعيم الثورة الفرنسية، الغوغاء في الشارع، وعلي أن أعرف إلى أين وجهتها وذلك لأنني أنا زعيمها» ... وهنا ارتسمت ابتسامة الابتهاج على شفتي عبد الناصر وقال: «تماما، هذا صحيح بالضبط».

كان قبول عبد الناصر للملاحظة البليغة التي أبداهها جونستون على غاية من الطرافة (وما كان له أن يترك رجل الاعمال الأمريكي يفلت منه بهذه السهولة)، ولكنه في قبوله إياها أراد أن يعيد إلى ذاكرة جونستون أن أي زعيم، في أي مكان وخصوصا في بلد كمصر، ليس لديه إلمام بوجهة الغوغاء وأهدافها، لا يكتب له البقاء كزعيم لمدة طويلة.

وفي اجتماع لاحق بجونستون قال: إن المهمة الأولى الملقاة على عاتق الزعيم هي أن يدرك أنه هو الزعيم وليس غيره، ولا يمكنك أن تصبح، زعيما صالحا، إلا بعد أن تجتاز المرحلة الأولى. أي أن تصبح، زعيما عاديا. ومضى عبد الناصر بثبت أنه كزعيم قد أدرك (أكثر من غيره) أن الغوغاء إذا ما أطلقت غرائزها، وأفلتت من عقابها فسوف

تدمر نفسها بنفسها، ولكن لا يعني هذا أن باستطاعتي أن أتجاوز ما تريده مني وتفرضه علي.

ويومها لم يتوفر زعيم في التاريخ الحديث يعرف تمام المعرفة ماذا تريد الغوغاء وإلى أين وجهتها أكثر من عبد الناصر نفسه. وبعبارة أخرى، لم يكن هناك من أدرك أكثر من عبد الناصر نفسه - الحقيقة المحزنة بأن الغوغاء لا تدري أنها ضائعة، ولا تعرف إلى أين هي ذاهبة، ولا حتى على ضوء مصالحها الذاتية. فالغوغاء لا تريد مصالحها الحقيقية التي إن تحققت أعطتها كفاية وراحة، وليس مجرد قهدة آنية للآلام. وكانت مهمة عبد الناصر التلاعب بإرواء الرغبات ذات المدى القصير (أو المستعجلة) وذلك لكسب الوقت بينما يسعى لإعداد الوسائل اللازمة لإرواء الرغبات المؤجلة (البعيدة).

ومن حظ عبد الناصر أن مفاهيمه هذه لم يكن من السهل إدراكها. فعندما كان يخطط للثورة كانت لديه فكرة عما يجب على الشعب المصري أن يطالب به وذلك ما كان هو نفسه يطالب به ولكنه بعد ثورته تأكد عنده أن مطالب الشعب المصري الحقيقية أبعد من أن يحيط بها فهمه، أو فهم أي زعيم مصري آخر.

وبعبارة أخرى، فقد كانت مشكلته أنه لم يجد الغوغاء المصرية تنتظره في الشارع، وكان عليه أن يخرجها إلى الشارع حتى يدرك إلى أين وجهتها. فلدى الشعب المصري دوافع كامنة للتعصب (كما قال باول ليتبارغر) وكانت كافية لتبرير حرق سفارة أجنبية بين الفينة والأخرى، ولكنها ليست بالقدر الكافي لدفع عجلة النشاط الثوري إلى الأمام. إن عبد الناصر قد أدرك أن المراكز المختلفة التي عليه شغلها في مسرحيات ولعبة الأمم، تتطلب أن يكون لدى العالم فكرة عن الدوافع والأهداف المصرية غير الحقيقية. إن عقدة التوفيق بين الرأي المصري الخاص والرأي المصري الرسمي الذي يحرص ناصر على عرضه للعالم جعل ثانيهما مقبولا عند أولهما لا تزال قائمه إلى يومنا هذا. في فصل لاحق، فإن إحدى المحاولات الصريحة لإظهار الرأي الخاص والتي جرت في عام ١٩٦٨ انتهت إلى النتيجة أن الشعب المصري لا يملك سوى حماس ضعيف إن لم يكن معدوما لاسترجاع هيبة العرب الضائعة في فلسطين. كما أنه لم يكن متحمسا أبدا لتحسين مكانة حزب ناصر السياسي الوحيد في البلاد. وقد عرفت هذا عن طريق جمع الأحاديث

المتداولة في المجالس والسهرات الخاصة التي أظهرت أيضا رغبة الشعب في أن يرى ذاك الحزب ممزقا إربا إربا.

وقد اضطر ناصر للدعاء أن الجماهير تطالب بصخب وإلحاح استمرار الحرب ضد إسرائيل، وذلك حتى يتمكن من رص صفوف الاتحاد الاشتراكي العربي ثانية، وليضيق الفرصة أمام الانهزاميين وأمام أولئك الذين فتنتهم دعاية العدو، وليبقى محافظا على بعض الأهداف التي ما زال في نفس الشعب المصري بعض العطف عليها.

والحقيقة فإن نجيباً لم يكن ذا طراز مستقل عن ذلك الطراز من الرجال الذين يظهرون في دعايات التليفزيون. وقد قابلت امرأة انجليزية نجيباً مرة وأخبرت السفير كافري بعد ذلك بأنه «شيطان بصورة مبهجة، وبشع المظهر ولكن بقدسية، ويغطي ذلك بابتسامة حارة. إنه مظهر الأب المثالي للمصريين، وقد شعرت بنفس الانطباع خلال اللقاءين الطويلين مع نجيب فكان نجيب يحاول أن يضفي على نفسه صبغة المهدي، أو صاحب الكرامات. وينشر هذا في ربوع الشرق الأوسط. وخاصة أن المصريين سيبتهجون بخيالات وتصورات من هذا القبيل، وهي صورة المحتال الودود. وكان نجيب من نوع المعبودين الذين يلتجئ إليهم المصريون في لحظاتهم الهائلة التي تتخلل فترات العنف التي يدفعهم إليها المتزمتون من قادتهم.

وأما كتاب «اللواء نجيب»، فقد كتب بقلم أحد الأمريكيين الأذكياء مستر ليه وايت، الذي كان أيضا مصمم الأقوال البليغة التي اشتهرت عن اللواء.

كان ليه وايت من أشهر من برع في سرد القصص وروايتها. وقد أبهج السفير كافري بالقصص التي تدور حول نجيب، كما أعطتنا تلك القصص صورة رائعة لعمدة قرية ماكر، لكنه محبوب، ولديه من الوقت ما يكفي المقابلة كل إنسان يواجه متاعب ومشاكل في حياته مثل زوجة تشكي من زوجها المدمن على الخمر، ورجل دين رأى رؤيا وعليه أن يجمع مالا لبناء مسجد في الحال، واقطاعي يشتكي من مستأجري أراضي..

ولقد أتاحت لي الفرصة لكي أسمع من كبار الضباط ومن ضباط الصف الثاني الروايات الحقيقية حول ادخال نجيب ضمن مجموعة ضباط الانقلاب. وكان هناك ثلاث نقاط تبدو مشتركة بين هذه الروايات كلها:

١ - عندما كان عبد الناصر وأعوانه بصدد تنظيم شبكة الضباط الأحرار، شعروا بحاجتهم إلى قائد برتبة عالية إنسان كلكم تعرفوه وتولوه احترامكم، ولكم الشرف والسرور أن تنضووا تحت لوائه حال سماعكم باسمه. وقد امتنعوا عن الإفصاح عن اسم معين، إلا أن الحقيقة لم يكن لديهم أي اسم محدد يومها.

٢ - لم يكن نجيب هو الاحتمالية الوحيدة، بل كان واحدا من جملة أشخاص للانتقاء منهم. وحتى اللحظة الأخيرة عندما أفلح عامر بإقناع عبد الناصر بأن نجيباً هو الاختيار المنطقي، لم يكن نجيب لتلك اللحظة على رأس القائمة.

٣ - مع أن لنجيب ماض ناصع في الشجاعة، وله شعبية واسعة عند الضباط، فقد كانت ميزته الرئيسية فقدانه للطموح أو رغبته في السلطة. وقد اعتقد الضباط الأحرار أن بإمكانهم التعامل معه وتسييره.

وفي الحقيقة فقد استطاعوا ذلك. فقد قام خالد محي الدين العضو الشيوعي في بطانة عبد الناصر مع أصدقائه بالتلاعب بسلسلة من الأحداث أدت إلى اختيار نجيب لسدة الرئاسة، ظنا منهم أنهم أقدر على سياسته والسيطرة عليه من عبد الناصر نفسه، وأنه بالإمكان أن يحل محل عبد الناصر فيما إذا شق الأخير عصا الطاعة عليهم.

وكان عبد الناصر بالتأكيد مدركا لهذه الغايات. وعلى أية حال، فإن لم يكن كذلك، فناصر يدعي الآن أنه كان يعرف ذلك. ولكنه لم يكن يخشى أيا من خالد وأصدقائه، بل تركهم يعتقدون أن عليهم قائدا من اختيارهم.. ومهما كان فبعد نجاح الثورة واعتلاء نجيب سدة القيادة لم يكن أنصار نجيب - الذين يستطيع عبد الناصر أن يسوسهم - هم الذين أخذوا يوحون له أنه هبة التاريخ لمصر، ولكن كان ذلك الإيحاء من. ليه وايت. ومع أن أحد الضباط كان يكتب لنجيب خطاباته فإن، ليه وايت: كان يقوم بتجميلها وتزيينها (بعد أن تكون قد ترجمت له إلى الإنجليزية) مدعيا بأنه يجعل منها أكثر ملائمة للأجيال القادمة كلها، أو بعبارة أخرى حتى تصبح مادة مناسبة لكتابة ترجمة حياة نجيب التي كان. ليه وايت. بصدها.

ولكن يهمننا إثبات الحقيقة أن كل ما أنجزه عبد الناصر قد حظي - وعلى الأقل وقتئذ - بتأييد الغربيين الذين كانوا حريصين كل الحرص على مصالح بلادهم دون أن يتبنوا مبادئ تتعارض ومبادئ العالم الغربي.

فقد كان عبد الناصر يريد قائدا شكليا للثورة فقط. وكان بإمكان نجيب البقاء هكذا إلى أبد الآبدين طالما بقي اقتناع عبد الناصر بهذا الموضوع قائما.

لقد اختير نجيب لملء منصب القيادة بسبب ميزات معينة أدرك عبد الناصر معها صلاحية نجيب للمرحلة الأولى من المراحل الثلاثة لتطوير البلاد.

. الدعاية:

إن الدعاية التي كانت إحدى أركان جهاز القمع، وقد اعتبرت أيضا من ضمن وسائل اكتساب التأييد الشعبي وأصبحت إحدى أركان سياسة البناء والإصلاح. وأما أهدافها فهي:

١ - تشويه سمعة الأعداء داخل البلاد بإظهارهم مظهر المفسدين والمستهترين بأبسط قيم المجتمع واعتباراته الحقيقية. ومع أن المصريين يدعون أنهم ضد الفساد المالي إلا أنهم حقيقة عكس ذلك. ولهذا فإن ثبوت الرشوة على أي سياسي لن يكون له سوى تأثير بسيط على حياته السياسية. ولكن إظهاره بمظهر الخليع الداعر غير المتدين يعني شيئا آخر أكثر تأثيرا فالحملة التي سمح بها ناصر خلال سنتي حكمه الأولى والثانية كانت مليئة بالقصص البذيئة والروايات الفاحشة. ولقد شنت هذه الحملة لأنها كانت الوسيلة الوحيدة المجدية لجر أفراد الطبقة الحاكمة المصرية القديمة خارج أبراجهم العاجية وتعريضهم أمام الشعب.

٢ - كان هدف الدعاية الثاني الإطاحة بكل الامتيازات الاجتماعية التي كانت تحمي الطبقات الارستقراطية، والتي بقيت إلى ما بعد تعريضهم من الأخلاق والقيم الفاضلة.

فلقد كان الخوف والرغبة من أفراد الطبقات الارستقراطية متأصلا في نفوس أفراد الطبقات الفقيرة إلى حد اعتبر فضح الأسرار الجنسية للأرستقراطيين أقل ما يمكن فعله لنزع خوف الطبقات الفقيرة.

فقد كان أحد موظفي سفارتنا يقول: (إن المصريين يحبون البكوات ولهذا السبب فقد أحبوا الدبلوماسيين البريطانيين ولم ينل أمثالهم من الأمريكيين احترام المصريين)، لكن عبد الناصر قام بتحطيم هذا الخنوع لحاملي الألقاب والبكوات التقليدية في مصر بشتى الوسائل الخبيثة، ومنها الأفلام السينمائية وتمثيليات التليفزيون التي تمثل رجلا عاديا يطالب بحقوقه ويضربه الإقطاعي صاحب الأرض.

إن مشاهد كهذه في قاعات السينما المحلية قد أثارت الاشمئزاز في البداية ولكن سرعان ما ألفتها الجماهير. فمشاهدة عامل على المسرح الآن تثير على رب العمل، أو مجموعة من الفلاحين تلقي الأحجار على مالك إقطاعي سابق لن تثير سوى موجة من الهمتاف عند النظارة مع أن أعمالا حقيقية كهذه غير مقبولة إطلاقا في الحياة العامة خارج المسرح.

٣- هدفها أيضا إحداث موجة من الخوف والذعر في الطبقات الارستقراطية (طبقة البكوات) عن طريق إثارة الشكوك حولها واتهامها بإجراء اتصالات سرية مع فئات أجنبية تنوي غزو البلاد وإحياء النظام البائد وإنزال العقوبات بالطبقات الشعبية البائسة لعصيانها وتمرداها.

ونظرا لأنه لا يتصور وجود فئة أجنبية فاقدة العقل والتفكير إلى الحد الذي يخطر ببالها الاعتماد على فئة البكوات المصرية للقيام بانقلاب ضد حكومة عبد الناصر، فقد كان لزاما على الحكومة إذن أن تقوم بتزييف الأدلة ضد المتآمرين المزعومين، ونشر خطط خيانتهم المصطنعة والمختلقة. وكانت بعض القصص المنتقاة بعناية والمعززة بالإشاعات، تنشر بمهارة كافية للغرض ذاته.

الحزب السياسي الواحد:

استغرب كثير من الدبلوماسيين الأجانب ورجال الصحافة الأذكياء اعتماد عبد الناصر الحزب الواحد في النطاق السياسي، واضطربوا من القيود المفروضة على الحريات المدنية. ولكن بما أنهم كانوا مطلعين على أهداف عبد الناصر للمرحلة الثانية، فإنه من العجيب أن يدرك الإنسان أنهم كانوا يتوقعون من عبد الناصر أي شيء غير تلك الاجراءات.

فكيف يمكن لنظام فيه حزبان سياسيان أن يخدم تلك الاهداف وينجزها؟ وكيف يمكن عندئذ تفادي حدوث أي تشويش أو اضطراب، وذلك ما يجب على عبد الناصر أن يتجنبه بأي ثمن كان؟

وإن كان من الطبيعي بالنسبة للغربيين أن يدافعوا عن فكرة المعارضة الحرة كأساس لتطوير المجتمع السياسي المتمدن ويناقشوها مع دي توكوفيل (كاتب مشهور) فإن مناقشتهم لعبد الناصر وتوقعهم إياه أن يفعل ذلك يوحي إلى أنهم سذج وبسطاء جدا. وسواء كان ناصر على صواب أم على خطأ. فمن الطبيعي له وعلى الأقل أن يعتقد أن نظام تعدد الاحزاب السياسية سوف يتمخض - كما أخبر عددا من الزوار الغربيين - عن استمرار المنافسة بين الحزب المدعوم من قبل الأمريكيين ضد ذلك المدعوم من قبل الانكليز وكذلك ضد الثالث المدعوم من السوفييت. وهكذا تبقى البلاد عرضة للتنافس بين هؤلاء الثلاثة إلا إذا كانت لدى الحكومة القدرة المالية على منافسة هؤلاء الممولين الثلاثة الكبار لتدعم حزبا من أفكارها وآرائها.

وأكثر من هذا فهو مدرك تمام الإدراك قابلية انجذاب العناصر المتفوهة من المجتمع المصري نحو الحركات المتطرفة، وكذلك نزعة هذه الحركات المتطرفة في أن تكون ضد الفئة الحاكمة مهما كانت نوعيتها وطبيعتها.

وأخيرا، وبدون الموافقة أو المعارضة، يجب على المراقب الغربي أن يدرك تمام الإدراك أن مرحلة عبد الناصر الثانية - كما يراها بنفسه - تتطلب فترة من الانضباط والخضوع السياسي والاقتصادي والاجتماعي. وفي اثنائها يتمكن من حشد أفكار وطاقات الشعب الدخول للحالة الثالثة، الشائكة المرعبة.

إن عبارة: «الشعب الحر» كما يراها عبد الناصر ويفهمها، بإمكانها أن تفعل وتنجز كثيرا في دولة غربية مثالية. ولكنها لا تعني، في دولة عربية نموذجية، إلا هدر الطاقات في طرق معطلة للإنتاج ومعوقة له.

إنه يجب علينا أن نقرر ما يلي: استنادا إلى نظرة الحكام من الطراز الناصري إلى الأمور، فإن كل ما تحتاج إليه الجماهير - على حد رأيهم - هو حرية التصويت وليس حرية مناقشة أو معارضة ما هم مدعوون التصويت عليه إلا ضمن حدود الحزب الواحد الحاكم.

ففي الديموقراطيات الغربية يعتبر الحزب أداة يستعملها أفرادها للضغط على الحكومة وحملها على أن تفكر بطريقتهم إلا أن الحزب في مصر هو أداة الحكومة لحمل الشعب على أن يفكر بالطريقة التي يريد لها حاكم الدولة. ومن السذاجة المطلقة والغباء الصرف أن نتصور مهمة نظام الحزب الواحد غير هذا.

. الآلاف المؤلفة من الموظفين:

عندما ذهبت وفريق من المهندسين في فن الادارة إلى مصر سنة ١٩٥٣، كانت بعثتنا ذات طابع رسمي وبهدف تنظيم إدارات ومؤسسات الدولة المصرية لتعطي أكبر مردود في الخدمة العامة وبأقل عدد ممكن من الموظفين. وبعبارة أخرى، جعل الادارة نافعة وفعالة.

ولكن سرعان ما أدركت أن النظام الاستعماري البريطاني (أو النظام الذي كان سائدا في أمريكا في عهد فرانكلين د روزفلت) هو المفضل لبلد مثل مصر - ولا نزال ماثلة في مخيلتي صورة رئيس دائرة الجمارك عندما ارتعدت فرائصه أمام اقتراح قدمه أحد زملائي بخصوص طريقة تصريف شؤون دائرته. فقد كانت الطريقة الجديدة المقترحة تساعد على الإسراع بالإجراءات الجمركية الشائكة، وتقدم خدمات أفضل لشاحني البضائع، وتقلل من فرص التهرب من تسديد الرسوم المتوجبة. ومع ذلك فقد كانت موضع اشمئزاز وامتنعاض رئيس الدائرة لا لشيء سوى أنه لا يحتاج تنفيذها لأكثر من عشرة موظفين بدل الثلاثين موظفا المداومين يومها في تلك الدائرة.

ولكن دهشتي قد زالت عندما التقيت بصديق بريطاني كنت أسعى حثيثا لأسمع بعض نصائحه، فقال لي: «لو كنت المسؤول عن معالجة الوضع، فباعثقادي أنه يجب علي استخدام خمسين موظفا وليس ثلاثين إلى عشرة موظفين.. إن غاية الحكومة في مصر (من وجهة نظر أكثر عمقا) ليست خدمة الشعب وتسهيل مصالحه بقدر ما هي تجنب القسم الأعظم من الشعب التسكع في الشوارع بدل تركه عاطلا عن العمل مشردا، الأمر الذي يجعله يشكل خطرا كاسحا.

ولو أن بريطانيا لم تنفذ هذه الفلسفة في مستعمراتها، فإن بلادا مثل الهند والباكستان ونيجيريا وغانا كانت ستحرم من قسم كبير من لابسى الياقات البيضاء الذين يشكلون الطبقة الوسطى فيها ولن يجد عبد الناصر بعدها من ينتسب إلى اتحاد الاشتراكي العربي.

وفي أوائل ١٩٦٧ كان عند عبد الناصر حوالي مليون موظف مدني في جهازه البيروقراطي، باستثناء إدارات الجيش والشركات المؤمنة.

إن مؤسسة بوز آلن آند هاميلتن (وهي أكثر مؤسسات الدنيا جدارة في قضايا الادارة العامة) قالت إن الحكومة المصرية لا يمكنها أن تستخدم أكثر من ٢٠٠ ألف موظف. ولقد دفع عبد الناصر ثمن فوضى الإدارة في بلاده.

إن في حوزته مليوناً من لابسى الياقات البيضاء من أفراد الطبقات الوسطى التي يقطن معظمها في مدينتي الاسكندرية والقاهرة، والذين عليهم أن ينضوا تحت لواء الاتحاد الاشتراكي وإلا لما خدموا أهداف زعيمهم.

أما بخصوص موجة الفساد فذلك نتيجة لا بد منها لظاهرة حشو الإدارات بما لا يلزم من الموظفين. وقد استخدمها عبد الناصر كما استخدم (دامون رونيون) الاتجار بتذاكر السينما [البيع بأعلى سعر بقصد الربح، يقصد أن الطريقة تجر ويلات أشد] لتمويل مشروع مكافحة السرطان.

وبدلاً من الاكتفاء بملاء الجيوب بالطرق غير المشروعة، فقد عمدت طبقة عبد الناصر البيروقراطية طبقة الموظفين وخاصة التي هي في تماس مباشر مع الشعب مثل وزارة الشؤون الاجتماعية والداخلية والتربية إلى خدمة الأمة والنظام تماما بنفس الطريقة التي

خدمت بها قاعة التاماني [مقر قيادة الحزب الديمقراطي بنيويورك ويعني أنها لم تنفعه بشيء] مرة الحزب الديمقراطي في نيويورك.

الأسطورة:

كان ناصر طرفا في العديد من الدراسات والمناقشات التي دارت بينه وبين المتأمرين معه من الضباط، وقد تحلى فيها بالصبر والأناة. إلا أن تلك المناقشات لم تكن سوى من النوع الذي يرمز له بأنه جيد إن كان بساقين وسيء إن كان بأربع.. وقد أدرك ناصر دائما أنه حتى أقل الناس ثقافة - إلى جانب غيرهم من المثقفين - لا بد من استمالتهم عن طريق تقديم مغريات أكثر واقعية وحيوية من تلك التي بمقدور ضباطه الإعلان عنها أمام الشعب.

لقد بذل ناصر قصارى جهده للعثور على باعث ومحرض، يملك توحيد الأمة وتجميع شملها حوله. لقد كان ناصر بحاجة إلى عامل ما، ذي تأثير شبيه بتأثير الإضراب العام على نقابات العمال في فرنسا، أو شبيه بتأثير الثورة الحمراء الذي يريده ماركس. وبعبارة أخرى، لقد كان ناصر بحاجة إلى ما عبر عنه جورجس سوريل، منذ أكثر من سبعين سنة، وحدده باسم «الأسطورة»، وهي: عبارة عن مجموعة تصورات وانطباعات تملك القدرة على إثارة كل العواطف والمشاعر بطريقة غريزية وأن تتخذ طابعا مماثلا لأحد أوجه الحرب التي تشنها الاشتراكية ضد المجتمع الحديث، إلا أننا يجب - في مقامنا هذا - أن نستبدل كلمة الاشتراكية، بلفظة، الثورة، وكلمة المجتمع الحديث، بلفظة، أعداء الثورة، بغض النظر عن قصد ناصر الحقيقي من وراء هذه الألفاظ.

وليس من المهم أن يعني ناصر أي شيء محدد من وراء تلك الألفاظ.

فلربما تنجح الأسطورة في حشد العواطف ضد أي مجهول كبير، وذلك لأن الأسطورة لا تعني حقيقة سوى مناشدة العواطف دون العقل والتفكير السليم. وكل مستلزمات الأمر - كما يقول سوريل نفسه - هو توفر مجموعة من الرجال ليشاركوا في حركة اجتماعية ضخمة شريطة أن يتوفر عندهم الانطباع أن عملهم هذا إنما هو المعركة التي سيتحقق لقضيتهم فيها الانتصار بصورة كافية لا شك فيه ولا التباس.. ولربما تكون

الأسطورة على درجة كبيرة من الغموض والإبهام، أو أنها ناقصة التفاصيل. ولربما تظهر على أنها ليست أكثر من مجرد أحلام لا وصف لها ولا تحديد.

وليس من الضروري أن يكون هناك أي ارتباط بين الحقائق الملموسة وبين الانطباع الذي كونه الشعب لنفسه قبل أن يباشر العمل (ولا يشترط وضوح هذه العلاقة - إن كان هناك أي منها - للرجل المفكر).

فالأساطير ليست شروحا وأوصافا لأشياء محددة، ولكنها تعابير عن التصميم على العمل والعزيمة على النضال. ولا يمكن دحض الأسطورة أو تكذيبها وذلك لأنها تكون في الأساس منسجمة مع اعتقادات المجموعة، كما أن الأسطورة هي بحد ذاتها تعبير عن تلك الاعتقادات ولكن بلغة العمل والحركة.

وبالتالي فإنها صعبة التفكيك ولا يمكن ردها إلى العناصر التي تكونت منها لإعادة دراستها وتسلسلها التاريخي والتحقق من أصلها.

ومن غير أن أكون واثقا من أن ناصرا قد قرأ كتاب سوريل أم لا، وبدون استعمال كلمة الأسطورة نفسها، فإن ناصرا كان يعبر بين الحين والآخر عن أفكار مشابهة للأفكار السالفة الذكر مع فارق بسيط. ولم يختلف ناصر كثيرا عن مدير تلك المدرسة التي ينتسب طلابها إلى طبقة، أصبحت غنية حديثا. والذي اجتمع بهيئة المدرسة وطلب منها تقرير تقاليد جديدة تتبناها المدرسة وتكون ذا تأثير على عائلات الطلاب. فقد قرر ناصر أن يتخذ لنفسه طابعا مميزا وبالتالي أن يتبنى أسطورة، معينة. ومع أن ناصرا قد اختار أسطورة لا تمثل أيا من طموح الشعب وآماله إلا أنه تفاعل أن يتخذ الشعب من تلك الأسطورة مبادئ له وأهدافا.

ولا ندعي أن عبد الناصر بدأ من الصفر: لقد بدأ بادراك تام لتخيلات وأحلام الشباب المصريين بنفس الطريقة التي يحلم بها المراهق الغربي بإنقاذ فتاة رائعة الجمال من عمارة تستعر فيها النيران، أو بطريقة الموظف العابس كثير الصياح الذي يتخيل أنه يستطيع أن يبرز رب عمله المستأسد ويتفوق عليه.

فالفقير المصري يتصور أنه بطريقة ما سيتغلب على الأوربيين الذين احتقروه لزمان طويل. ولقد سمعت ضباط عبد الناصر الأحرار وهم يتبادلون القصص المفصلة لساعات

طوال من غير انقطاع، عن بطولاتهم ضد قوات الاحتلال البريطانية، وكل تلك القصص مزيفة من غير شك.

وكان عبد الناصر مدركا تمام الإدراك للشيء الذي سيجعل منه بطلا في أعينهم. وكما قال دانيال ليرنر: المتفائلون - فقط - في الغرب فسروا استيلاء عبد الناصر على السويس (كمثال) على أساس أنه قام به بدافع الحصول على رسوم القناة وعائداتها.. لقد عرف عبد الناصر كيف يصبح رمزا لنهضة الشعب المصري المضطهد. وكما قال مورد برغر: لقد حاول إذلال كل من أذل العرب.. وبعبارة أبسط، فلقد ظهر على أنه أول منتصر منذ سنوات طويلة خلت، وفي دولة اعتاد شعبها على أن يعتبر نفسه من الخاسرين دائما.

وكونه منتصرا، فلقد حاول أن يظهر في مظهر متواضع عندما كان يصف نفسه على أنه مجرد ممثل أعلى للشعب، ولا يستبعد أن يكون ذلك أصيلا في نفسه. وهكذا فهو يشبه كلا من موسى وكرومويل ولينين.

إن ثقة ناصر الفائقة بنفسه يشعر بها كل من يقابله، وسبب ذلك أنه - كأولئك النماذج موسى وكرومويل لينين - قد ملأ دورا في مسرحية كان يفتش مخرجها عن ممثل ينجح في تأدية ذاك الدور، كما أنه قد أفصح عن هذا في كتابه «فلسفة الثورة».. ولهذا فإن تأديته لذاك الدور عمل أخلاقي ومثالي بدون أدنى ريب، كما أنه جزء لا يتجزأ من الأسطورة..

وأما أتباعه فانهم - شعوريا أو لا شعوريا - يرون علاقتهم بتلك القوة العظمى قد تجسدت فيه ولكن دون أن يكون لديهم أي تحديد لتلك القوة العظمى. (وبالطبع فإن هذا غير ضروري لاستكمال الأسطورة)، ولكنها - على الأقل - هي تلك القوة التي وضعت المصريين مع الأوروبيين حول طاولة واحدة دون تفريق أو تمييز.

ويرى عدد من علماء الاجتماع أن حب المصريين للأوروبيين وكراهيتهم لهم في آن واحد جزء هام في التكوين العاطفي للمصريين. كما أن تلك القوة قد جعلتهم أعلى بمرتبة - أو بمرتبتين - من سائر الشعوب العربية الأخرى. (ولا بد من إدراك حقيقة

مهمة جدا وهي أن فكرة، القومية العربية، ليست جزءا من اسطورة، ناصر، إلا أن مفهوم كون مصر رائدة العرب، قد غدت جزءا مهما من الاسطورة).

وبعبارة أخرى، فإن أسطورة عبد الناصر هي مجموعة تصورات وانطباعات تحيط بمعركة الرجل الملون (العرب والمسلمين والأفريقيين، وهي دوائر عبد الناصر الثلاث) ضد الأوربيين (السوفييت والغربيين): معركة يثق فيها الرجل الملون كل الثقة من أنه سيفوز في النهاية.

كما أن استخدام عبد الناصر لرصيده في أجهزة البناء والاصلاح مثل: (الدعاية، الحزب السياسي الواحد، الآلاف المؤلفة من الموظفين) يهدف إلى تخليد تلك الأسطورة. ملاحظة للقارئ: وسائل القمع تعني: القوات المسلحة، وسائل الدعاية، المخابرات، الامن العام (البوليس) التشريعات والأنظمة.

ناصر والحياد الإيجابي

أما استراتيجية الضعيف العاجز فهي الايقاع بين الاقوياء عله ينجو بنفسه

****** بخصوص الطرف المصري، فقد أدراك عبد الناصر تماما أن المعاهدات بين دول كبيرة ودول أفريقية آسيوية صغيرة، هي معاهدات سريعة الزوال، سهلة النقص، وبالتالي فباستطاعته أن يتملص من أي من بنودها التي لا تروق له بعدما يتسلم المساعدات العسكرية التي تعتبر جزءا من الصفقة. وأما جنرالاته فقد كانوا أقل حنكة وخبرة.

****** إن إشباع كبرياء شعب محروم أكثر أهمية من تأمين الغذاء والمسكن له وبعد أن أرسى عبد الناصر قواعد راسخة لأجهزة القمع في نظام حكمه، وبعد أن بدأ العمل على إنجاز - أجهزة البناء، فقد أخذ يعتقد أن إشباع كبرياء شعبه يشكل بديلا مناسباً عن إشباع حاجاته الاقتصادية التي لم يتمكن وقتها من تحقيق أي منها.

ولقد اكتشف عبد الناصر سريعا أن إلهاء الشعب المصري في «نهضته الحديثة»، يؤثر إشباع كبريائه في اغتنام أية فرصة لتحسين أوضاعه الاقتصادية، وحتى أواخر كانون الثاني (يناير) ١٩٦٨، وبعد الضربة الكاسحة التي تلقتها مصر من اسرائيل بعدة أشهر،

وفي خضم الصعوبات الاقتصادية التي لم تر مصر مثيلا لها طوال تاريخها، قال أحد المصريين الذين لا يشك בזكائهم ألا وهو مصطفى أمين، الذي كان قد أمضى حتى ذلك الوقت ثلاث سنوات في السجن: إن عبد الناصر قد أساء كثيرا إلي وإلى أصدقائي، وحتى إلى بلادي كلها، ولكن يجب أن أعترف أنه علمني كيف أكون فخورا بكويتي مصرية.

وفي الوقت الذي أصبح فيه منصب عبد الناصر ملدى الحياة، (ونستعمل هذه العبارة على غرابة معناها في الشرق الأوسط) كان قد حفظ عن ظهر قلب أن الشعب المصري في «هضته الحديثة» يؤثر إشباع كبريائه في اغتنام أية فرصة لتحسين أوضاعه الاقتصادية.

** يمكن لمصر المستقلة، القوية، أن تأخذ بزمام المبادرة، في تخفيف حدة التوتر بين العرب والغرب منذ قيام إسرائيل. وهنا قال ناصر: «لا يمكنني أن أتخذ مثل هذه القرارات غير الشعبية إلا عندما أصبح في مركز قوي! ولمح الى انه لربما يستطيع القيام بخطوات ايجابية لتخفيف حدة التوتر بين العرب واسرائيل إذا ما أصبح في ذلك المركز القوي.

** وقد تولد عند بايروت انطباع أن ناصرا هو القائد الوحيد في العالم العربي الذي يمثل الاتجاه الجديد، والذي بنفس الوقت يمكن لدبلوماسي غربي أن يجري معه مناقشات مفيدة ومنتزعة، كما أن ناصرا هو من النوع الذي يمكن للإنسان أن يباحثه بأي موضوع - حتى موضوع الصلح مع إسرائيل - دون أن يخرج عن تحكيم العقل ويلجأ إلى العواطف عند سوق الحجج وسرد البراهين. ولهذا السبب فقد رأى بايروت ضرورة بقاء ناصر في الحكم، كما رأى أن تحويل جيشه من رث هزيل الى آخر عزيز وفخور بنفسه هو من أول ما يضمن هذا البقاء ويعززه.

** ففي أثناء زيارة قصيرة لي إلى نيويورك في أواخر صيف ١٩٥٣، التقيت بايروت وكان يومها مساعد وزير الخارجية، واتفقت معه على أن نوضح لناصر أن مبلغ الأربعين مليون دولار هو «دفعة على الحساب»، ومعرض للزيادة (أو النقصان) بناء على الطريقة التي سيستثمر فيها وعلى النتائج التي سيعطيها. وأفلحت في اقناع بايروت

بإضافة مبلغ آخر لاستعمال ناصر الشخصي، وللاستعانة به في اتخاذ تدابير أمن استعدادا لمواجهة مصاعب جديدة بدأت رياحها تلفحه من الداخل (كان هذا عام ١٩٥٣). كما طلبت من بايرون أن تقوم حكومة الولايات المتحدة بتقديم سيارة، كاديلاك، مصفحة الجدران كهدية لناصر، وترسل له أيضا خبيرا في المباحث ليشراف على تنظيم الحرس الخاص بناصر، وتزوده بأجهزة انذار خاصة لحماية منزله وأخرى لاستخدامها في السيطرة على أعمال الشغب والمظاهرات.

ورأى بايرون أن مبلغا لا يتجاوز الثلاثة ملايين دولار يمكن تسليمه لناصر نفسه يدا بيد، وبسرية تامة، بعد اقتطاعه من مخصصات رئيس الجمهورية الأمريكية مباشرة. ويمكن لوكالة المخابرات المركزية أو مكتب المباحث الفيدرالية إنجاز ما يلزم من ترتيبات الأمن وضرورتها. وهكذا ارتفعت قيمة المساعدة إلى ثلاثة وأربعين مليون دولار، تدفع الأربعون منها حسب الأنظمة المرعية كمساعدة رسمية، وتسلم الثلاثة الباقية سرا ودون أي مستند، وتقتطع من ميزانية رئيس الجمهورية. ثم يقرر إرسال خبير الأمن السري، وأجهزة الحماية وأدوات السيطرة على المظاهرات والشغب بعد أن تستكمل الخطوة الأولى.

أما الملايين الثلاثة من الدولارات، التي سلمت من دون إيصال ولا مستند فقد كادت أن تبقى سرا - لولا هذا الكتاب - استخدمت في بناء تلك التحفة المعمارية الرائعة المتمثلة في «برج القاهرة»، الذي يفوق في ارتفاعه ارتفاع أهرامات الجيزة، ويضفي على منظر منطقة الجزيرة المقابلة لفندق هيلتون عبر النيل في القاهرة منظرا رائعا. كما يبدو للمشاهد على بعد أميال من القاهرة وهو لا يزال محلقا في طائرته الضخمة قادما من أوروبا أو أفريقيا أو آسيا.

وأثارت ردود فعل كافري تجاه المنحة الشخصية لناصر شكوكا متزايدة في نفسي، وفضلت عندها القيام أولا بزيارة لحسن التهامي للبحث معه في الأمر، وأخبرته بأن حكومة الولايات المتحدة لا تلزمكم بقبول هذا المبلغ، إلا أنه جاهز للتسليم وهو رهن اشارتكم. وأجابني حسن التهامي (وكان يومها رئيس الحرس الخاص لناصر، وهو الذي تصدى للذين حاولوا اغتيال ناصر في تلك الفترة وأطلق عليهم الرصاص، وقد ذكر

ناصر هذا في كتابه فلسفة الثورة) قائلا: إننا - بدون شك - سنجد طريقا لإنفاقها، ولا مانع من أن نرى كيف تبدو تلك الدولارات ببريقها!، وهكذا فقد تأكدت من موافقة ناصر على استلام الملايين الثلاثة سرا.

^{**} وباستثناء ناصر، فإن أيا من زعماء اتحاد المحايدين، لا يملك أي نفوذ أو تأثير خارج حدود إقليمه. فلم يكن ليخطر ببال الحكومة الأمريكية أن تطلب من سوكارنو مثلا ممارسة نفوذه بغية التأثير على الدول الآسيوية التي تعطف على الشيوعية وحملها على انتهاج سياسة الحياد الإيجابي. كما أن السوفييت أنفسهم لم يقتنعوا بصدق ميول سوكارنو الشيوعية حتى يرجوا مساعدته لهم في تعزيز أهدافهم في آسيا. إلا أن ناصر قد أفلح في إقناع الأمريكيين والسوفييت بأن يستشيروه في شؤون كثير من الدول الأفريقية والآسيوية مثل فيتنام

فعندما كان ناصر يضمن تأييد المصريين لوحدهم له، كانت قيمة المساعدات التي يتقاضاها منا لا تتجاوز جدلا «س». وعندما يضمن تأييد العالم العربي له فالنتيجة أحسن، والقيمة تتضاعف وتغدو «س ٢» (س مربع). وفي حال وقوف العالم الاسلامي معه فإنه يحصل على مساعدات تبلغ «س ٣» (س مكعب) وعند مؤازرة الدول غير الغربية له (الأفريقية والآسيوية)، فإنه يحصل على مساعدات قيمتها «س» (مرفوعة الى القوة الرابعة).

ولم نكن نشترط عليه أن يكون الناطق بلسان جميع الدول الأفريقية والآسيوية، أو جميع دول العالم الاسلامي، بل كان يكفي أن يبرهن لنا على أنه يملك زمام التأثير عليها حتى يتقاضى كامل أجره ومطلق تعويضاته.

ولم نكن لنتفرد في سلوك مثل هذا الطريق لوحدها بغية تنفيذ مآربنا، بل كان السوفييت يشاركوننا في هذا أيضا. فكنا وإياهم نفضل الاستعانة بناصر لتنفيذ سياستينا وتحقيق أغراضنا بدل الاستعانة بغيره من زعماء اتحاد المحايدين مثل نكروما أو سوكارنو أو بدل مباشرة ذلك بأنفسنا.

ففي عام ١٩٦٢ وقبل ترويد إسرائيل بصواريخ هوك المضادة للطائرات قام الرئيس جون كيندي بتوضيح القضية لناصر وحصل على موافقة منه على أنه لا يمكن للأمريكيين أن يتصرفوا بغير تلك الطريقة، وعلى الأقل في ذلك الوقت.

وقد صاح الرئيس جونسون في بعض ساعات غضبه قائلاً: كنت أود أن يكون لنا سفير في القاهرة لا يفقه شيئا عن فيتنام، بل ولا يدري أين موقعها من الخارطة، إلا أنه لم يمض على ذلك أسبوعان من الزمن حتى أرسل جونسون مبعوثه أفريل ماريمان إلى القاهرة ليطلب من ناصر التدخل مع فيتنام الشمالية بغية إطلاق سراح بعض الطيارين الأمريكيين الذين أسقطت طائراتهم هناك.

وعندما يذكر ناصر في كتابه «فلسفة الثورة»، أن مصر قد حظيت بنقطة تقاطع عوالم ثلاثة، هي العالم العربي والعالم الإسلامي وأفريقيا، فانه كان يحاول وقتها أن يشيد صرح «الاسطورة» الوطنية.

وعندما شرع ناصر في تطبيق استراتيجيته في ايجاد الكتل الدولية في «لعبة الامم» كان اهتمامه في النواحي الجغرافية أكثر من اهتمامه في توطيد نفوذه وزيادة فاعليته. ففي بعض الأحيان، لم تكن كوبا لتقل أهمية عن الباكستان كحليفة متوقعة لناصر.

كما أن بلادا كثيرة في أفريقيا الغربية كانت أكثر أهمية عنده من بلاد أفريقية مجاورة لمصر. وفي الحقيقة، كان نفوذ ناصر «المرعوم» في تلك المناطق النائية من ضمن الأسباب التي دعت أحد الدبلوماسيين الأمريكيين الى اعتبار ناصر من العوامل التي علينا أن نحسب لها حسابا، أو بالأحرى إلى اعتباره «موضة المستقبل» ومن وجهة نظرنا - نحن الأمريكيين - فإن النفوذ «المرعوم» لا يقل أهمية عن الشكل الآخر من النفوذ «الموجود حقا»

أما ناصر نفسه فقد كان يفضل النفوذ «المرعوم»، لأنه كالطبل الأجوف، صوته هائل ومرعب وباطنه أجوف فارغ. كما أن تشييد صرح النفوذ «المرعوم» أسهل بكثير وأقل كلفة من تشييد صرح النفوذ «الحقيقي» الذي غالبا ما يقوم على أسس راسخة وقواعد ثابتة.

وبالتالي فإن النوع الأول يجنب ناصرا كثيرا من الأزمات والمآزق التي تثير له متاعب ومصاعب هو في غنى عنها.

إن ناصرا لا يطمح إلى حكم العالم العربي أو الإسلامي أو قارة أفريقيا، كما أراد هتلر أن يحكم أوروبا، وأن جل ما يريده هو توجيه سياستها الخارجية في مواجهتها للدول الكبرى وكان ناصر يريد إقناع الغرب أنه لن يتمكن من عقد أية صفقات مع حكومات الدول الواقعة في مناطق نفوذه بدون التشاور معه أولا، وأن ما يعقده الغربيون معه من اتفاقات فإنما يعقدونها مع جزء من العالم أوسع من حدود مصر الإقليمية.

وهذا الموضوع يشكل المادة الرئيسية في حوار صراعنا مع ناصر ضمن مجال «لعبة الأمم»، والتي عادة ما تكون من النوع الذي «حاصل جمعه صفر مطلق» ولم يكن صراعنا مع ناصر صراع عقائد وأفكار بل كان حرب خطابات (شديدة أو مسالمة) ومقالات في الصحف وكل ذلك جزء من «لعبة الأمم» ومنافسة بين ناصر الذي بذل كل جهده لتجميع الدول الصغيرة في منطقة نفوذه وبين أولئك الذين حاولوا أن يضموها إلى مناطق نفوذهم هم، مستغلين بذلك فكرة القومية العربية. وتنطبق هذه الحالة على الصراع في العالم الإسلامي وفي مجموعة الدول الأفريقية الآسيوية.

ومع أنها تبدو غريبة ومتناقضة مع التطورات الأخيرة لأوضاعه السياسية، إلا أن ناصرا فكر في البداية بإيجاد هذا التكتل الدولي، من خلال الإسلام وليس القومية العربية.

فالإسلام هو الدين السائد في الشرق الأوسط منذ عام ٦٤١ بعد الميلاد، وهو، في مفاهيمه الأساسية، دين واضح بعيد عن التعقيد، وذو جاذبية وإغراء. كما أن له رصيда ضخما من الحضارة والثقافة التي -مع بعض التعديلات الطفيفة- تشكل نداء مناسباً للوحدة التي كان يحلم بها ناصر. كما أن النجاح الذي حققته إحدى الحركات التي تتبنى الفكرة الإسلامية وهي حركة الإخوان المسلمين، والتي لم يحالفها الحظ أبداً، قد أثبتت لناصر فعالية النداء الإسلامي في حشد المتطوعين وإخضاعهم لنظام صارم وتوجيههم إلى أهداف شبيهة بتلك التي اختارها ناصر وارتضاها لنفسه.

إلا أن حكومة الولايات المتحدة لم تكن مرتاحة للفكرة السابقة، واقترحت على ناصر أن يظهر بمظهر «تقدمي» في العالم الاسلامي. ونقل له هذا الرأي أحد موظفي وزارة الخارجية الأمريكية الذي عرض عليه في الوقت نفسه رأي وزير الخارجية دالس بأن يجعل ناصر من مصر «حصنا ضد الشيوعية».

وقد أخذ ناصر هذا الرأي بعين الاعتبار في الوقت الذي كان دعاة العقيدة الشيوعية في حاشيته يتفجرون بصراحة من الفكرة القائلة إن الاسلام عدو الشيوعية اللدود، ويرون أن اقتران الناصرية بالشيوعية يمكن أن يغدو موضة المستقبل، ويحل محل النزعة الدينية عند المسلمين. إلا أن ناصرا بقي يفكر باحتمال ارتكازه على إحدى تلك الأفكار لتوصله إلى مركز عالمي باندفاع وقوة وبطريقة تضمن له قاعدة واسعة يتمكن معها أن ينخس الدول الكبرى بمهمازه لتتنافس حقا على طلب وده وضمان جانبه.

** كانت موسكو تعتبر ثورة مصر عام ١٩٥٢ انقلابا عسكريا وقع في القاهرة بتأثير من بعض الدوائر الغربية. وكان التعليق الرسمي السوفييتي يشير إلى «مجموعة من الضباط الرجعيين الذين تربطهم صلة مباشرة وقوية بالولايات المتحدة» كالمخرضين الرئيسيين لهذا الانقلاب [دائرة المعارف السوفييتية الكبرى، موسكو، الطبعة الثانية، مجلد ١٥، ١٩٥٢ ص ٤٦٠].

** إن سبب النزاع في العالم العربي يعود الى إساءة فهم أهداف ناصر نفسها. وأود أن أؤكد ثانية أن ناصرا ليس بعربي، ولم يعرف الكثير عن العرب إلا حديثا. كما أنه لا يشعر بميل وعطف خاص نحو العرب كما تتصور ونتخيل. وهو لا يطمح إطلاقا في إرهاب نفسه وتحميلها مسؤولية حكم العالم العربي. فالقومية العربية قوة ذات أهمية رئيسية في مخططات ناصر، إلا أن أهميتها عنده تكمن في كونها «أسطورة»، وليست «حقيقة».

** لا أزال أذكر كلام صديق عربي، عندما قال لي: عندما يقوم أي منا بعمل بناء ايجابي كإنشاء جسر، أو رفع حذاء، أو خبز رغيف، أو حشو ضرس، فهو في لحظة قيامه بعمله ليس أكثر من مجرد مهندس، أو اسكاف، أو خباز، أو طبيب سوري، أو لبناني، أو مصري. ولكنه عندما يقوم بعمل هدام فهو عندئذ عربي قح. ففي سبيل الحصول

على مصالحه المادية اليومية والاقتصادية العادية، فإن التفكير الإقليمي، هو المسيطر على العربي آنئذ. ولكنه عندما يتأنف من إسرائيل أو يتشكى من الإمبريالية أو يشارك في مظاهرة لحرق سفارة أجنبية، فإن التفكير القومي العربي، هو المسيطر وقتئذ.

وطالما أوقعت هذه المفاهيم عديدا من الدبلوماسيين الأمريكيين حديثي العهد في حيرة وارتباك. ففي كل مكان يحلون فيه لا يسمعون سوى عبارات «الإخوة العرب» و «الآمال والآلام العربية» و «الوحدة العربية». إلا أنهم يخفقون في لمس أي حماسة أصيلة لتوحيد التعرفة الجمركية، أو لإنشاء سوق عربية مشتركة، أو لإقامة دولة عربية متحدة، وحتى اتحاد فيدرالي بين الدول العربية.

كل هذه الأحداث خلف الكواليس وإذاعة صوت العرب تصدع بالشعارات التالية:

- وعلينا نحن العرب أن نتحد لنجمي أنفسنا من الاستغلال الإمبريالي لنا، إن البريطانيين هم أوغاد الإمبريالية الرئيسيون، ولكننا يجب أن لا ننسى أن الأمريكيين والروس هم أيضا كذلك. وقد نشرت قصص كثيرة وكلها تدور حول دخول البريطانيين أو الروس أو الأمريكيين البلاد تحت شعار تقديم المساعدات ولكنهم ما يلبثون أن يستغلوا البلاد ويجعلوها معتمدة كلياً على تلك المساعدات. ولم يكن هناك أي هجوم على شخصيات الزعماء العرب، إلا أن خطة كهذه ما لبثت أن وضعت المتساهلين مع الدول الكبرى منهم في موقف حرج وأشعرتهم فجأة أنهم أصبحوا في وضع يتطلب منهم الدفاع عن تصرفاتهم واعطاء التبريرات لسياستهم.

- «إننا نحن المصريين جزء من أمة العرب»، وهذه هي - بعبارة أخرى - الاسطورة، التي تبناها ناصر. فلم يكن هناك أي حماس أو دفاع عن الوحدة السياسية أو تعاون وثيق على مستوى الحكم والإدارة (مثل توحيد الجمارك، وتسهيل انتقال الرعايا العرب من بلد عربي لآخر دون تأشيرات دخول، وتصفية تلك الخلافات المتنوعة التي ما زالت تعصف بالعالم العربي). وتحت الشعار المذكور أعلاه، كانت مادة التوجيه في معظمها ثقافية مثل القصص التاريخية والبحوث الفلسفية وكل ما يمكن أن يشكل مادة

تساعد المستمعين وتشجعهم على أن يكون تفكيرهم مشبعاً بأفكار مثل «كيان العرب» و «استقلال العرب».

- «ناصر يقارع الدول الكبرى وحيدا»: بعد نجاح ناصر في تنحية اللواء محمد نجيب ونجاحه - مرة أو مرتين - في الظهور على أنه أول مصري لقرون عديدة ينجح في شق عصا الطاعة على الأوروبيين ويرفض الخضوع لهم، بدأت البرامج الدعائية تذاع على الشعب وهي مبرزة هذا الوجه لشخصية ناصر ومؤكدة حقيقته. وكانت التمثيليات الإذاعية تظهر ناصراً جالسا وراء طاولة المفاوضات بهدوء كامل وبرودة أعصاب فريدة، ثم ما تلبث أن تنهي حوارها مع الكولونيالات البريطانيين بإذاعة بعض عباراته المؤثرة والرنانة بصوت رزين هادئ ينبئ عن إصرار وتصميم وعن رفض للخنوع والخضوع. وكان المذيعون يرتلون بعض المقتطفات الشاعرية من خطب ناصر التي تفيض بأخبار الشعوب الآسيوية والأفريقية والعربية التي تعاني من اضطهاد الأوروبيين واستغلالهم، إلا أنها كانت تختتم بترنيمة شاعرية تقول: ولكن ناصراً سوف، ينقذنا من كل هذا.. ومع أن هذه البرامج كانت غاية في الابتذال والركاكة إلا أنها كانت ذات تأثير غير قليل في نفوس السامعين من الطبقات ذات الثقافة الضحلة والادراك السطحي. ولم تبق هناك طريقة يمكن استخدامها في إظهار شخصية ناصر إلا واستخدمت فقد وزعت صورته في كل مكان وحتى في الكويت - التي لم تكن في يوم من الأيام ضمن دائرة نفوذه - وكان نادراً ما تجد حانوتاً يخلو من صورته معلقة في أبرز مكان فيه.

- «ناصر في الجامعة الكبيرة»: لم يكن سياسة العرب القدامى يكون أي احترام أو تقدير لناصر بعد استلامه زمام السلطة علناً من يد محمد نجيب. وكانت نظراتهم لا تختلف عن تلك التي اعتادوا أن يتبادلوها عن إنسان حديث العهد بالزعامة قليل الخبرة بخفايا السياسة وألاعيبها. إلا أن سرعان ما تبدلت نظرات الاستخفاف بناصر إلى أخرى مليئة بالاحترام عندما طفقوا يشاهدونه متصدراً أفلام - جريدة السينما، وهو يتبادل الأنخاب مع كبار زعماء العالم برباطة جأش واتزان، ودون تنازل أو استحياء.

ففي خلال شهر واحد - شباط فبراير ١٩٥٥ استقبل ناصر في القاهرة كلا من تيتو ونهر وأنتوني إيدن والملك حسين، إلى جانب سيل متدفق من رجال الكونغرس

وبرلمانات العالم ومن مراسلي الصحف والمجلات العالمية الذين أخذوا منذ ذلك الوقت يفدون غلى القاهرة زرافات ووحدانا.

وأما انعكاسات الشعب العربي فقد كانت شبيهة بشعور أهل الريف عندما يشاهدون - وهم في أريافهم - أحد أبنائهم يظهر في مقابلة تلفزيونية مع أشخاص على شيء من الأهمية والمكانة. لقد شارك العرب انتصاراته وكان ناصر منهم وإليهم..

وهكذا أوجد ناصر «الأسطورة»، وكانت عبارة عن: «القومية العربية» بقيادة إنسان كناصر - أي إنسان بطل - ولا يشترط أن يكون بالضرورة ناصر نفسه، إلا أن القومية العربية لم تنتقل إلى الواقع الملموس إطلاقاً وبقيت بعيدة عن كونها حقيقة.

فما زال عليك أن تمضي ساعتين من الزمن واقفاً على الحدود بين سوريا ولبنان لإنهاء الإجراءات، وتقريباً نفس الوقت على الحدود الأردنية السورية، إلى جانب تفتيش دقيق للمسافر نفسه وإجراءات أخرى مهينة.

وما زالت العلاقات بين الحكومات العربية متزدية وسيئة، علاوة عن الإجراءات التعسفية في الشؤون الثقافية والتعليمية بين كل من العراق وسوريا ولبنان ومصر. وأما اللاجئين الفلسطينيون فإنهم في الوقت الذي كان ناصر يدعوهم في خطباته بإخواننا العرب شعب فلسطين، كانوا يعاملون أسوأ المعاملة - وكأنهم أجنب - في مصر والبلاد العربية المضيفة لهم. ومع كل هذا فقد نمت تلك «الأسطورة»، وترعرعت وأصبحت - على حد تعبير بعض المصادر المطلعة - القوة المسيطرة في سياسة العالم العربي في أواخر الخمسينات وأوائل الستينات. بل لقد أصبحت بالنسبة للعرب حقيقة بقدر ما أصبح بابا نويل، حقيقة عند الأطفال يوزع عليهم اللعب والهدايا عشية عيد الميلاد.

وعلى أي حال، فإن هذا الاتجاه لم يكن مسيطراً لدرجة كافية. لقد أفلح ناصر في فتح طريق قليل المصاعب والمقاومة أمام الزعماء العرب وهو طريق أسطورة القومية العربية - أو طريق الترغيب - كما تفهمه القاهرة. إلا أنه ما زال هناك بعض قادة العرب الأقوياء يكونون كراهة للقاهرة ويصرون على أن يسيروا في ذاك الطريق لوحدهم دون وصاية من ناصر عليهم، ودون الانتساب إلى «جمعيته». وهكذا وجد ناصر نفسه

مضطرا لان يسلك «طريق الترهيب» لاستكمال عناصر «جمعيته»، ولإخضاع من شق عليه عصا الطاعة.

الناصرية والإرهاب

ولن يلين عودهم وينضموا إليك حتى تصير حياة خوارجهم شقاء وضجرا

** لقد أخبرت مرة أن أحد كبار الرسميين في وزارة الخارجية قد التفت إلى جاره بعدما غادرت أحد تلك الاجتماعات الهامة التي كان يدعوني إليها الوزير دالس إلى تمثيل دور ناصر في «لعبة الامم» - وقال له: «إنني لا أثق بذلك الإنسان - أي بي- فإنه يتكلم بإلحاح واهتمام أكثر من ناصر نفسه.. وفي مناسبة أخرى التفت إلي (آلن دالس) مدير وكالة المخابرات المركزية، وقال لي: «إذا حاول بكباشيك أن يحشرنا في الزاوية فلن نتأخر في شطره نصفين!».

** وكان التناقض واضحا وجليا في كل أفعالنا وقراراتنا فقد كنا نسدد باقي حسابنا مع ناصر بشكل محاولات تهدف الى تقويض نفوذه، أكثر مما تهدف الى تقويته. وكنا نفعل هذا جهرا بافتضاح.

عندما تعرت الشخصيات في لبنان عام ١٩٥٨

ولن تسلم من خصومك الألداء حتى تغامر في حرب ضروس معهم

** قامت سفارتنا في بيروت (وليست وكالة المخابرات) بتقديم مساعدات متواضعة لبعض الحملات الانتخابية للمرشحين الموالين للغرب (في انتخابات حزيران ١٩٥٧). وقد أطلقت عليها صفة. التواضع، لأنها لم تزدد عن قيمة تلك المساعدات التي دفعتها السفارات الفرنسية والبريطانية والسوفييتية والمصرية للمرشحين الموالين لها. وفاز المرشحون الموالون للغرب، والمناوئون للمصريين، بالأكثرية في المجلس. إلا أن أخبارا كهذه لم تكن لتشكل موضوعا مناسباً للتسلية والمسامرة بعد وليمة أو لقاء عابر بين الأمريكيين والمصريين. وفي أواخر عام ١٩٥٧ بدأ النشاط المصري الهدام في لبنان

باندفاع وقوة. وبدأ لكل المتابعين للأحداث في بيروت، أو للمستمعين إلى إذاعة صوت العرب من القاهرة، أن ناصرا سبذل المستحيل لإسقاط شمعون والإطاحة به، وعندما قمت بزيارة للقاهرة في آب (أغسطس) ١٩٥٧، أسر الي بعض أصدقائي من المصريين بتنبؤاتهم عن سقوط كل من شمعون وحسين ونوري السعيد (بل وأصروا على هذا التسلسل). ولكن توقعهم لوقوع الاحداث بهذا التسلسل قد أخطأ، ولم يتحقق سوى ثلثي ما قد تنبأوا به، مع أنهم بذلوا كل ما في وسعهم لتحقيقه. الا أنه فاتهم أن سقوط أولئك الزعماء سوف يزيد من حدة الصراع بين المخابرات الأمريكية والمصرية، وسيرفع من مستواه إلى الحد الذي يصعب على المصريين معه مجارة الأمريكيين ومنافستهم.

** وكان الإلمام بشؤون العالم العربي قبل الخمسينات وفقا على الارساليات التبشيرية، وعلماء الآثار، والمستشرقين، والمدرسين الاجانب، وغيرهم من هواة هذا الجزء من العالم. وكانت الجامعة الأمريكية في بيروت، ومثيلاتها في اسطنبول (روبرت كولدج) وفي القاهرة (الجامعة الامريكية) تمارس التأثير المباشر والرئيسي على المنطقة فيما يختص بالمصالح الأمريكية، وعلى الحكومة الأمريكية فيما يختص بمشاكل الشرق الأوسط. ومن مآثر هذه الجامعة (وكان اسمها سابقا الكلية الإنجيلية السورية) أن غالبية رجال السياسة في العالم العربي من خريجيه.

وفي خلال الخمسينات، حطت شركات البترول الضخمة رحالها في الشرق الأوسط وتدفق بعدها سيل عرم من بائعي المعدات الهندسية، ومن المستثمرين الذين أغرقهم الآفاق الجديدة التي فتحتها لهم النمو المطرد للجاليات الأمريكية (مثل أسر موظفي شركات البترول). ثم انضم إليهم وكلاء الشركات الأمريكية للبضائع الاستهلاكية. وعندما بدأ ضخ النفط على مقياس واسع، ظهرت طبقة الأغنياء من العرب الكويتيين والسعوديين الذين وظفوا أموالا طائلة في لبنان، مما أدى إلى ازدهار اقتصادي سريع في المدن، وجذب المزيد من المستثمرين ووكلاء الشركات الى المنطقة مع عائلاتهم التي ساهمت في تضخيم حجم الجاليات الأوروبية والأمريكية، وتوسيع مجال الاعمال التجارية فيها. وفي منتصف الخمسينات أمست مصالحنا التجارية في المنطقة ضخمة ومتسعة،

وعلى خلاف ما كانت عليه في الأربعينات. وعلى غرار المركز العالمي للأعمال التجارية في مدينة نيويورك، فقد أضحت بيروت المركز التجاري للعالم العربي.

السياسة الناصرية في الخارج تمتص ثروات الشعب في الداخل

ونفقات الأبهة والعظمة باهظة جدا، بل وقاسية، وإذا قصر الإنسان بحققها تركته رهينا عندها وسلعة لها

** وعندما دعا مذيع صوت العرب إلى اغتيال نوري السعيد، انكب خبراء الدعاية ومحللو المعلومات في كل من لندن وواشنطن وحتما في كل من باريس وبكين وموسكو وبضع عواصم أخرى، على دراسة برامج إذاعة القاهرة بجد واهتمام غربيين لم يشهد العالم نظيرا لهما منذ أيام هتلر. وعلى نحو ارتجاعي، فقد تم تمحيص هذه البرامج الإذاعية أكثر من مرة لتحديد قوة تأثيرها الخارجي، وللوقوف على حقيقة المخطط الذي وراءها، وللعثور على مواد إذاعية صالحة لشن حملات مضادة للدعاية المصرية. ومن الغريب أن تلك البرامج الإذاعية كانت لا تبدو أكثر من مجرد هراء وسفسطة إذا ما محصت جملة جملة، إلا أنها سرعان ما تبدو وكأنها حملة متكاملة ومنظمة بمهارة فائقة عندما ينظر إليها ككل.

وفي أوائل عام ١٩٥٦، قامت وكالة المخابرات المركزية الأمريكية بتمويل دراسة حول ردود فعل المستمعين لبرامج القاهرة الإذاعية في كل أنحاء العالم العربي. وانتهت الدراسة إلى النتيجة التالية: إن إذاعة القاهرة قد حظيت بأكبر نسبة من المستمعين بدوا كانوا أو حاضرة، ومارست تأثيرا جيدا على العرب فساقتهم سوق التنويم المغناطيسي تحريكا وتوجيها. وتجاوز تأثير إذاعة القاهرة إلى المثقفين الذين هم آخر من يتوقع منهم استحسان برامجها واستساغة صيحاتها فانساقوا معها أيضا دون أن يجدوا لسلوكهم تفسيراً مقبولا. وقد أخبرني يومها أحد خبراء الدعاية أن أي تاجر شرقي ذي ميول غربية يترك مذياعه مفتوحا على إذاعة القاهرة، سرعان ما تساوره الشكوك تجاه الغرب لسماعه أقصر البرامج، كما أنه يشعر بميل وعطف نحو حجج ناصر، ونظراته. وعلى حد قول

علماء الدوافع والبواعث: فإن نداءات إذاعة القاهرة كانت نداءات لا شعورية، وكانت بدون شك ذات تأثير متصاعد باطراد.

ولم يكثرث نوري السعيد للأمر. وكان جل رد إذاعة بغداد على حملات القاهرة الضارية هو تكرار إذاعة أغنية هزلية شهيرة حول «البوسطجي»، قصدة بها التهكم على ناصر (لكونها مهنة أبيه) والنيل منه.

إلا أن أثر إذاعة الأغنية لم يكن ضد ناصر، بل على العكس لصالحه، فقد أحرزت تأثيراً لا يقل عن تأثير برامج إذاعة القاهرة ذاتها. وطفقت إذاعة «صوت العرب» يردد نفس الأغنية ليظهر الدرك الذي انحدر إليه راديو بغداد. وبالمقابل قام راديو بغداد بإعادة تسجيل لصيحات إذاعة «صوت العرب» التي تحرض العراقيين على اغتيال نوري السعيد ليظهر بدوره الدرك الذي انحدرت إليه إذاعة القاهرة.

وفي خضم كل هذا التلاسن المتبادل لم تكن الدعاية المضادة لراديو بغداد أكثر من قشة في مهب الرياح حتى أدركها خبراء الدعاية الغربيون وعدلوها.

وسرعان ما بدت فكرة إقامة محطة إذاعة جديدة في المنطقة لمنافسة محطة إذاعة القاهرة كفكرة نقل مدينة التمثيل الشهيرة «هوليوود»، إلى مدينة دي ميوني (في آيوا، إحدى الولايات الجنوبية في الولايات المتحدة) النائبة المقفرة المجذبة. فالقاهرة تموج بأفواج الممثلين والمغنين والمخرجين والكتاب والفنيين، ولن يتوفر ذلك في أية مدينة عربية أخرى إلا بشق الأنفس، وبعد ربح من الزمن.

وفي خضم هذه الأفكار المتضاربة، لمعت بارقة أمل عندما طرحت فكرة تدمير أجهزة إرسال محطة إذاعة القاهرة واسكاتها نهائياً. وهذا ما حدث بعد ذلك فعلاً. ففي أثناء أزمة السويس في تشرين الأول (أكتوبر عام ١٩٥٦)، قام أحد طياري سلاح الجو الملكي البريطاني بإلقاء وابل من القنابل عليها، إلا أنه أخطأ الهدف ولم يصيبها.

ومهما بلغ أثر دعاية إذاعة القاهرة قوة وعنفاً، فإن تكاليف تشغيل الإذاعة غدت باهظة وأكثر مما تطيقه الميزانية المصرية. وكان من نتائج ازدياد نداءات إذاعة صوت العرب، تضخم نشاطات أجهزة المخابرات المصري واحتدام معاركها السياسية، وبالتالي، ارتفاع التكاليف وتكدس الأعباء المالية.

ومن العسير أن يحصي المرء جملة ما تكبده المصريون من نفقات كثيرة أثناء الأزمة اللبنانية في عام ١٩٥٨. إلا أن بعض المطلعين الغربيين على تلك العمليات قد كشفوا النقاب عن نفقات تجاوزت أرقامها الملايين من الدولارات. كما أن الحكومة اللبنانية قد أماطت اللثام بعد انتهاء الأزمة عن أدلة مقنعة تفيد أن أحد «البيارتة الأربعة»، قد تلقى ما لا يقل عن سبعة ملايين دولار دون أن يشاركه فيها أحد.

وعند جمع مثل هذه الأرقام معا وضم أرقام نفقات كل أجهزة المخابرات والمباحث والأمن العام في القاهرة إليها يغدو حاصل نفقات أجهزة الأمن القومي والعمل السياسي المصرية أكبر بكثير من أرقام نفقات مثيلاتها في الدول الغربية. (على حد قول بعض هذه الأجهزة) التي كانت متواضعة في عامي ١٩٥٧ و ١٩٥٨.

وليست النفقات المباشرة للعمل السياسي بكثيرة، إلا أن المحافظة على متانة خطوط المجاهدة وضمان الصمود في ميادين المعارك السياسية - وخاصة داخل البلاد - يتطلب الكثير ويمتص الثروات ويرفع من أرقام الميزانيات.

ولا أزال أذكر شجون الحديث الذي دار بيني وبين أحد ضباط ناصر المسؤولين، وقد قال لي يومها: (لو حلت بمصر كارثة سلختها عن بقية العالم، وجعلت منها جزيرة نائية في وسط بحر هائج لا يهدأ له قرار، وأبقت لنا، نيلنا، وتربتنا وبقية مصادر طبيعتنا، فإننا -نحن المصريين- لن نعاني من أسى أو نقاسي من ألم. سيزرع البعض قطنا، ويحيك الآخر نسيجاً. ستبذر الأرض ذرة وأرزاً، ويحصد الفلاح ما نبت من زروع والتي من بذور. وسيعالج بعضنا الأضرار، ويصنع الآخرون الحذاء، وسيعنى الآسائذة بالناشئة، ولن نعرف للمشردين وجوداً. ولكن عندما نصر على أن نكون قوة عالمية، فسنبقى في الدواوين، ووراء المكاتب جالسين، مستهلكين أبداً غير منتجين أو مصنعين. إن المرء لن يتضور جوعاً، ولو كان على جزيرة نائية، مجدبة وقاحلة، طالما أنه لا يطمع بجار له ولا يحشر أنفه في شؤون صديق، وبعبارة أوضح، طالما ليس هناك من نفوذ يقلق على ضياعه، ولا داع لمراقبة دهاة الغرب، على مسرح العلاقات العالمية.

ونظرية «الزعامة القدوة»، قد ملكت على الأمريكيين تفكيرهم وملأت عليهم حياتهم. وإن كانت الغبطة تملأ قلب الحكومة الأمريكية ويغمرها السرور كلما عاد زكريا

محي الدين إلى الظهور على مسرح الأحداث في مصر - كتسلمه منصب رئيس الوزراء أو نائب رئيس الجمهورية أو رئاسة أية لجنة أخرى- فليس سبب ذلك عطف زكريا على الأمريكيين وميله لهم -فهو لم يكن كذلك يوما، ولن يكون- بل سببه أن زكريا هو أحد أفراد بطانة ناصر القائلين بمبدأ «الزعامة القدوة»، ومن المنادين بمبدأ السيطرة على العرب وقيادتهم، عن طريق البناء والإعمار، واتباع الوسائل الإيجابية وليس عن طريق العنف وتحريض الإرهابيين ضد رؤسائهم وحكام بلادهم.

ومن وجهة نظر اقتصادية، لم يكن الأمريكيون يفكرون بأن الأوضاع في مصر سوف تتغير تغيرا جذريا لقد كانت نظرهم أن مصر ستبقى اقتصاديا كما كانت تقريبا قبل قيام ناصر بانقلابه ولكن مع تحسن وتقدم في جوانب الحياة ومعالمها.

وستكون معالم الاقتصاد المصري كما يلي:

- تصدير المواد الأولية: اعتقد الأمريكيون أنه لن يكون بمقدور المصريين تصنيع أجهزة الراديو والسيارات وغير ذلك بنفس تكاليفها المتدنية التي يمكنهم شراؤها من الدول ذات الخبرات الطويلة في مجال الصناعة. ويشارك المصريون بهذا الوضع أمم كثيرة أخرى تخلفت عن ركب الثورة الصناعية بأشواط بعيدة. كما اعتقد الأمريكيون أنه لن يكون هناك أية فرصة لإدراك المصريين الدول المتقدمة صناعيا وللحق بها. ففي نفس الوقت الذي ينكب المصريون فيه على تطوير أنفسهم وتصنيع بلادهم - دون أن يكون لديهم أية معطيات أولية في هذا المضمار - يكون الألمان والإيطاليون والفرنسيون - دون ذكر اليابانيين [لأنها حالة استثنائية] - قد قطعوا أشواطاً أكثر بعدا وأصعب منالا.

ومهما كان تصميم المصريين على تصنيع أنفسهم وإصرارهم على اللحاق بغيرهم، فإن الهوة الفاصلة بينهم وبين الدول المتطورة صناعيا ستزداد اتساعا، ولن تضيق أبدا. أما إذا التفت المصريون إلى تطوير وتحسين مواردهم الطبيعية فسيبيعونها للأمريكيين بالعملة الصعبة وسيبتاعون بها ما يشاءون من المنتجات المصنعة التي هم في حاجة إليها.

- التصنيع الخفيف: على المصريين أن ينضموا إلى نادي الصناعة، إلا أن ذلك يجب أن يكون ضمن حدود طاقاتهم وأن يكون معتمدا على إنتاجهم الزراعي وأن يضمن لهم قدرا كافيا من العملة الصعبة. وكان الأمريكيون معارضين لمبدأ التصنيع للتصنيع، أو

ما يسمى «بصناعة العزة والكرامة»، مثل اقامة معامل الصلب والحديد ومصانع السيارات التي تظهر أبسط الحسابات على أنها خاسرة وغير مربحة.

- المشاريع الحرة: لقد ارتاع المستشارون في الشؤون الإدارية الذين خدموا في مصر في الأيام الأولى لحكم ناصر لضخامة جهاز الموظفين في مصر وعجزه عن تأدية واجبه. وبدا لهم جليا أن السبيل الوحيد لخلق مشاريع صناعية وأخرى لتوفير العملة الصعبة، هو فتح الباب على مصراعيه أمام الأفراد ذلك بقصد زيادة انتاجهم وليس بقصد اعاقتهم وملاحقتهم بتهمة تهريب الأموال والارباح.

- مجتمع مدني وجيش صغير: لقد أدركت وزارة الخارجية الامريكية ضرورة امتلاك ناصر جيشا قويا لدعم قاعدة القمع وللمساعدة في المحافظة على الأمن الداخلي، وللاستعانة - إلى حد ما - ببعض ضباطه في إدارة المؤسسات الحكومية المدنية التي تعاني فسادا عاما وانحيارا شاملا ويرى الغربيون -الذين لا يهتمون بغير الجانب الاقتصادي لمصر- أن الغاية من وجود حكم قوي في البلاد هي حفظ النظام وتطبيق القانون، وهذان لا يتطلبان جيشا ذا تعداد كبير كما هو حال طبقة «العسكريتاريا»، التي أرادها ناصر دعما لقاعدة القمع، وضمانا لبقاء النظام.

لقد تعلم رجال الأعمال وعلماء الاقتصاد الغربيون في مجتمعاتهم أن الحكومة تتغير من وقت لآخر وبصورة طبيعية نتيجة ثقة يحجبها البرلمان عنها أو انتخابات تجري في البلاد إلا أن ناصرا لم يتعلم هذا. لقد كانت نيته البقاء في الحكم والخلود فيه.

- الحكم واستقرار السلطة: فناصر لا يرى أن هدف الجهاز البيروقراطي في دولته هو لخدمة الأمة والسهر على مصالحها، وإنما هو أحد أركان «قاعدة القوة» التي يرتكز إليها سلطانه، فالآلاف المؤلفة من الموظفين ليسوا موظفين وإنما هم لبنات في هيكل الحكم وصرح عظمتة. إنهم الشعب وقواعد النظام ومرتكزاته. يبلغون المليون في التعداد، وتعج بهم أحياء القاهرة ويموجون في شوارعها. يؤلفون طبقة كاملة من طبقات الأمة، ويرفدونه بحشود هائلة من الأتباع والأنصار. وهم فوق كل هذا وذاك، أعضاء حزبه الوحيد، ولا غيرهم من الامة أعضاء فيه. أما أن يقتصر ناصر على مائة وثمانين ألفا من الموظفين (وهذا أقصى ما سمحت له به مؤسسة أمريكية للاستشارات، كان ناصر قد

طلب منها دراسة الوضع عن كثب - لإيجاد إدارة فعالة)، فإن هذا لن يفي بالغرض، ولن يحقق الهدف.

وكذلك الأمر بالنسبة للجيش، فناصر لا يكتفي بجيش صغير العدد محصور المهام (مثل إخماد الاضطرابات وقمع المظاهرات داخل مدن البلاد)، يقل عن خمسين ألفاً وليس أكثر. فهو حقاً لم يرد جيشاً، بل أراد خلق طبقة من العسكر، «عسكريتارياً» وما كانت لتكون "طبقة" إلا إذا تجاوزت في التعداد ستمائة ألف أو تزيد.

ولكن ناصر لم يكن من الموفقين، ولم يكن الحظ له من المبتسمين. لقد سجن نفسه في حلقة مفرغة ما خرج منها، ولن يكون من الخارجين. وقلقت عليه حكومتنا (الحكومة الأمريكية) قلق الحبيب على الحبيب، وشغل بال الأصدقاء، فلم يغمض لهم جفن ولم يهدأ لهم قرار، أراد ناصر «الاستعراض الكبير» [المشاريع الصاخبة وليست المنتجة فعلاً] ليكسب به احترام العالم ويربح المساعدات. غير أن «للاستعراض الكبير»، تكاليف وإبقائه حياً مصاريف. وللعالم الخارجي طاقات وأساليب. فهو عن «الاستعراض الكبير» عازف، ولنفاقته غير مستجيب.. لقد تعطلت عجلات والاستعراضات الكبرى، عن السير، وتوقفت محركاتها عن العمل. وغاصت بمن عليها في وحول ومستنقعات لن تنجو منها إلا بأعاجيب ومعجزات.

تعدد القوى العالمية وانتهاء أسطورة القطبين

وتتقلب الأحوال وتحل بك الازمات حتى تمسي طريدا لا دور لك، وقد كنت عزيزا
منعما

وجاء بعدها عهد الرئيس كينيدي. فبعد شهر، أو ما يقارب الشهر، من تقلده السلطة رسمياً، وجواباً على رسائل التحية والمجاملة التي أرسلها كن رؤساء الدول العربية، استلم الرئيس كينيدي رسالة من رئيس أفقر دولة في العالم ولكن أعرقها قدماً إلى رئيس أغنى دولة في العالم ولكن أحدثها سناً.

وكانت هذه الرسالة (التي ظن محللو وزارة الخارجية الماهرون الذين لهم سابق تجربة وخبرة بهذا النوع من الرسائل أنها من حياكة الرئيس ناصر نفسه) تعلق على أوجه الشبه في السن والتكوين العائلي وغير ذلك بين الرئيسين (كنيدي وناصر)، وانتهت بالاقتراح أنه ليس من إضاعة الجهد والوقت بشيء، أن يقف الرئيس كنيدي على الفوارق الصارخة بين إدارة دولة كمصر وإدارة أخرى كالولايات المتحدة. كما أنه من دواعي سرور الرئيس ناصر أن يستقبل مبعوثا موثوقا من الرئيس كنيدي حتى يطلع على الحالة في مصر ويسهل له دراسة أوضاعها ومشاكلها عن كثب.

وفي أيار (مايو) عام ١٩٦٢ قرر كنيدي أخيرا إرسال صديقه الحميم وأستاذه القديم (ادوارد ماسون) إلى القاهرة. وماسون هذا كان أستاذ كنيدي في علم الاقتصاد عندما كان الأخير في جامعة هارفرد، كما أن ماسون قد ألف كتباً عدة ونشر مقالات كثيرة حول اقتصاد الدول المتخلفة.

وأخيرا وصل البروفسور ماسون إلى القاهرة. ومنذ اليوم الأول لوصوله أخبره ناصر أن له الحق كاملا في أن يدقق في أمور البلاد وشؤونها كما يفعل هو (أي ناصر) نفسه، كما أن له أن يعرف كل شاردة وواردة دون تخرج أو تكلف حتى يلمس المصاعب كما يلمسها ناصر بنفسه، وطلب منه ناصر أخيرا أن يطلع على كافة تفاصيل حلول ناصر للمشاكل البلاد. وأتاح ناصر لماسون حرية التجول والتدخل وبرهن على ذلك بأن طلب من نوابه وكافة وزرائه وكبار المسؤولين الرئيسيين تزويد ماسون بتقارير شاملة وافية عن شؤون البلاد وأوضاعها. وفي خلال لقاءاته مع ماسون، كان ناصر يسأله قائلا: مستر ماسون، هل تظن أننا نتصرف بغير الطريقة التي كنت ستسلكها لو كنت حاكما لهذا البلد؟ وكان ماسون يجيبه: «كلا»، وغالبا ما كان يضيف عليها «كلا، سيدي الرئيس».

وكان من بين تلك التصرفات تأميم ناصر لأجزاء ضخمة من الاقتصاد المصري، واتخاذ إجراءات ديكتاتورية مثل فرض رقابة صارمة على الصحافة، واعتقاله السياسيين المخالفين له في الرأي، وشن الحملات الدعائية ضد الزعماء العرب الموالين للغرب على حد اعتقاد ناصر.

وكانت توصيات مستر ماسون تقديم مساعدات أمريكية أكبر لمصر. وأما المسؤولون الذين استجوبوا ماسون ودونوا ما اكتشفه في مصر من حقائق ومعلومات فقد جزموا أنه مهما كانت أعذار ناصر في تبرير سلوكه وتصرفاته وأنه لا سبيل له إلى فعل غير ذلك، فإنها بالتأكيد معادية للمصالح الأمريكية وغير منسجمة معها أبداً. وعليه فعلى الأمريكيين أن يختاروا إما:

(١) تغيير الظروف.

(٢) تبديل مصالحهم وتعديلها.

(٣) الإطاحة بناصر واستبداله بآخر يتصرف بصورة أخرى تحت نفس الظروف مهما كان تصرفه غير منطقي.

(٤) توجيه تصرفاتنا في المستقبل وتخطيط أعمالنا في المنطقة على أن ناصراً عدو لنا وعلينا أن نعامله بطريقة ما بغض النظر عن صحة تصرفاته وانسجامها مع مصالحه.

**** يقول زكريا محي الدين في إحدى محاضراته:**

إن لعبة الأمم هي المواقف والتصرفات التي تتبناها الأمم. جريا وراء مصالحها وطمعا في تحقيق أهدافها القومية بأية وسيلة غير الحرب. إنها تضع مسبقا في اعتبارها أن مصالح الأطراف كلها متضاربة متباينة مهما بلغت درجة الصداقة وتوطدت الأواصر بينها.

إن أي ربح تجنيه إحدى تلك الأمم لن يكون إلا على حساب أمة أخرى، واللاعب الماهر فيها هو الذي يحصل على كل الغنائم لصالحه ويدخل في ائتلافات آنية وتجمعات تكتيكية مع غيره من اللاعبين الذين تجمعهم معهم مصالح ومنافع مشتركة. وعليه أن يوزع الأعباء على الخاسرين بأجمعهم حتى لا يصيب الطرف منهم أكثر من طاقته وبهذا لن تسوء حالته إلى حد يدفعه إلى القيام بردود فعل عنيفة ومتطرفة، أو إلى حد يضطره إلى الكف كلياً عن المشاركة في اللعبة وبالتالي اللجوء إلى الحرب واستخدام القوة.

**** هل يخفض ناصر عدد أفراد جيشه الى خمسين ألفا؟ هل يخفض ناصر عدد طبقة الموظفين، إلى مائة وثمانين ألفا؟ هل سيعيد ما أمه من صناعات الى أصحابها الشرعيين؟ هل يعلن حل الاتحاد العربي الاشتراكي، تاركا للحظ اختيار وريث له؟ إنك حينما تأتي إلى تنفيذ مثل هذه الإجراءات ستجدها فجأة من رابع المستحيالات تفكيراً وتنفيذاً ولو أن ناصراً رآها هكذا فليس ذلك لأنه قد أضحي «مجنون سلطة»، أو أنه قد فقد عقله.**

الحرب العربية الإسرائيلية حزيران (يونيو) ١٩٦٧ وذيولها

... وأخيراً، فكل حال يزول ...

**** كان شغل ناصر وضباطه الشاغل قبل الحرب بشهرين خراب اقتصاد البلاد وانحياره. ففي بداية تلك السنة (١٩٦٧) قام فريق من الباحثين يعملون لشركة بإحصاء أدق الأرقام التي توفرت عن مقدار العملة الصعبة والذهب المخزون في مصر عام ١٩٥٢ يوم قام ناصر بانقلابه. ثم أضافوا إليه مجموع المساعدات الأجنبية (من قروض وهبات) التي تلقتها الحكومة، وأضافوا إليه أيضاً مجموع ما أدخرته مصر من ثمن الصادرات بين منتصف ١٩٥٢ وحتى نهاية عام ١٩٦٦، وأنقصوا من المجموع الحاصل النفقات والمصروفات (الخارجية وثنم الواردات) فكانت النتيجة أن معدل عجز مصر التجاري قد بلغ حوالي أربع مائة مليون دولار سنوياً وقد استنفذ تقريباً كل تلك الواردات بما فيها قروض استدانته الحكومة وعجزت عن أدائها.**

وعلى حد قول البروفسور لاکور فان احتياطي مصر قد تدنى حتى أضحي حوالي أربعين مليوناً من الدولارات كذهب مخزون وستة وأربعين مليوناً من الدولارات بشكل عملات صعبة. ولو أن امراً حاول أن يبحث حثيثاً في القاهرة عن تلك الستة والأربعين مليون دولار، لما كان له - لدهشته - أن يعثر على أكثر من مليونين أو ثلاثة يجب دفعها لتسديد ثمن مشتريات طارئة لا مناص منها.

فكم من معامل أغلقت أبوابها لنقص في قطع التبديل التي لا تكلف أكثر من بضعة ألوف من الدولارات. وأوقفت يومها شركة الطيران العربية المتحدة أربعاً من

طائراتها الكوميت السبعة لنقص في قطع الغيار مع أن هذه الشركة تعتبر أحد مصادر العملة الصعبة في مصر. ولو أن الحكومة المصرية باعت يومها كل ما تبقى لديها من ذهب ما كان ليكفيها هذا لأكثر من شهر واحد تسدد به ثمن ما اعتادت عليه من واردات وتدخر منه دراهم معدودات.

وفي التقارير الاقتصادية الربع سنوية للسفارة الأمريكية في القاهرة تجد رأيا أن الحكومة المصرية كانت مفلسة فعلا قبل عام من الزمن (أي في أوائل ١٩٦٦). وأما الساخرون من بين المراقبين الأجانب الذين حنكتهم الظروف ومرستهم الأحداث فقد قالوا يومها: «لقد اعتدنا على سماع هذا النغم القديم أعواما، ولكن مصر دائما تجد منطلقا لها ومخرجا من هذه الازمات». غير أن هذه المرة كان من الواضح جدا أن الجمهورية العربية المتحدة قد هوت إلى الحضيض، وعندما أدرك السوفييت أن مساعدات الغرب قد نضبت والمنافسة بينهم وبين الأمريكيين قد انتهت بدؤوا بتقديم المساعدات شيئا فشيئا، وبمقادير قليلة وحسب ما يروونه من ظروف مناسبة وأحوال ملائمة.

**** كنت أعتبر ولسنين عديدة، أن نظام ناصر أكثر النظم حصانة ضد الانقلابات في العالم العربي، ولا أزال أرى ذلك. الا أنه في آذار (مارس) ونيسان (أبريل) عام ١٩٦٧ بدا بدون أدنى شك أن ناصرا قد وصل إلى طريق مسدود، وأنه كان وضباطه بذلك عالمين.**

وبدا يومها في مصر أن «الاستعراض الكبير» قد انتهى، وقررت حكومتنا (وكانت قد قدمت ليومها أكثر من خمس مائة مليون من الدولارات كمساعدات منذ انتهاء الازمة اللبنانية ١٩٥٨) أنها لن تقدم مساعدات جديدة إلا على أساس من طرق استثمارها والاستفادة منها وليس على أساس من الضغط السياسي.

إن إصرار ناصر على القفز إلى مسرح السياسة العالمية ليلهو هناك قد كلف المصريين نفقات باهظة كان يمكن استغلالها بشكل أجدى في مجالات أخرى، وعلى كل دولة تساعد مصر أن تدرك أنها بذلك تقدم دعما لناصر لتحقيق أطماعه وآماله خارج بلاده، كما تساعد على ضم ممالك جديدة لعرشه الغزير بها.

****** لقد أخبرني ناصر نفسه، وقبل أسبوع واحد من الحرب، عن محادثة جرت بينه وبين المشير عامر عنفه فيها قائلاً: «إنك - عزيزي عامر - متخلف ما لا يقل عشر سنين عن العصر الذي أنت فيه. كيف ستلحق هزيمة بجيش حديث وحسن التدريب مثل الجيش الإسرائيلي وجيشك لم يتمكن لسنوات أن يخضع شراذم اليمينيين من المدمنين على المخدرات!»، وأزيد على هذا أن النظرة الآنفة الذكر لم ينفرد بها ناصر وحده بل أبدى كبار ضباطه شكاً كبيراً في قدرة الجيش المصري على العمل وكفاءته في القتال.

وقد أقلق خطاب ناصر في ٢٩ أيار (مايو) عام ١٩٦٧ كثيراً منا حيث قال فيه: «لقد باتت استعداداتنا كاملة، ونحن الآن مهينون لمواجهة إسرائيل ... ولقد أصبحنا قادرين على معالجة قضية فلسطين بأكملها» وكذلك قوله: «سوف نقرر نحن وليس هم زمان المعركة ومكانها».

****** إن ناصر من أكثر من عرفت من بين الزعماء جرأة، لا يقبل الرشوة ولكنه لا يؤمن «بعلم الأخلاق».. لقد مهدنا - نحن الأمريكيين - الطريق لناصر، ولقد سلك ناصر هذا الطريق ولم يكن من المخالفين.

السياسة والجنس

في عصرنا الحديث لا يكاد يمر يوم إلا ونسمع به عن فضيحة أخلاقية طاحت بمسؤول ما من منصبه، أو زعيم ما كانت تحركه امرأة جاسوسة في قصره. والأمثلة على ذلك أكثر بكثير من أن تحصى.

وهنا نستعرض بضعة نماذج نوضح فيها كيف أن هناك هيئات عالمية خفية تحاول السيطرة على مقدرات الشعوب وخيرات بلادها من خلال استخدام الجنس كسلاح فعال من أجل تحقيق هذا الهدف.

وسوف نلاحظ كيف استطاع الجنس أن يغير سياسة وتاريخ البلاد وكيف أمكن له أن يغير مجرى ونتائج الحروب، وكيف استخدم كسلاح فعال في الانتخابات الرئاسية في أمريكا.. الخ

ولكن الأهم من كل ذلك أننا سنتعرف على الدور اليهودي العالمي في استخدام الجنس كوسيلة ضغط سياسية على الشخصيات التي تحاول التمرد على المخطط اليهودي العالمي الرامي إلى استعباد كل شعوب العالم دون استثناء.

بيل كلينتون ابن غير شرعي

كان أبيه زير نساء وبيئته مرتعاً للفساد ومأوى لرجال المافيا عندما يسعى رجل ما للوصول لمنصب الرئاسة في الولايات المتحدة الأمريكية فإن هناك جهة ما - غالباً ما - تكون خفية - تسعى لتنظيف سمعته وماضيه السيء في حال قناعتها به. وتحفظ لنفسها بكل أسرار حياته وخلفياتها الدقيقة جداً، وذلك لاستعمالها كورقة ضغط عليه في حال خروجه عن خط السير الذي تفرضه عليه.

ويمكن القول بأن الرئيس الأمريكي بيل كلينتون ما هو إلا واحداً من هذه النماذج.

فحتى الآن لا يزال الكثير من الغموض والجدل يحيط بنشأة الرئيس الأمريكي بيل كلينتون في ولاية أركنسو، حيث يصطدم كل من يحاول البحث عن ماضيه وماضي بلدته

المدّهِش بما يشبه «الحرس البريتوري» الذي يحمي أسطورة كليبتون ولا يسمح إلا بترديد الرواية الرسمية عن نشأته.

ويتألف هذا «الحرس» من مجموعة غربية من الأصدقاء القدامى للرئيس وعائلته إضافة إلى مدرسين جيران كان معظمهم يعرفه طيلة حياته، وهم ضمن لائحة «مقبولة» من الأشخاص الذين يتطوعون لمساعدة من يريد البحث عن كليبتون الحقيقي. وتستند معظم التقييمات لأسطورة كليبتون إلى شهادات هؤلاء الأشخاص الذين تولوا تزيين الحقيقة حتى يكاد وعائلته يصبحون نماذج مثالية تبلغ حد الكمال.

حيث يرددون دائماً الرواية الرسمية التي تقول: ولد بيل الذي كان اسمه جيفرسون بلايت الرابع في (١٩) آب عام (١٩٤٦) في بلدة هوب في أركنسو، وهو ابن لوليام جيفرسون بلايت الثالث المتوفى. وفردينيا بلايت «كانت تحمل لقب كاسيدي قبل زواجها».

وكان ويليام بلايت الحب الأكبر في حياتها، طيباً بالفعل وبائعاً متجولاً، وقتل في حادث سيارة بينما كان في طريق عودته إلى منزله وأصيبت فيرجينا بصدمة كبيرة، إلا أن الفرحة تملكها عندما ولدت ابناً بعد أربعة أشهر من الحادث، وأقسمت أن تبذل قصارى جهدها لتمنحه أحسن ما في الحياة. بالرغم من أن ظروف عملها كممرضة كانت تفرض عليها الابتعاد عن الطفل، إلا أنها كرسّت حياتها كلها من أجل مستقبله.

ولكن وبعد ثلاث سنوات في (١٩٤٩) تزوجت فيرجينا من روجر كليبتون، الذي كان يعمل في بيع السيارات، كان رجلاً طيباً ولكن مضطرباً بعض الشيء، وتبنى بيل اسمه طوعاً. ونشأ بيل طفلاً لطيفاً تميز بأناقته وأدبه ودماعته مما جعله موضع حب الجميع، وأدركوا أنه سيصبح رئيساً في النهاية.

وكان موهوباً إلى حد أن زملاءه في المدرسة اعتادوا أن يذهبوا إلى منزله لمجرد مراقبته وهو يقرأ وعند بلوغه مرحلة المراهقة كان يعامل الفتيات دائماً باحترام. وكان يحب أمه أكثر من أي شيء.

وعلى هذا تجده صفحة نقية من الطهر والبراءة. فهل كان ذلك حقاً؟

الرواية المختلفة:

ما أن يخرج المرء من أسار هذه الرواية حتى تتضح معالم صورة مختلفة للغاية عن بيل كلينتون وعائلته والبيئة التي نشأ فيها، وتكشف العوامل التي جعلت الرئيس الـ (٤٢) للولايات المتحدة على ما هو عليه، فالمعروف عن أبيه أنه كان زير نساء وتزوج ثلاث مرات. أما زوج أمه الذي نشأ في كنفه، فهو مدمن على الكحول، واشتهرت بلدة هوت سبرينجر التي ترعرع فيها بأنها مرتع فساد ومنتجع ترتاده المافيا إلى جانب رجال مكتب التحقيقات الفيدرالي (إف بي آي).

خفاياه الشخصية:

ويمكن القول أن تلك البيئة السيئة التي عاش فيها تبرر له سلسلة الفضائح الجنسية التي لا تنقطع والتي منها على سبيل المثال قصة جينفر فلاورز التي أكدت بأنها كانت عشيقته الخاصة لفترة طويلة، إضافة لما اشيع عنه عن قهره من الخدمة العسكرية. حيث كان بدوره يبرر سبب ذلك بقوله أنه كان عليه أن يذهب إلى جامعة أكسفورد، ثم الماريجوانا: لم أستشقيها

ثم لاساتر (صديقة أحد مؤيدي حملته الانتخابية، الذي اتضح تورطه في تجارة المخدرات وغسيل الأموال) ثم فوستر غيت (نسبة إلى صديقه القديم فوسون المتورط في قضية وايتووتر الذي أفيد أنه انتحر واختفت وثائق من مكتبه)، ثم تروبر غيث (الفضيحة التي استندت إلى شهادات الأفراد من شرطة الولاية أفادوا بأنهم كانوا يجلبون فتيات إلى مقر الحاكم المعروف بشغفه بالنساء) وأخيراً باولا جونز (الموظفة السابقة في أركنسو التي رفعت شكوى على الرئيس الأميركي متهمه أياه بالتحرش بها جنسياً في العام (١٩٩١).

باولا جونز تمتلك الدليل:

في (٢٥) تشرين أول عام (١٩٩٤) أعلنت باولا كوربين جونز أنها تستطيع اثبات محاولة الرئيس الأميركي بيل كلينتون ممارسة الجنس معها (١٩٩١) عندما كانت موظفة صغيرة وكان هو حاكم ولاية أركنساس.

رواية جونز:

وتدعي باولا جونز (٢٧ عاما) بأن كلينتون استدعاها إلى غرفة في فندق أكسلسيور في مدينة ليتل روك خلال إقامة معرض تجاري ترعاه الولاية ويتحدث فيه كلينتون، وذلك في ٨ أيار / مايو ١٩٩١، حيث كانت تعمل في مكتب التسجيل، وترغم جونز أن الحارس الشخصي لكلينتون استدعاها بناء لطلبه، وقال لها أن الحاكم يريد أن يراها. رافقها الحارس إلى الغرفة حيث ترغم أن كلينتون تصرف معها بشكل غير لائق، وحاول حثها على القيام بأعمال معينة، «أمسك بيدي». تقول جونز أخذ يحل ربطة عنقه. ثم قال لي. «أن لك مفاتن رائعة، وأنا أحب الطريقة التي ينسدل فيها شعرك فوق جسمك». لكنها كما تؤكد صددت محاولاته الجريئة، ثم غادرت الغرفة على الفور.

وباولا جونز، المتحدرة من عائلة محافظة كانت حينذاك مخطوبة وعلى وشك الزواج وهي تؤكد أنها توجهت إلى غرفة كلينتون ظنا منها بأنه سيعرض عليها وظيفة أفضل. ويقول دانيال ترايلور محامي جونز: «ظنت أن الدعوة كانت لفئة كريمة من الحاكم، وأنها فكرت في الطلب منها منحها فرصة لتحسين مركزها الوظيفي».

وفي الواقع أقام المحامي ترايلور دعوى قضائية ضد الرئيس كلينتون مطالبا بتعويض لموكلته قدره ٧٥٠ ألف دولار، مانحا أياه مهلة ٢٠ يوما للرد وحذر ترايلور البيت الأبيض من أن جونز ستقاضى الرئيس إذا لم تتسلم اعتذاره أو اعترافه بالحادث، على أقل تقدير.

رد البيت الأبيض:

ما أن وصل الإنذار القانوني إلى البيت الأبيض حتى جاء الرد التالي أن كلينتون لا يتذكر أنه التقى باولا جونز المدعية. وفي هذا المجال تقول جونز أن في حوزتها إفادات

ثبوتية من فتاة أخرى كانت تعمل معها على طاولة التسجيل تقول أن جونز إثباتها حينذاك أنه طلب منها الدخول في علاقات عاطفية مع كلينتون.

وأكد المحامي ترايلور لإحدى الصحف، «هذا العمل لا أريد عادة أن أقوم به لقد ترددت كثيرا حوله وأعطيت البيت الأبيض كل فرصة لتحاشي هذا الأمر والضرر الذي سيلحق بموكلتي وزوجها في مجال زواجهما، سيكون كبيراً جداً ما لم يعلن الخطأ ويصحح».

وهذه الواقعة هي أحدث فضيحة نسائية تطال الرئيس الذي ما فتئ يتعرض لشائعات مماثلة منذ إعلانه عن خوض معركة الترشيح للرئاسة. لكنها الفضيحة الأقوى بين مثيلاتها لأن جونز لا تبغي جني الأرباح الطائلة من خلال المقابلات الصحفية، أو نشر الكتب أو الأفلام أقله حتى الوقت الحاضر.

وهذا ما تؤكد السيدة جونز التي تقول أنها لم تسع للمال في هذا المجال كما أن أحداً لم يعرض عليها الدفع وأضافت أنها دفعت من مالها الخاص ثمن تذكرة السفر للذهاب إلى واشنطن وعقد مؤتمر صحفي، حيث تجاهلتها وسائل الإعلام الأميركية كلياً. قالت أن خطوتها هذه ترمي إلى تنقية سمعتها، لأن إحدى المقالات المنشورة في صحيفة «أميريكان سبكتيتور» ألحت إلى أنها امرأة سهلة المنال.

قصة كلينتون جونز في الصحافة

شهود وآراء:

والجدير ذكره هنا أن هناك أربعة شهود: صديقتان واثنتان من أفراد العائلة - قالوا أن جونز أخبرتهم عن محاولات كلينتون يوم حصولها، وكانت اتهامات جونز قد وردت لأول مرة في شباط / فبراير الماضي في مؤتمر صحفي أقيم على هامش مؤتمر جماعة «العمل السياسي المحافظ»، وذلك بناء لرغبة كليف جاكسون من محامي ليتل روك والعدو الدائم لبيل كلينتون.

تقول جونز، أنها بعد رفض محاولات كلينتون أسيتت معاملتها على صعيد العمل وجرى نقلها إلى وظيفة أخرى كما منعت عنها الترقية، وبما أن قوانين الولاية تمنع إقامة

دعاوى التحرش بعد مرور ٦ أشهر على حصولها فأثارت تقاضي خصمها الآن على أنه سبب لها الكآبة العاطفية إضافة إلى حرمانها من الحقوق المدنية والتشهير.

يبقى بعد كل هذا أن يجيب محامو كلينتون على السؤال التالي هل تجوز مقاضاة الرئيس على مزاعم سابقة لولايته؟

يقول روبرت بينيت محامي الرئيس كلينتون، أن الرئيس سيتصدى بقوة لهذه الدعوى التي يصفها بأنها ذات دوافع سياسية ومالية، وأضاف في مؤتمر صحفي كان عقده في واشنطن. الأمر بسيط للغاية، فالواقعة لم تحصل مطلقاً.

ويتابع بينيت قائلاً، أنه سيتحرك لإبطال الدعوى على أساس أن الرئيس الممارس لمهامه الرئاسية لا يمكن مقاضاته في أمور قد تكون حصلت قبل تسلمه سلطاته الدستورية»

ولكن، ومهما يكن من أمر فإن ادعاءات جونز بدأت تتسبب بمشاكل للرئيس كلينتون ولزوجته هيلاري التي أنبرت تدافع عن زوجها معتبرة أن الصحافة التي تهاجمه تروج الشائعات ضده. ومن الآن، وحتى تنجلي الحملة سيكون على الرئيس كلينتون أن يتوقع المزيد من الاتهامات النسائية ضده، ذلك أن سمعته العاطفية على ما يبدو، لم تكن فوق الشبهات كما كانوا يزعمون.

كلينتون ابن غير شرعي:

وخلافاً للرواية الرسمية، يتضح عند تفحص شجرة العائلة من جذور كلينتون ليست قوية في أركنسو فأبوه ويليام بلايت الثالث، كان ينتمي إلى المتوجولين الطائرين الذين كانوا يطوفون في الولايات الجنوبية قبل الحرب العالمية الثانية وبعدها، وكان قد تزوج ثلاث مرات قبل ان يلتقي فيرجينيا كاسيدي، واثنتان من تلك الزيجات كانتا مع شقيقتين، ولم ينته زواجه الثالث _بوانيتا الكساندر في (١٩٤١) إلى (١٩٤٤) - بعد سبعة أشهر على زواجه من فيرجينيا كاسيدي - مما يجعل رئيس الولايات المتحدة، من الناحية الفنية، ابناً غير شرعي.

روجر كلينتون:

«روجر كلينتون» الذي تزوجته فيرجينيا العام (١٩٤٩)، لم يكن مجرد رجل مضطرب بعض الشيء «منعه الطفل الشجاع بيل ذات يوم من ضرب أمه» بحسب ما تصفه الرواية الرسمية فالحقيقة تكشف أنه كان مستهتراً ومدمناً على الكحول، وعرف بولعه في استخدام مضرب بيسبول للاعتداء على أشخاص من أقليات قومية ويقول جورج مورفي أن روجر اعتاد أن يضرب أمي، كما اعتاد أن يضرب فيرجينيا أيضاً، لم أسمع ابداً تلك القصة في شأن التحذير الذي تلقاه من بيل، عندما كان في الرابعة عشرة من العمر، بألا يضرب أمه. ظهرت تلك القصة فجأة خلال الحملة الانتخابية ولا أصدق أي كلمة منها.

فإذا كان بيل قال لروجر أي شيء من هذا النوع فإنه كان سيشبعه ضرباً. ولا يبدو أن أحداً سمع بتلك القصة قبل الانتخابات بما في ذلك أفراد «الحرس البريتوري» المكلفين بترديد الرواية الرسمية.

الزيجات الثلاث وماضي الأم المشبوه:

وانتهت ثلاث من زيجات فيرجينيا الأربع إلى الفشل وتقول مليندا غامواي المحررة في صحيفة ذي سنتينل في بلدة هوت سبرينغر أنه جرى الكثير من إعادة كتابة التاريخ الخاص بحياة والدته الرئيس التي توفيت العام الماضي.

وبين القضايا الأخرى التي يجري تناسيها دعوتان قضائيتان أقيمتا ضد فيرجينيا وأدها إلى تقاعدها من مهنة التمريض في (١٩٨١). وتتعلق كل منهما بمريض توفي أثناء وجوده في رعايتها كممرضة تخدير، سويت احدهما خارج المحكمة، بينما برئت ساحتها في الثانية. وربما ساعد في تبرئتها ان ابنها بيل كان آنذاك حاكماً للولاية.

وطلقت فيرجينيا زوجها الثاني روجر عندما كان بيل مراهقاً، إلا أنها تزوجته مجدداً «لأنها شعرت نحوه بأسى». وظلت بجواره إلى أن توفي نتيجة إصابته بالسرطان ومضاعفات ناجمة عن إدمانه على الكحول.

وكان الزوج «رقم (٣)» هو جف دواير الذي تزوجته فيرجينيا في (١٩٦٨) وعاشت معه حتى وفاته العام (١٩٧٤) أثر مضاعفات من مرض السكري. وجاء زواجها الأخير في (١٩٨٦) من ريتشارد كيللي، وهو تاجر أغذية متقاعد. وكان زواجاً سعيداً بقدر ما كان يؤمن لها نمط الحياة الذي تشتهيهِ ويعطيها ما يكفي من المال للإنفاق على زيارتها اليومية إلى حلبة سباق الخيل.

الأخ غير الشقيق:

لا يمكننا استكمال تفصي العلاقات المتشابكة لعائلة كلينتون دون التطرق إلى آخر أفراد العائلة وهو روجر كلينتون (٣٨) عام. الأخ غير الشقيق لبيبل. الذي يعرف الآن كموسيقي.

ولم تسلم قصة حياته هو أيضاً من عمليات التجميل، لكن حتى «الحرس البريتوري» لا يستطيع اخفاء إدانته في عام (١٩٨٤) بالتورط في تجارة الكوكايين. وتحاول الرواية الرسمية أن تفسر ذلك بتقديمه كفتى فقير وضعيف (٢٧ عاماً آنذاك) لم يكن مسؤولاً عن الجريمة التي كانت نتاجاً لإحساسه المؤقت بأنه لم يرق إلى مستوى نجاح شقيقه.

وخلال (١٨) شهراً من تسلم كلينتون الرئاسة ألغى روجر عقداً لتسجيل أغانيه وهجر معظم أصدقائه ومدير أعماله.

وعندما تزوج فتاة من تكساس ذكر مراقبون أنه كان تحت تأثير المخدرات خلال مراسم الزواج التي حضرها شقيقه الرئيس.

حقيقة أم أسطورة:

والأساطير التي نسجت حول بلدة هوت ميينغر ذاتها ليست أقل تأثيراً. ويشار إلى أن بيل كلينتون غادر مسقط رأسه في بلدة هوت عندما كان في الرابعة من العمر ويكاد لا يذكر شيئاً عنها أو عن حياته هناك بخلاف ما تدعيه قصة «الرجل من هوب التي روجتها دعايته الانتخابية.

وتصف الرواية الرسمية هوت سبينغر بأنها مدينة «كوسموبوليانية» ذات نكهة عالمية تركت تأثيرها في أبنائها، خصوصاً الفتى بيل، لكن الحقائق التاريخية تكشف أنها كانت، منذ العشرينات وإلى الخمسينات، منتجاً وملاذاً لكبار المحتالين والأشقياء في أميركا، ومن ضمن هؤلاء آل كابوني والفن كاربيس الذي اعتبره مكتب التحقيقات الفيدرالي (إف بي آي) عدو الشعب رقم واحد»

وكان من نزلاء بيت «هاتري» للدعارة. وكان «عم» بيل كلينتون، ريموند شقيق روجر الذي عرف بطموحه الشرس ومغامراته النسائية، يبيع سيارات للأشقياء من أمثال كابوني، واشتهرت البلدة بالفواحش، وظل مجلس بلديتها إلى أواخر السبعينات في ذروة الفساد، على رغم مظاهر الورع والذهاب إلى الكنيسة أيام الأحاد. هكذا، تميز الوسط الاجتماعي الذي نشأ فيه الرئيس كلينتون، ومارس تأثيراً كبيراً على حياته بامتلاكه «وجهين أحدهما للاستهلاك الخارجي والآخر للاستهلاك الداخلي».

فضيحة «وايتووتر»:

ولا يزال هذا الماضي يلاحق بل كلينتون حتى بعد وصوله إلى البيت الأبيض، وكان قد نظم حملته الرئاسية تحت شعار «رجل فوق الشبهات» واعداداً بأن إدارته ستكون المثال الأعلى للنزاهة، ولكن سرعان ما واجه مسلسلاً من الفضائح أخطرها فضيحة «وايتووتر» التي ألقت ظلالاً قائمة على صورة الرئيس الجديد وأثارت تساؤلات جدية عن ماضيه.

وسميت الفضيحة بهذا الاسم نسبة إلى الشركة العقارية التي أسسها كلينتون وزوجته هيلاري العام (١٩٧٨) في ولاية أركنسو بالاشتراك مع صديق وزوجته يملكان صندوقاً للتوفير.

والسؤال الذي أثارته هذه القضية هو ما إذا تم اختلاس الأموال العامة المخصصة لصندوق التوفير الذي أفلس لتمويل الحملة الانتخابية الذي نظمها كلينتون للوصول إلى منصب حاكم الولاية.

وأصبحت الفضيحة نوعاً من الصداق المزمّن ومصدر إحراج سياسي للبيت الأبيض، وأدت بشكل خاص إلى استقالة عدد من مستشاري الرئيس والسيدة الأولى التي كانت محامية صندوق ماديسون غارانتى سايفينغز أندلون.

وأدى التحقيق في قضية وايتووتر، الذي يشارك فيه حوالي (١٠٠) من موظفي الـ «إف بي آي» وكلف (١٠) ملايين دولار، إلى إدانة حاكم ولاية أركنسو جيم غاي توكر أخيراً بالكذب في شأن قرض قيمته (٣٠٠) ألف دولار والتهرب من دفع ضرائب تبلغ ملايين الدولارات.

وفي غضون ذلك، واصل المدعي كنيث ستار تحقيقاته في فضيحة «وايتووبر» وينتشر عملاء «إف بي آي» في أنحاء أركنسو لإجراء مقابلات وجمع معلومات عن الأموال التي انفقت خلال الحملة الانتخابية لضمان فوز كلينتون بمنصب حاكم الولاية لعام (١٩٩٠).

ومع ذلك، فإن هناك شعوراً عاماً لدى المحللين والمراقبين السياسيين بأن كل هذه الفضائح لن تهنر شعرة من رأس بيل كلينتون أما لماذا...؟

فهناك أكثر من جواب واحد الأول هو أن مثل هذه الزوابع الفضائية ما هي إلا حالة من التنبيه لكلينتون لكي لا يخرج عن الخط السياسي المكلف به وأنه ربما يكون قد استوعب ذلك ووعد بالالتزام التام بما يملأ عليه. قبل أن يطاح به بفضيحة ربما تكون أكبر وأعظم.

أما الاحتمال الثاني فهو ثقته بناخبيه. وعندما نقول هنا ناخبيه فلا نعني بهم عامة الشعب وإنما مراكز الثقل الرئيسية في البلاد.

ويمكن القول بأن كلينتون قد اكتشف مركز ثقل جديد لم يسبق أن تعامل معه أحد من قبل. وهو تجمع الشذوذ الجنسي.

مليون شاذ جنسي في أمريكا نافسوا اليهود في انتخابات كلينتون

كم عدد الشواذ جنسياً في الولايات المتحدة الأمريكية...؟

أثير هذا السؤال مكتسباً قدرًا من الشرعية، وذلك بعدما فتح الرئيس الأمريكي كلينتون أبواب البيت الأبيض لأول مرة أمام ممثلي الشواذ الجنسي من الرجال والنساء. حيث اجتمع بهم باعتبارهم من المدافعين عن الحقوق المدنية لهذه الفئة من المواطنين الأمريكيين.

وكان من بين ممثلي هذه الجماعات الذين اجتمعوا بالرئيس الأمريكي كلينتون بعض منظمي مسيرة الشواذ جنسياً في واشنطن.

وعودة إلى السؤال الأول عن عددهم فإن تقريراً أصدرته مراكز باتل لأبحاث الشؤون الإنسانية أظهر بوضوح وجود تفاوت كبير في التقديرات. فمن ناحية تراوح تقديرات عدد الشواذ جنسياً من الجنسين بين ١,٤ مليون شخص وخمسة ملايين نسمة. ومن ناحية أخرى يقول التقرير أن عدد الأشخاص الأمريكيين الذين يعترفون بأن لهم علاقة جنسية شاذة مرة واحدة على الأقل في حياتهم يراوح هو الآخر ما بين ٢,٩ مليون نسمة و١٢,٥ مليوناً.

وقد انبرى ممثلوا هذه الجماعات للاعتراض على مراكز باتل ومعلوماتها التي استقتها من استطلاع عام. فهم يؤكدون أن نسبتهم بين سكان الولايات المتحدة لا تقل عن ١٠، وهو التقدير الذي كانت قد أعلنته عام ١٩٤٠ جامعة انديانا الأمريكية نتيجة استفتاء واسع أجراه الباحث الأمريكي الشهير لفرد كينزي.

أما النسبة التي توصلت إليها مراكز باتل مؤخراً فإنها لا تتجاوز ١,١ ٪ وتعبيراً عن إصرارهم على أن نسبتهم بين السكان هي ١٠ ٪ لا أقل أنهم أطلقوا على المجلة الناطقة باسمهم والتي بدأوا إصدارها في عاصمتهم سان فرانسيسكو اسم «تن بي سنت» أي ١٠ ٪ وإذا بدا أنهم يبالغون فإن هناك دراسات تفيد أن نسبتهم بين الرجال الأمريكيين تبلغ ٢٠ بالمئة وبين النساء ١٧ بالمئة.

وأشهر هذه الدراسات معروف باسم «تقرير جانوس». لكن لابد من الإشارة إلى أن هذه النسب العالية تمثل أولئك الذين يقولون أنهم «جربوا» التسلية المثلية، أي العلاقة مع الجنس نفسه.

وحيثما يضيق ممثلوهم والناطقون باسمهم بلعبة الأرقام فإنهم يقولون سان توماس ستووارد أبرز الناطقين باسمهم والمدافع الأول عن حقهم في الانخراط في القوات المسلحة دون قيود - إن لعبة الأرقام هي في النهاية أحدها مناورات السياسة. فالذين يستهينون بأعدادنا يريدون أن يتركوا انطبعا لدى السياسيين بأن بإمكانهم أن يتجاهلوا المشكلة معتبرين أنها ليست مشكلة جدية.

لكن الحقيقة أن الحقوق المدنية ينبغي أن لا تكون أبداً مسألة أرقام والحقيقة أن مشكلة الشواذ جنسياً انفجرت بصورة شبه فجائية مع بدء التسعينيات بعدما كانت تغطس وتطفو تباعاً ولكن كمسألة هامشية. وأغرب ما في الأمر أنها تعد الآن واحدة من أكثر المشكلات الأمريكية تعقيداً، فهي ليست مشكلة اجتماعية أو خلقية أو طبية فقط، إنها بالإضافة إلى هذا كله مشكلة أمنية وسياسية. فلم تعد تتطلب مخاطبة من وزارة الصحة أو من الكنائس والهيئات الدينية وحدها. إنها تتطلب اهتماماً ودراسة من «البنتاغون» وهيئة رئاسة الأركان المشتركة، وبالمثل من الكونغرس ومن منظمات حقوق الإنسان والهيئات المعنية بالحرية المدنية.

وهل يمكن نسيان البيت الأبيض بعد الحدث التاريخي الذي جرى في بداية أيار عام ١٩٩٣ عندما استقبل الرئيس كلنتون وفداً من ممثلي الشواذ جنسياً من الرجال والنساء خرجوا بعد محادثاتهم معه مغتبطين بتأييد الرئيس مؤكدين أن تأييدهم له سيستمر لقد حصل في انتخابات الرئاسة على أكثر من ٨٠ ٪ من أصواتهم أي أنهم نافسوا اليهود على النسبة الأعلى بين الفئات المختلفة التي أيدت كلنتون في الانتخابات.

وكانت علاقات الشواذ جنسياً بالبيت الأبيض قد كادت تصاب بنكسة في الأيام المئة الأولى من رئاسة كلنتون بسبب تراجعه أمام ضغط الجنرال كولن باول رئيس هيئة أركان الحرب الأمريكية والعناصر المحافظة من الحزبين الجمهوري والديمقراطي على السواء في الكونغرس - فيما يتعلق بحقهم في الخدمة العسكرية على قدم المساواة مع الأسوياء.

اجتماع المكتب البيضاوي:

ولا بد أن الرئيس كلنتون استخدم أقصى قدراته على الأقناع مع هذه الفئة من مؤيديه حتى أنه استطاع أن يكسب تأييدهم ووعدهم بالوقوف وراءهم في كل القضايا، على الرغم من أنه أبلغهم بوضوح أنه ليس باستطاعته أن يقبل دعوتهم إليه للمشاركة في مسيرتهم الحاشدة يوم ٢٥ نيسان (إبريل) عام ١٩٩٣ إلى واشنطن «مسيرة المليون شاذ» كما يطلق عليها الآن.

ولقد بذل مساعدو الرئيس كلنتون أقصى جهودهم - بعد هذا الاجتماع الفريد من نوعه - للتقليل من شأنه - صحيح أن هذه أول مرة يلتقي فيها سيد البيت الأبيض بزعامات الشواذ وداخل المكتب البيضاوي، حيث حجرة مكتب الرئيس محراب الرئاسة الأمريكية لأكثر من مائتي عام.

كان بإمكانه أن يكتفي بلقاء معهم في الهواء الطلق في حديقة الزهور حديقة البيت الأبيض المزدهرة بالورود الحمراء والصفراء على مدار السنة، لكن مساعدي الرئيس منعوا كاميرات التلفزيون عن هذا اللقاء وسمحوا لمصور من البيت الأبيض بالنقاط صورة توزع على الصحافة فقط. صورة ثابتة بلا حركة ولا صوت.

ومما يلفت النظر أن قضية الشواذ جنسياً انفجرت في أميركا أكثر من أي وقت مضى مع ارتفاع حدة القلق الاجتماعي والصحي من مرض الايدز «نقص المناعة المكتسب» الذي ارتبط بهم بعد بدء اكتشافه في أوائل الثمانينيات وعندما تبين أن الغالبية من المصابين به هم ممن يمارسون علاقات جنسية شاذة.

ولعل تفسير ذلك أنهم شعروا بأن المشكلة يمكن أن تحولهم إلى طبقة منبوذة في المجتمع إذا تركت الأمور تسير على المنوال الذي بدأت مع بدء الثمانينيات، خصوصاً أن أوائل الثمانينيات كانت في الوقت نفسه بداية سيطرة اليمين المحافظ على الحكم وعلى الفكر. وهي فترة امتدت حتى صعود بيل كلنتون الديمقراطي الليبرالي. مؤيد حقوق الأقليات - بما فيها الشواذ جنسياً - إلى قمة السلطة.

وهكذا فإن «حركة المقاومة» أو حركة تحرير الشواذ جنسياً في أميركا من اضطهاد القوى المعادية لها خلقياً واجتماعياً وسياسياً حققت أكبر انتصاراتها السياسية بدخول

البيت الأبيض والالتقاء بالرئيس وقد أكد الناطقون باسمها أنهم يجمعون تحويل مسيرة المليون المقبلة في واشنطن إلى تظاهرة تأييد للرئيس كلنتون والسؤال الذي يتبادر إلى الذهن بعد هذا هل كلنتون سعيد بهذا التأييد أم أنه يتمنى أن يبقى في الضمائر بدلا من أن يتحول إلى تظاهرة علنية؟ يتوقف الأمر بطبيعة الحال على ما يعتقد كلنتون من رأي الأغلبية من الأميركيين في هذا التأييد بجانبه.

فما هو رأي أغلبية الأميركيين من الشواذ جنسياً؟

لا يقل تفاوت نتائج استطلاعات الرأي بشأن الموقف من حقوق الشواذ جنسياً وحرّياتهم عن تفاوت التقارير عن أعدادهم بين الرجال والنساء الأميركيين. ومن ناحية أخرى فإن مسألة الموقف من الشواذ أعقد من مجرد رصد أو تقدير أرقامهم، فهناك من يؤيدون عدم المساس بحرياتهم، لكنهم يرفضون أن يكون لهم دور في الخدمة العسكرية. كما أن هناك من لا يريد أن يرى شاذاً جنسياً في منصب مثل منصب الوزير أو القاضي أو رئيس الجمهورية.

الشواذ خطأ أم صواب؟

وكما هي الحال في كل القضايا الخلقية فإن هناك آلافاً من استطلاعات الرأي العام حول قضية الشواذ، لكننا سنستعين بأهمها، وهو استطلاع يجربه سنوياً «مركز بحوث الرأي القومي». أجراه لأول مرة في عام ١٩٧٣. وكان سؤاله بسيطاً ومحددًا للغاية: هل تعتقد أن العلاقات الجنسية المثلية خطأ أم صواب؟ وقد أعلن المركز مع نتائج آخر استطلاع أجراه حول هذا السؤال - في (نوفمبر) ١٩٩٢ - أن النتائج على مدى تلك السنوات تظهر درجة واضحة من الثبات بين الأميركيين في آرائهم حول العلاقات الجنسية الشاذة، فقد كانت نسبة الذين قالوا أن هذه العلاقات «خاطئة دائماً» في استطلاع عام (١٩٧٣) ٧٠ ٪، وجاءت في الاستطلاع الأخير ٧١ ٪ في أدنى حالاتها كانت النسبة ٦٧ ٪ عام ١٩٧٦، وفي أعلى حالاتها كانت ٧٦ ٪ عام ١٩٨٧.

أما فيما يتعلق بالخدمة العسكرية فقد أظهر استطلاع للرأي أجرته مؤسسة «غالوب» في أول ١٩٩٣ أن نسبة ٤٠ ٪ من الأميركيين تؤيد انخراطهم بلا قيود في القوات المسلحة وترفضه نسبة ٥٤ ٪ وعندما كان السؤال في استطلاع لاحق: هل ينبغي أن يغير الرئيس كلنتون سياسة المؤسسة العسكرية تجاه الشواذ جنس كانت النتيجة معارضة قوية للتغيير من جانب ٥٠ ٪ من الأميركيين: تأييد للتغيير من جانب ٤٣ ٪.

وقد وجه السؤال إلى أفراد القوات المسلحة أنفسهم في استطلاع آخر - أجرته صحيفة «لوس أنجلوس تايمز» فكانت النتيجة معارضة ٧٤ ٪ لرفع الحظر عن الشواذ جنسيا في القوات المسلحة، وتأييد ١٦ ٪ بالمئة لفكرة رفع هذا الحظر فقط. ويلاحظ أن نسبة الأميركيين الذين يعارضون تعيين شاذ جنسيا وزيرا يقل عن نسبة أولئك الذين يعارضون رفع الحظر عن انخراطهم في القوات المسلحة. فالذين يؤيدون تعيين واحد منهم في الوزارة تصل إلى ٥٦ ٪ وتصل نسبة الذين يؤيدون تعيين شاذ جنسيا مدرسا ثانويا إلى ٥٤ ٪. وتبسط إلى ٤٨ ٪ بالنسبة للتعيين في منصب راعي الكنيسة. لكنه ترتفع في حالة الطبيب إلى ٥٩ ٪.

لكن -على وجه الاجمال- يمكن القول أن معدل التسامح إزاء الشواذ جنسياً أخذ في الارتفاع ببطء في المجتمع الأمريكي. وقد انعكس ذلك -بعيد عن استطلاعات الرأي - في إقدام ثماني ولايات أميركية على إصدار قوانين تجرم التمييز ضد الشواذ جنسياً بينما تستعد ولاية أخرى لإصدار قوانين مماثلة تضمن مساواتهم بالأسوياء ولاية واحدة فقط - هي كولورادو - ذهبت في الاتجاه العكسي تماما، إذ أصدرت تشريعا يحظر القوانين واللوائح التي تحمي الشواذ جنسياً من التمييز. ونتيجة ذلك نظمت ضد كولورادو حملة مقاطعة من الشواذ جنسياً وأنصارهم في قطاعات مختلفة من المجتمع - برز من بينهم فنانون صناعة السينما في هوليوود - الأمر الذي ألحق ضررا كبيرا باقتصاد الولاية الذي يعتمد اعتمادا كبيرا على السياحة الشتوية.

وعلى الرغم من معارضة عالية الصوت لأقصى درجة من الدوائر الدينية واليمين المحافظ السياسي والاجتماعي فإن الشواذ جنسياً أصبح لهم «لوبي» قوي، جماعة ضغط سياسة قوية لا تكتفي برئيس يؤيدها في البيت الأبيض، إنما تمارس ضغطها بكل الوسائل التي تستخدمها هيئات «اللوبي» الأخرى على الكونغرس الأميركي بمجلسيه.

أقوى تنظيمات لوبي الشواذ جنسياً يسميه خصومهم «لوبي الرقعاء» هو «صندوق حملة حقوق الإنسان» الذي يقدم أكبر الأسهم المالية للشيوخ والنواب الذين يؤيدون حقوق هذه الفئة داخل الكونغرس.

ويقول مديره السياسي أيريك روزنتال الذي كان على رأس ممثليهم في الاجتماع الأخير مع كلنتون - أن ١٧٧ من أعضاء مجلس النواب ملتزمون الآن بتأييدهم عند التصويت على أي مشروع قرار أو مشروع قانون يهمهم. بالإضافة إلى ٢١ في مجلس الشيوخ. ويشكل هذان الرقمان زيادة بنسبة ٣٠ % عن الأعوام الماضية.

وأهم مشروعات القوانين التي يضغط من أجلها لوبي الشواذ مشروع قانون يقضي بالتعامل على مستوى اتحادي مع الشواذ جنسياً بالمعايير نفسها التي يجري التعامل بها مع قطاعات المجتمع المختلفة - العنصرية والعرقية والدينية وغيرها - أي أن تشملهم القوانين التي تحمي هذه القطاعات والفئات ضد التمييز.

وقد أطلقوا على هذا المشروع «قانون الحقوق المدنية للشواذ». ويقول مصدر «محايد» هو مايك ماكيون من خبراء تحليل اتجاهات الرأي العام: أن صدور مثل هذا القانون يتوقف على الإطار الذي ستجري داخله المناقشة العامة. إن المزاج العام السائد في البلاد الآن هو تأييد المساواة للجميع. وإذا اقتنع الرأي العام بأن المسألة هي مسألة إنصاف أو عدالة فستكون هناك نتيجة واحدة هي التأييد. أما إذا تصور الرأي العام أن الهدف هو تحقيق امتياز خاص للشواذ فإن إصدار هذا القانون سيواجهه متاعب كثيرة.

ولا يستقيم أي «لوبي» في أميركا ويؤدي دوره بفاعلية كافية إلا إذا كانت له مطبوعاته ونشراؤه الخاصة. ولوبي الشواذ ليس استثناء من ذلك. والحقيقة أن صحافتهم أسبق كثيراً من حركة تحريرهم بصورتها الراهنة.

والمعتقد أن أول مجلة أميركية تدافع عن الجنسية المثلية أصدرتها سيدة أسمها ليزا بين فيما بين عامي ٤٧ - ٤٨ وكانت تحمل اسم «فايس فيرسا» ومعناها «والعكس بالعكس».

وفي الخمسينات أصدرت مجموعة صغيرة مجلة بعنوان «ذي لادر» (أي السلم) ثم صدرت مجلة أخرى لهم باسم «وان» (واحد). وقد اتسع نطاق توزيع هاتين المجلتين بحيث شمل اتحاد الولايات المتحدة. وفي عام ١٩٦٧ ظهرت أشهر مجلات الشواذ جنسيا في أميركا باسم «إي فوكيت» (المحامي) وكانت ناطقة بلسان الحركة. وفي ١٩٨٠ ظهرت مجلة «ليز بيان تايد» (التيار السحافي) وبعدها «فاغ راغ» ثم «غاي صم شاين». وتصدر لهم في واشنطن صحيفة باسم «ذي بليد» (الموسى) ويكاد يكون من الصعب حصر عدد صحفهم في المدن الأميركية المختلفة.

لكن مجلتهم الأبرز والأكثر استمرارية وانتظاما هي «إي فوكيت» ظهرت في السنوات الأخيرة في عديد من المدن الأميركية، بما فيها العاصمة واشنطن ولكن على نطاق أوسع في سان فرانسيسكو ونيويورك - مكاتب متخصصة بمطبوعات الشواذ جنسيا وأدبياتهم وتاريخ حركتهم وأشهرهم في التاريخ وأشهر مؤيديهم.

ولكي ندرك مدى نمو هذه الحركة في الولايات المتحدة يكفي أن نشير إلى أنه في انتخابات الرئاسة عام ١٩٧٦ حذر جيمي كارتر - وكان مرشح الحزب الديمقراطي فيها - أنصاره من أي محاولة لإدخال نص يتعلق بحقوق الشواذ جنسيا في البرنامج الانتخابي للحزب ووصف ذلك بأنه سيكون بمثابة «قبلة الموت» له كمرشح للرئاسة.

وكان كارتر آخر من فاز بالرئاسة من الديمقراطيين، إلى أن جاء بيل كلنتون الذي رفع شعار تأييدهم عالميا في حملته الانتخابية بلا مواربة واجتمع بهم في البيت الأبيض قبل حلول اليوم المائة من رئاسته.

إذا كان الشذوذ الجنسي في أمريكا أو غيرها من دول العالم قد بلغ حداً لا يستهان به بحيث أضحى له ثقل سياسي، فإننا في وطننا العربي قد نجد أفراد يمكن عددهم على أصابع اليد الواحدة. ومع ذلك فإن لكل واحد منهم ملحمة كاملة من العلاقات

الجنسية التي لا تضر به لوحده فقط بل تؤثر على سمعة بلاده وسياساتها الخارجية ومركزها بين الدول. ولعل أوضح وأفضل مثال لذلك هو حاكم مصر السابق الملك فاروق.

بيل كلينتون ومونيكا لوينسكي

واحدة من أشهر الفضائح السياسية في تاريخ الولايات المتحدة خلال تسعينيات القرن الماضي، حيث جمعت علاقة غير لائقة بين الرئيس الأمريكي الأسبق بيل كلينتون والمتدربة في البيت الأبيض مونيكا لوينسكي بين عامي ١٩٩٥ - ١٩٩٧. أنكر كلينتون العلاقة في البداية، ونفى الرئيس الثاني والأربعين للولايات المتحدة تورطه في علاقة جنسية مع لوينسكي، لكنه عاد وأقر بها رسمياً في ١٧ أغسطس ١٩٩٨ أمام هيئة محلفين كبرى.

قاد المحقق المستقل كينيث ستار تحقيقات موسعة بتهم الكذب تحت القسم وعرقلة العدالة، مما أدى إلى تصويت مجلس النواب على عزل كلينتون في ديسمبر ١٩٩٨. ثم برأ مجلس الشيوخ بيل كلينتون في فبراير ١٩٩٩، ليقضي ما تبقى من ولايته الرئاسية حتى يناير ٢٠٠١.

صرّح كلينتون لاحقاً بأن العلاقة كانت محاولة للتغلب على ضغوط ومخاوف العمل في البيت الأبيض. وأضاف كلينتون: "تشعر أنك تدور في المكان نفسه - أنك في معركة من ١٥ جولة امتدت إلى ٣٠ جولة، وهناك شيء سيشتت ذهنك عن المعركة لفترة من الوقت. الجميع يعاني من ضغوطات حياتية وخيبات أمل وحالات رعب ومخاوف أو أيّاً كان، قمت بأشياء لتخفيف قلقي لسنوات".

ولقد أعلنت لاحقاً المتدربة السابقة في البيت الأبيض، مونيكا لوينسكي، أن "الطريقة الصحيحة" التي كان من الممكن أن يتعامل بها الرئيس الأمريكي السابق بيل كلينتون مع تداعيات علاقتهما عندما كانت متدربة في البيت الأبيض، وتبلغ من العمر ٢٢ عاماً، كانت تتمثل إما في "الاستقالة" أو إيجاد طريقة للبقاء في المنصب من دون الكذب، وعدم إلقاء شابة بدأت للتو في العالم تحت الحافلة".

وقالت لوينسكي خلال مقابلتها في بودكاست "Call Her Daddy" :
"أعتقد أن الطريقة الصحيحة للتعامل مع موقف مثل هذا كانت تتمثل على الأرجح في
القول إنه أمر ليس من شأن أحد والاستقالة".

وصرّحت لوينسكي بأنّ علاقتها بالرئيس السابق اتفق عليها، لكنّها وصفتها بأنّها
"إساءة استخدام جسيمة للسلطة".

وقالت لصحيفة فاني في عام ٢٠١٤: "عملية الاستغلال الحقيقية جرت في
أعقاب ذلك، عندما أصبحتُ كبش فداء من أجل حماية منصبه القوي...".

لم تتوقف قصة لوينسكي وكلينتون عند التحقيقات والمحاکمات، بل تحولت إلى
موضوع لعشرات الكتب التي حاول مؤلفوها إعادة بناء الأحداث من زوايا مختلفة، ومن
أبرزها كتاب «مؤامرة واسعة: القصة الحقيقية لفضيحة الجنس التي هزمت رئيساً»
للكاتبة والمحامي الأمريكي جيفري توين، الذي تناول فيه خلفيات التحقيق والنساء
اللواتي لعبن أدواراً رئيسية في القضية، ومن بينهن لوينسكي وليندا تريب وباولا جونز.

كما تناول الصحفي أندرو مورتون قصة لوينسكي في كتاب حمل اسم «مونيكا:
قصتها»، محاولاً تجاوز الصورة التي صنعتها وسائل الإعلام عنها، وتقديم سرد لحياتها
وتجربتها الشخصية في قلب واحدة من أكثر القضايا السياسية شهرة في التاريخ
الأمريكي الحديث.

أما هيلاري كلينتون، فتناولت الأزمة في مذكراتها «خيارات صعبة» من زاوية
شخصية، متحدثة عن الصعوبات التي واجهت زواجها خلال تلك الفترة، وعن قرارها
الاستمرار في الزواج.

وعند سؤالها عن الحادثة، أوضحت هيلاري كلينتون مدى الدمار الذي تعرّضت
له قائلة: "لقد أوديت شخصياً بشكل كبير ولم أصدق ذلك، لا أستطيع تصديق أنك
كذبت [المشكلة لديها في الكذب وليس الزنا والخيانة الزوجية]. لقد كان الأمر فظيماً
وقلتُ إذا كان ذلك سيصبح علنياً، عليك أن تخبر تشيلسي [ابنتيهما]".

وهكذا تحولت علاقة بدأت داخل أروقة البيت الأبيض إلى أزمة سياسية ودستورية وإعلامية كبرى، وظلت «فضيحة مونیکا لوينسكي» واحدة من أكثر الأحداث ارتباطاً برئاسة بيل كلينتون، حتى بعد انتهاء رئاسته بسنوات.

ابنة الرئيس ريجان تكتب قصص الجنس وتبيع صورها عارية

«باتي ديفز» ابنة الرئيس الأمريكي الأسبق رونالد ريجان وزوجته نانسي ديفز. وهي تصر على حمل اسم عائلة والدتها وليس اسم والدها ويعتقد المرء للوهلة الأولى أنها تفعل ذلك حباً لوالدتها أكثر من والدها، ولكن الواقع غير ذلك. لأن باتي تكره الإثنين معاً. وقد سبق لها أن نشرت كتاباً بعنوان «أسرار عائلية» صدر عن إحدى دور النشر في لوس أنجلوس عام ١٩٩٢.

وفضحت فيه أسرار العائلة حيث كشفت عن أن عائلة ريجان مفككة وليس بينها أي رابط أسري، واتهمت في ذلك الكتاب والدتها بحب السيطرة والتسلط. وذكرت أن والدتها حاولت مرة أن تضربها فدفعت بأمرها نانسي واسقطتها على السرير، وقالت باتي في مقابلة صحفية أنها عندما بلغت الرابعة والعشرين من العمر أجرت عملية تعقيم لنفسها حتى لا تنجب أولاداً، خوفاً من أن تلد طفلة تشبه أمها نانسي.

وقد حاولت باتي الفضائية أن تشق طريقها في ميدان الغنى، وكانت تطمح لأن تصبح ممثلة شهيرة في هوليوود. ولعل هذا ما يفسر سبب احتفاظها باسم «باتي ديفز» تيمناً بالممثلة الشهيرة التي تحمل الاسم نفسه، والتي لمع نجمها في النصف الأول من هذا القرن.

إلا أن حظ باتي في السينما كان أسود من حظ والدها رونالد ريجان الذي بدأ حياته ممثلاً سينمائياً، ولكنه بقي مغموراً.

وكانت باتي قد تزوجت بمدرّب اليوغا الذي كانت تمارس هذه الرياضة على يديه في العام ١٩٨٤. وقد اضطر يومها الرئيس ريجان وزوجته نانسي إلى حضور العرس للتقليل من أهمية الخلافات داخل الأسرة.

وأما آخر صرعات باقي ديفز فهو كتابها الجديد الصادر مؤخراً بعنوان: «الملائكة لا تموت» وهو من النوع الإيحائي والغبي، وتطغى عليه مسحة لاهوتية وموضوعه إلقاء أضواء جديدة على شخصية والدها رونالد ريجان من وجهة نظرها.

وكان غريباً أن تتجه باقي إلى هذا النوع من الكتابة الصوفية لأنه قد سبق لها وأن نشرت عدة كتب تتضمن قصصاً جنسية فاضحة كما سبق لها أن وقفت عارية أمام كاميرات المصورين ومثلت أشرطة فيديو لحساب مجلة «بلاي بوي» الشهيرة. وقبضت الثمن.

وقالت باقي في كتابها الجديد: إنني أحاول أن أتذكر الأوقات التي لم يكن فيها سوى الحب والحنان ودون أن تعترني عواطفنا أية شائبة.

وتواصل باقي الكتابة فتقول: بالرغم من تعارضي الإيديولوجي مع والدي، فقد احترمت دائماً حقيقة رؤيته بالنسبة لأمريكا. تتولى باقي عدة مرات الدفاع عن رونالد ريجان حيث كان من المنتظر حصول ذلك في مواقع قليلة.

وفيما يتعلق بخطاب الرئيس السابق العام ١٩٩٢ في مؤتمر الجمهوريين الوطني الذي أثار جدلاً كبيراً تقول: «وسط أكثر المؤتمرات تعصباً وعنصرية (وفي رأيها)، كان والدي هناك ليعطي خطاباً محترماً وغير متحيز، يدعو إلى الوحدة وينبذ التفرقة»

وتستعيد باقي ذكريات عديدة من أيام الطفولة وتذكر الأوقات العصيبة يوم تعرض رونالد ريجان لمحاولة اغتيال في آذار ١٩٩١ فتقول: «لم يعبر ولو لمرة واحدة عن كرهه للرجل الذي أطلق عليه النار، بل نادى بالرحمة والشفقة كان يعرف في أعماق ذاته أنه حتى هينكلي (الرجل المسلح)، كان ينتمي إلى الله» ولا تتردد البنت في أن تضيف «بدون تدخل العناية الإلهية لا أظن أنه كان قد بقي على قيد الحياة».

وفي انطلاقة شبه غنائية، تعرب باقي عن مكنونات قلبها فتقول: «إنني أكن احتراماً كبيراً لوالدي الذي هو الآن في الثمانينات من عمره، وأشعر بأني أريد أن أهدس، وأن أخطو خطوات ناعمة، وأن لا أتطفل عليه أو أتدخل كثيراً في حياته خاصة وأنه يعاني الآن من مرض الزهايمر وهو الآن بالنسبة إلي بمثابة كاتدرائية قديمة فخمة. أجلس

في المقاعد الخلفية تحت الظلال، وأحني رأسي وأصلي من أجل الجميع، ولكن ليس بصوت عال يشوش الأجواء المحيطة.

ومن ناحية أخرى فقد أفاد الأطباء حول صحة ريجان بأن مرض الزهايمر الذي يعاني منه لا زال في مراحله الأولى. وقال ريجان بدوره في رسالة مكتوبة وجهها إلى الشعب الأمريكي «أبدأ الآن رحلة مغيب شمس حياتي».

وحول نفس الموضوع تحدث الرئيس الأميركي بيل كلينتون خلال اجتماع سياسي حاشد في أوكلاند بكاليفورنيا عن مرض ريجان وقال أنه تأثر جدا بالنبا وأعرب هو والآلاف من المشاركين في التجمع من خلال نوبة تصفيق حاد عن مساندتهم لريجان وهو يواجه المرض.

وأضاف كلينتون أنه ربما يكون قد لمح أعراض المرض على ريجان خلال لقائهما عام ١٩٩٢ بعد فوزه بالانتخابات الأميركية بقليل حين توقف ريجان فجأة عن الحديث معه قائلا «لقد نسيت ما كنت أتحدث عنه».

وقال الرئيس الأميركي السابق جورج بوش الذي عمل نائبا لريجان «أحيي الرئيس ريجان على شجاعته واختياره إشراك الشعب الأميركي في مثل هذه المسألة الخاصة».

ويذكر أن مرض الزهايمر يصيب عادة كبار السن وهو مرض عضال يتطور بشكل مطرد ومن أعراضه فقدان الذاكرة وفقد حس المكان والزمان وعدم القدرة على الحكم وحدوث تغير واضح في الشخصية وتدهور وظائف الإدراك، وهو من الأسباب الرئيسية للوفاة في المراحل المتقدمة من العمر ويعاني منه نحو ١٥ مليون شخص في شتى أنحاء العالم.

ميتران وابنته غير الشرعية

في الثالث من تشرين الثاني عام ١٩٩٥ دخلت مجلة «باري ماتش» الباريسية منطقة محظورة ونشرت للمرة الأولى صوراً لفتاة ذكرت أنها ابنة غير شرعية للرئيس الفرنسي فرانسوا ميتران تدعى «مازارين»، وظهرت في إحدى الصور التي نشرتها المجلة

والتي التقطت عن بعد فتاة في العشرين من عمرها داكنة الشعر وهي تغادر مطعما في باريس برفقة ميتران البالغ من العمر (٧٨) عاما والتزم مكتب ميتران في هذا الصدد بسياسته التقليدية وامتنع عن التعليق على حياة الرئيس الخاصة.

وأفادت مجلة باري ماتش أن مازارين التي تدرس الأدب رافقت ميتران في الزيارة الرسمية التي قام بها إلى جنوب إفريقيا في شهر يوليو كما حضرت مأدبة عشاء رسمية أقيمت على شرف امبراطور اليابان الذي زار فرنسا وهناك شبه واضح بين الفتاة التي يزعم أنها ابنة ميتران والرئيس الفرنسي.

وقال فاليردي جيسكار ديستان الرئيس الفرنسي السابق خلال حديث إذاعي أشعر بالأسف.. ولا أعرف خلفية نشر هذه الصور، لكني أشعر بالأسف لو لم تؤخذ موافقة المعنيين بالأمر قبل النشر.

ولا تتعرض الصحافة الفرنسية تقليديا لحياة الشخصيات البارزة الخاصة ويمنع القانون الفرنسي نشر صور من دون الحصول على إذن مسبق من أصحابها.

الا أن باري ماتش نقلت عن المعلق السياسي فيليب ألكسندر مؤلف كتاب عن ميتران قوله: «الرئيس لم يجعل من الأمر سرا، فهو يظهر مع ابنته في أماكن عامة، إن هذا السر الذي أحترمه الصحفيون حتى الان لم يعد من الضروري أن يبقى طي الكتمان».

وأضاف أن حياة ميتران السرية مع رفيقته وابنته غير الشرعية منها تدخل في نطاق الاهتمام العام «إن هذه العائلة (الثانية) عاشت في قصور الجمهورية وسدد دافع الضرائب نفقات حياتها ورحلاتها».

فضيحة الوزير العاشق في بريطانيا

في تشرين أول (أكتوبر) عام ١٩٦١ صدرت في لندن رواية (الوزير)... كاتب الرواية هو (موريس ايدلمان) وهو عضو في مجلس العموم البريطاني، وأحد كتاب السياسة في لندن...

والرواية تكشف عن جانب من الفضائح الغرامية التي تحدث في حياة الساسة وزوجات الوزراء والوزراء ورجال الأعمال في لندن، كما تفضح الرواية أسلوب وزارة المستعمرات البريطانية في معاملة الوطنيين الأفريقيين...

الرواية طويلة جداً، ولذلك اضطررت إلى تلخيص هذا الجزء منها، للإشارة إلى عالم الدسائس والعفونة والفضائح في بريطانيا - التي هي موضوعنا..

وقد لا يسمح لنا الحيز بذكر فضائح حقيقة تداولتها صحف الستينات والسبعينات عن الوزراء العشاق الذين تصادف أن عشيقاتهم كن عميلات روسيات أمثال وزير حربية بريطانيا في الستينات (جون بروفومو) الذي قدم استقالته لرئيس الوزراء هارولد ماكميلان بعد أن انكشف أمر علاقته الغرامية مع عارضة الأزياء كريستين كير، التي كانت على علاقة مع دبلوماسي سوفيتي..

ثم أن صحافة (التابلويد) - الصحافة الشعبية في بريطانيا - تكتظ بحكايات الأميرة (سارة) - كنة الملكة وزوجة الأمير لدرو - وصورها الفاضحة في جنوب فرنسا برفقه صديقها جون برايان - وقصة المخابرة الهاتفية بين الأميرة ديانا (زوجة الأمير تشارلز) وجيمس غيلبي الذي تربطها به صداقة قديمة، وفي هذه المخابرة تخاطب (ديانا) صديقها (جيمس) بعبارات الحب والود، وتتطرق إلى حياتها مع زوجها واصفة إياها بالعباد...

القصة التي تعنينا هي الفضيحة التي تفجرت في لندن، بعد أن كشفت تفاصيل العلاقة الغرامية التي تربط بين وزير التراث البريطاني (ديفيد ميلور) وبين الممثلة الإسبانية المغمورة (انطونيادي سانتشا).

والجهة التي كانت وراء كشف الفضيحة - كما قيل - مهندس الإلكترونيات اسمه (نيكولاس فيليب) في شقة يملكها، كان قد زرعها في وقت سابق بشبكة دقيقة من اللاقطات الالكترونية، ارضاء لهواية شخصية.

وبهذه الطريقة، استطاع أن يلتقط ويسجل تفاصيل اللقاءات (الحميمة) بين الأسبانية المغمورة وصديقها وزير التراث البريطاني.

والقانون البريطاني لا يطال مهندس الإلكترونيات، فهو زرع شقته الخاصة، وهذا حقه الشخصي، فقام بتوصيل خط التليفون بجهاز آخر على هيئة سيارة (جاغوار) بها مسجل يقوم برصد جميع المكالمات الهاتفية التي ترد على الشقة وتدور بين (ميلور) و (أنطونيا).

كما وضع جهاز تنصت خلف إحدى اللوحات المعلقة على جدار غرف النوم، وقدم الشقة للمثلة لكي تقيم فيها مجانا، ومن دون عقد إيجار ... كان يعلم أن هناك علاقة بين (ميلور) و (أنطونيا)، وقد سعى للحصول على معلومات عن هذه العلاقة، يبيعها للصحف، ويجني ثمار عمله كمهندس إلكترونيات ورجل أعمال، وربما كجاسوس صهيوني..

وفعلا بمجرد حصوله على الأشرطة اتصل بصحيفة ذا نيوز أوف ذا وورلد لبيعها القصة، وقامت بإبلاغ الوزير، الذي اعتبر اتصال الصحيفة به يشكل نوعاً من الابتزاز، وارتكب حماقة عندما اتصل بعشيقته ليخبرها بالأمر وبذلك وضع سلاحاً جديداً أمام الطرف الآخر يستخدمه ضده.

وقد اتجه مهندس الإلكترونيات إلى صحيفة «ذا بيبول» التي قررت شراء التسجيلات، وجندت محرراً خاصاً لمتابعة رواية الغرام الرسمية، ومصوراً أقام في شاحنة بمواجهة البيت لرصد المواعيد الغرامية بالصور.

وبذلك اكتملت خيوط الرواية بطريقة محكمة يستحيل معها على أعضاء اللجنة الخاصة برصد تصرفات الصحافة في مجلس العموم البريطاني للتضييق على «ذا بيبول» لأن أي تقييد لحرية الصحافة لن يمنعها من نشر مثل هذه الفضائح، كون الوقائع صحيحة، ومصدرها لا يخضع للملاحقة القانونية لأنه تصرف في أملاكه.

وصحيفة «ذا بيبول» من نوع الصحف المنغمسة في الإثارة والباحثة عن الفضائح. وهي توزع ملايين النسخ، ويزداد حجم التوزيع عندما تكون المانشيتات فضائح مثيرة أو ملوثة لسمعة شخصية فوق مستوى الشبهات.

وعناوين الصحف التي تلتقط أخبار فضيحة ما تأتي مدوية كقصف الرعد وجارحة كالسيارات وعندما تفجر فضيحة غرام الوزير ميلور، كتبت الصحيفة في عنوانها الرئيسي: «يا له من فار». ونشرت صحيفة أخرى على لسان أنطونيا: «لست كعكة».

وتسلل الصحفيون إلى خزانة العشيق، دخلوا تحت ثيابها وسلخوا جلدها للخروج من كل ذلك بقصة شيقة تسلي القراء، وتجعل منها فضيحة متكاملة وجذابة.

إن أنطونيا ممثلة مغمورة، لم يمكنها جمالها من تحقيق ما كانت تصبو إليه في عالم الفن والتمثيل فاضطرتها الظروف إلى تمثيل بعض الأدوار في أفلام جنسية رخيصة. وهي نصف أسبانية، وهي إحدى الجنسيات التي ترتبط في أذهان الإنكليز بالعاطفة العاصفة والغرام الشاعر المتوهجة.

الصدفة أيضاً كانت أن أنطونيا، كانت تشبع نهمها بمزيد من أسرار علاقتهما كل يوم، حتى أنها لم تترك سراً مغطى على وزير التراث المتزوج والأب لولدين، فعندما يلتقيان تحت سقف واحد - تقول أنطونيا - يرتدي ثياب لاعبي كرة القدم قبل الصعود إلى السرير، ثم يطلب منها أن تسوطه على قفاه. [الشخصية السادية هي نمط سلوكي يتميز بالاستمتاع والشعور باللذة عند إلحاق الألم الجسدي أو النفسي بالآخرين]

ثم عاد ميلور إلى زوجته، وبدأ حملة علاقات عامة مكثفة ليضع نفسه في إطار رجل العائلة الذي عاد إلى بيته وأولاده، تائباً مستغفراً بعد زوال نزوة طائشة.

وحين قدم استقالته ليحفظ ماء وجهه رفض جون ميجور رئيس الوزراء قبولها، وأصر على مساندة وزيره حتى النهاية لكي يؤكد على أن صحافة الفضائح لا تحكم بريطانيا، وأن حزب المحافظين هو الذي يحكم!!!.

وقال أنصار حزب المحافظين أن «منى الغصين» ... وهي فلسطينية من مواليد الكويت، تلقت علومها الابتدائية والمتوسطة في مصر -المدرسة الإنجليزية- وفي العام ١٩٦٤ استقرت في لندن وتعلمت في مدارسها، قبل أن تلتحق بالجامعة في باريس حيث درست الفلسفة والتاريخ والأدب الانكليزي وباشرت بعدها العمل كمنتجة في صناعة السينما والمسرح، وأسست مع زوجها السابق - أرتولد بونيز - وهو مصري بلجيكي،

شركة منى بوينز للاستشارات الإنتاجية، ثم طلقت منه لتتزوج المصرفي محمد الشوربجي، وهو مصري الجنسية...

وترتبط منى الغصين بصداقة عائلية مع الوزير ديفيد ميلور وزوجته جوديث، وتصادف أن دعت مع زوجته لقضاء إجازة في ماريبا بإسبانيا في الأول من شهر آب (أغسطس) عام ١٩٩٠، قبل يوم غزو العراق للكويت، وفي حينه قام مصور من صحيفة ذا بيول بمطاردة الوزير (ميلور) في ماريبا بإسبانيا والتقط له صوراً، وحسب ما ذكرته صحيفة ديلي اكسبرس - الصادرة في ٢٣ أيلول (سبتمبر) ١٩٩٢ - فإن المصور والعناصر الأخرى التي طاردت (ميلور) في إسبانيا، هي من عناصر (الموساد). وكتبت صحيفة (ذا بيول) في نفس الفترة - آب (أغسطس) ١٩٩٠ - تنتقد الوزير البريطاني الذي لى دعوة ابنته شخصية بارزة من م.ت.ف التي وقفت إلى جانب الغزاة العراقيين.. وأشارت إلى أن الداعية هي التي دفعت ثمن تذاكر الطائرة. ووضعت بتصرف ميلور وزوجته جوديث وولديه داراً فخمة وكذلك يختاً.. وهذا غير لائق بوزير بريطاني بطبيعة الحال!

وفتشت الصحف عن تاريخ العلاقة بين أسرتي الغصين وميلور، فوجدت أن الوزير تعرف بمنى منذ أكثر من ثلاث سنوات، في حفل خيري أقامته العون الطبي الفلسطيني MAP في لندن وكان الوزير ميلور ضيف الشرف وخطيب الحفل حكاية ميلور لم تكن مجرد فضيحة عادية، ولكنها كانت حرباً خفية تدور في أروقة سرية عمل ميلور دوراً كبيراً فيها، فعمله يتطلب منه التعامل مع الإذاعة والتلفزيون وقطاعات الفنون والثقافة، ومهمته على هذا الأساس تحديد حرية الصحافة ومنعها من التدخل في حياة الأشخاص الخاصة.. وهو نفسه الذي حذر الصحف في الأيام الأولى من توليه منصبه بأن عليها أن لا تفرط في استخدام الحرية.

وكان صحفي قد اتصل به أثناء الحملة الانتخابية السابقة، وعرض عليه تسليمه قائمة بأسماء وعناوين أربع نساء كن على علاقة بزعيم حزب الأحرار الديمقراطيين بادي اشداون إلا أنه رفض نشرها.

وصحيفة (ذا) بيول) و (الصن).. مملوكتان ل (مردوخ) امبراطور الصحافة البريطانية، الذي أراد إفهام (ميجور) بأنه يستطيع أن يضرب تحت الحزام أحياناً، إذا استدعى الأمر ذلك...

فتش عن الموساد |

ثم طفت على السطح قضية منى الغصين...

و (منى) هي ابنة رئيس الصندوق القومي الفلسطيني ل م.ت.ف (جويد الغصين) - ويعد بمثابة وزير المالية.

وأشارت هذه الصحف بأن لميلور، حين كان وزير دولة بوزارة الخارجية البريطانية، موقفاً جريئاً، أبرزته جميع وسائل الاعلام.

كان ذلك عام ١٩٨٨ عندما قام ميلور بزيارة فلسطين المحتلة، وقد ذهب إلى الضفة الغربية، وبينما كان يتجول، شاهد جندياً اسرائيلياً يعتدي بوحشية على مواطن فلسطيني، فقام باستدعاء الجندي ونهره على مرأى من مراسلي وكالات الانباء العالمية، وتزامن ذلك مع عرض صور الجنود اسرائيليين وهم ينهالون بأعقاب البنادق على فلسطيني، ويكسرون يده بالحجارة.

وقد لاحظ (الموساد) بأن موقف الوزير البريطاني يشكل سابقة خطيرة بكل المقاييس، وقررت أن تحرقه تماماً عقاباً له على مسلكه، فاستفادت أولاً من قيام صداقة عائلية بين الاسرتين، وقيام الأسرة الفلسطينية باستضافة الأسرة البريطانية، وعندما لم يتم اسقاط الوزير، تم تدبير فضيحة انطونيادي مانشا، ولم يستبعد بعض المراقبين أن تكون العملية برمتها من تدبير (الموساد) بما في ذلك ترتيب الشقة في حي (ماي فير) الملغمة بالإلكترونيات وأجهزة التصنت واختيار بطلة الفضيحة التي هي ممثلة الأفلام البورنو التي تلذت برواية حكايات عن تصرفات غريبة للوزير في السرير، ودحضها ميلور بقوله «إن كلامها هراء».

قصفوه بمدافعهم الاعلامية مرتين، ومن الطبيعي أنه لم يستطع الصمود في أعظم سابوتا ج سياسي..

الفضيحة الجديدة لديفيد ميلور يرفض الاستقالة وزوجته تتمسك به

أكدت جوديث ميلور (٤٥ عاماً) زوجة النائب البريطاني ديفيد ميلور في حديث تلفزيوني أجرته معها محطة التلفزيون البريطانية تمسكها بحياتها الزوجية واستعدادها للوقوف إلى جانب زوجها رغم الفضيحة التي فجرتها صحافة التابلويد الشعبية وكشفت فيها عن علاقته الغرامية مع مستشارته السابقة في وزارة التراث الكونتيسة بنيلوب كوبهام (٤٠ عاماً).

وفي ردها على سؤال حول موقفها من إعلان زوجها استعداده للزواج من عشيقته الكونتيسة كوبهام، أعربت عن عدم معرفتها بصدور مثل هذا الإعلان عن زوجها، ولكنها أكدت أن علاقتهما الزوجية تواجه مصاعب دفعتها إلى اتخاذ قرار بالانفصال والبحث في مستقبل أطفالهما والعثور على مسكن آخر للانتقال إليه بعيداً عن مسكن الزوجية ولكن ذلك -وعلى حد تعبيرها- يتطلب بعضاً من الوقت وكثيراً من الصبر وصلابة الإرادة.

ومن جانبه أعرب النائب البريطاني المحافظ ووزير التراث والفنون السابق عن استيائه من الحملة الصحافية التي تقودها صحف التابلويد الشعبية وتتناول فيها حياته الخاصة، ووصفها بأنها لا تستهدف سوى تدميره شخصياً والقضاء على مستقبله السياسي وإزاء ذلك التفسير أوضح ميلور إصراره على عدم تقديمه الاستقالة من عضوية مجلس العموم البريطاني (البرلمان) أو من حزب المحافظين، لأن ذلك وعلى حد تعبيره لن يكون في مصلحة الناخبين في دائرته ولا في مصلحة حزب المحافظين.

وكانت صحف الأحد الأسبوعية البريطانية قد فجرت في صدر صفحاتها الأولى أسرار العلاقة الشخصية التي تربطه بعشيقته الجديدة الكونتيسة بنيلوب كوبهام، وكشفت عن زيارته المتكررة لمسكنها الفاخر في كاندي سترت بفيكتوريا وسط لندن، وقضائه العديد من الأمسيات في صحبتها ضارباً بعرض الحائط بسمعة زوجته السيدة جوديث

وأطفاله منها أو سمعته كنائب في البرلمان تربطه صداقة عميقة برئيس الوزراء جون ميجور الذي يشن حملة ضد الفساد والمنحرفين بين كبار المسؤولين في حكومته.

والمثير أن رئيس دائرة حزب المحافظين في حي بتني اليكس اليوت في تعقيبه على فضيحة نائب الدائرة ديفيد ميلور، أشار إلى أن أعضاء الأسرة المالكة البريطانية يمارسون حياتهم الخاصة دون حرج فلماذا يصبح ديفيد ميلور أو غيره من المواطنين البريطانيين في حياته الخاصة فضيحة تستوجب شن الحملات الصحافية!!!.

وأضاف: «على أي حال أن علاقة ديفيد ميلور مع الكونتيسة بنيلوب كوبهام قديمة ومنذ زمن بعيد وإن تأخرت أنباء الكشف عنها».

أما زوج العشيقة الكونت كوبهام (٥١ عاما) فقد التزم، وعلى عادة أبناء الطبقة الارستقراطية - الصمت ازاء أي تعليق حول فضيحة علاقة زوجته بالنائب ديفيد ميلور وزياراته المتكررة إلى مسكنهما في كاندي ستريت بحي فيكتوريا غرب لندن، وتجنب الرد على أسئلة مراسلي الصحف أو الرد على الاتصالات الهاتفية.

الفضائح الجنسية تطال نجما صاعدا وأحد أمناء الخزينة

تعرضت حكومة المحافظين البريطانية التي يرأسها جون ميجور، وهي لم تفق بعد من الهزيمة التي لحقت بها في انتخابات اسكتلندا، إلى مزيد من الحرج إثر تعرض الحزب لفضيحة جنسية جديدة.

فقد استقال فجأة ريشارد سبرينغ النجم الصاعد في صفوف حزب المحافظين من منصب السكرتير الخاص للسير باتريك ما يهيو وزير شؤون أيرلندا الشمالية، بعد أن زعمت مدرسة دين أنها وصديقها وسبرينغ ارتبطوا بعلاقة جنسية ثلاثية.

وأعادت الاتهامات المثيرة التي نشرت في صحيفة «نيوزاوف ذي وورلد» الفضائح الجنسية التي طاردت حكومة المحافظين إلى السطح من جديد، ودفعت سبرينغ إلى الاستقالة ليصبح رابع مسؤول محافظ يقدم على هذه الخطوة العام الحالي ١٩٩٥.

ولم يتسن الاتصال بسبرينغ (٤٨ عاماً) للتعليق على الاتهامات التي رددتها المدرسة المطلقة، وهي أم لطفلين، وقالت فيها أن السياسي المحافظ شاركها مضجعها مع صديقها بعد أن لعبت برأسها الشمبانيا التي احتستها في حفل عشاء أقيم في منزل سبرينغ بلندن قبل أسبوع.

وفي تطور آخر ضار بصورة المحافظين يواجه جوناثان أيتكن كبير أمناء الخزانة في حكومة المحافظين الهامات جديدة ذات صلة بأعماله ومعاملاته الشخصية في الشرق الأوسط.

وقالت صحيفة «الغرديان» أن أيتكن كان يقدم الفتيات لأصدقائه السعوديين، وكان يقبل هدايا غالية كما لم يكشف عن عضويته في مجلس إدارة شركة أسلحة مملوكة للبنانيين.

ونفى أيتكن ومساعدوه الاتهامات في بيان أرسل إلى «الصندي تايمز» دافع فيه عن علاقاته السعودية.

وقال مساعدوه أنه يؤمن بأن علاقات العمل التي تربطه بالسعوديين مفيدة للصادرات والاستثمارات البريطانية كما أنها تتسم بالنزاهة.

وفي وقت لاحق استقال أيضاً روبرت بينا لتريا حاكم المصرف المركزي البريطاني بعدما كشفت إحدى الصحف عن مغامراته العاطفية، حيث كتبت صحيفة صاندي بيرد الشعبية أن بينانتريا ضبط متلبساً في غرفة مجاورة لمكتب حاكم المصرف المركزي مع الصحافية الأيرلندية والأمريكية الأصل ماري آلن سنون، وقد اعترفت الصحفية المذكورة بأن علاقاتها مع روبرت بدأت منذ العام (١٩٩١) عندما كان رئيساً لتحرير الايكونوميست، واستمرت بينهما عندما أصبح نائباً للحاكم في العام (١٩٩٣) حتى أواخر العام (١٩٩٤).

وأكدت أيضاً أنها كانت تستخدم إسماً مزوراً لتتمكن من دخول حرم المصرف المركزي في وقت كانت فيه الإجراءات الأمنية متشددة تحسباً من أي هجوم قد يشنه الجيش الجمهوري الأيرلندي.

الوزير السابق ألن كلارك تورط عاطفياً مع زوجة صديقه وابنتيها

مع نهاية أيار عام ١٩٩٤ انشغل الرأي العام البريطاني بفضيحة سياسية أخلاقية جديدة، بطلها الوزير النائب السابق الان كلارك البالغ من العمر ٦٦ عاماً، والذي عرف أخيراً بانتقاده لسياسة حزب المحافظين الذي ينتمي إليه خصوصاً لجهة التحقيق معه في قضية بيع الأسلحة إلى العراق.

فقد نشرت الصحف أخباراً مطولة عن علاقة عاطفية بين كلارك وزوجة قاض سابق هو جيمس هاركيس (٦٤ عاماً) الذي هاجر مع عائلته إلى جنوب أفريقيا عام ١٩٧٧.

وفي التفاصيل أن كلارك كان صديقاً للقاضي وعائلته، لكنه في الوقت نفسه كان صديقاً أكثر من اللازم للزوجة فاليري (٥٧ عاماً) وعلى مدى ١٤ عاماً، والأخطر من هذا أنه لم يكتف بعلاقته مع الزوجة، بل يزعم القاضي أن كلارك أقام علاقة مع ابنتيه جوزفين (٣٤ عاماً) وأليسون (٣٦ عاماً) وأن العلاقة المزدوجة لم تكن مكشوفة أمام الأم وأدت إلى انقطاع الصلة بين الشقيقتين اللتين تنافستا على قلب الرجل قبل أكثر من عشرة أعوام.

وقال القاضي الذي وصل مع زوجته وابنتهما جوزفين إلى لندن، أنه يعود إلى بريطانيا للنيل من الرجل الذي خان صداقته بعدما علم أخيراً بما كان يدور في الخفاء، وقالت زوجته في مقابلة مع تلفزيون «سكاي» أنها شعرت بالمهانة عندما أدركت ما حصل بين السياسي السابق لحزب المحافظين وحكوماته المتعاقبة، قبل أن يهدد بضرب كلارك بسوط ونفت عائلة هاركيس أن يكون أقدامها على تفجير هذه الفضيحة التي نشرت أخبارها أولاً صحيفة «نيوز أوف ذا وورلدز» التي تصدر الأحد، سببه الرغبة في كسب المال بل اعتبرت الدافع إليه «وضع الأمور في نصابها».

هذا وكانت فاليري زوجة القاضي جيمس ماركيس وابنتاه قد افادت لصحيفة «نيوز ان ذي وورلد» الأسبوعية البريطانية من مقر إقامتهن في جنوب أفريقيا عن علاقتهن الغرامية بكلاارك وقلن أنهن قررن كشف المستور بعد أن تقرر نشر مذكرات كلاارك في جنوب أفريقيا.

واعترفت زوجة القاضي بأن علاقتها بالوزير العاشق استمرت ١٤ عاما خلال الثمانينات وأنه اغواها بشخصيته القوية ثم انتقل بعد ذلك لغواية ابنتها اليسون التي تبلغ من العمر الآن ٣٦ عاما ثم ابنتها جوزفين الأصغر بعامين وذكرت زوجة القاضي وابنتاه أن كلاارك البالغ من العمر الآن ٦٤ عاما اعتاد أن يرسل اليهن عبارات فاضحة على أوراق مجلس العموم البريطاني وأنه أرسل لهن صورة شخصية له وهو لا يرتدي غير قميص قطني وكان كلاارك الذي اعترف في مذكراته المثيرة بأنه من عشاق المرأة يزور باريس لدى نشر تلك التقارير الصحافية وبعد مطاردة طويلة من جانب الصحفيين قال في خبث شديد اعتدت ألا اعقب على ما تقوله السيدات عني.

أما جين زوجة كلاارك فإنها لم تجد ما تدافع به عن زوجها إلا القول: من الطبيعي حين تقييم علاقات غرامية مع أفراد الطبقة الدنيا أن يهرولوا إلى الصحافة وكأنها بذلك تبيح له إقامة علاقات عاطفية مع طبقة الذوات العليا فقط .

هذا وقد سارعت زوجة كلاارك الذي عمل وزير المشتريات والدفاع في حكومة رئيسة الوزراء تاتشر والذي فاقت مبيعات مذكراته المثيرة مبيعات مذكرات تاتشر نفسها، سارعت إلى لافتة في حديقة منزلها تحذر المتطفلين من الدخول كتب عليها كلاب الحراسة مطلقو السراح.

أزمة سياسية لأسباب جنسية

تحول الكشف عن قضية مصمم الأزياء الإيطالي فرانشييسكو سمالتو المتهم بتقديم غانيات للرئيس الغابوني عمر بونغو وما ثار حولها من تفاصيل واحتمال إصابة بونغو بالإيدز إلى خلاف دبلوماسي بين الغابون وفرنسا، حيث قررت حكومة الغابون استدعاء

سفيرها لدى فرنسا للتشاور بسبب صمت الحكومة الفرنسية حيال حملة التشهير التي تشنها الصحف الفرنسية على بونغو في قضية سمالتو، كما استدعت السفير الفرنسي لدى ليبرييل للإعراب عن غضبها، وتشير وسائل الاعلام الغابونية إلى أن ما تسرب حول قضية سمالتو له أهداف سياسية.

وقدم سمالتو للمحاكمة في باريز بتهمة إرسال غانيات محترفات إلى بونغو، وقالت إحدهن في شهادتها أنها رفضت ممارسة الجنس معه لأنه رفض استعمال الواقي في ظل شائعات عن إصابته بالإيدز برغم نفي طبيبه.

واعترف سمالتو أمام المحكمة بأنه كان يبعث بالعاهرات إلى بونغو بشكل منتظم من فرنسا إلى الغابون لتوصيل الملابس التي يطلبها.

وخرج بونغو إلى شرفة منزله لتحية نحو ألف متظاهر كانوا يتوجهون إلى السفارة الفرنسية للتنديد بالحملة على الرئيس الغابوني.

وقالت إحدى الصحف الفرنسية أن وزير الداخلية شارل باسكوا المؤيد لرئيس الوزراء أدوار بالادور في الانتخابات الرئاسية، سعى إلى الكشف عن قضية بونغو للتقرب من رئيس بلدية باريس والذي أصبح رئيساً حالياً لفرنسا «جاك شيراك» للإساءة إليه.

ووكل بونغو المحامي الفرنسي الشهير جاك فيرغ من بين موكله لرفع دعوى تشهير على صحيفة لوموند بسبب مقال نشرته ينطوي على تصديق الشائعات الإيدز.

ومن ثم أدانت محكمة فرنسية مصمم الأزياء الشهير فرانشيسكو سمالتو بتهمة تأمين فتيات هوى لرئيس الغابون عمر بونغو. وحكمت عليه بدفع غرامة قدرها ٦٠٠ ألف فرنك فرنسي وبالسجن مع وقف التنفيذ لمدة ١٥ شهراً.

وجاء الحكم مضاعفاً لما كان الإدعاء قد طالب بإنزاله بالمصمم خلال المحاكمة التي جرت في نيسان ١٩٩٠ ووفقاً لشهادات فإن سمالتو اصطحب معه في مناسبات عدة بين العامين ١٩٩٠ و ١٩٩٣ ، إلى ليبرافيل فتيات هوى لتقديم عروض خاصة لأزياء كان يأمل بيعها إلى بونغو الذي كان يشتري عادة ملابس من تصميم سمالتو بقيمة ٦٠٠ ألف دولار سنوياً.

وخلال المحاكمة قال سمالتو، وبين زبائنه مسؤولون رفيعو المستوى في دول عدة، أن بونغو كان يدفع للفتيات عادة بين ١٠ - ٤٠ ألف فرنك إضافة لنفقات السفر. لكن سمالتو الإيطالي الأصل قال إنه لم يكن على يقين بأن الفتيات كن يُجبرن على النوم مع بونغو، كما نفى الشائعات عن أن رئيس الغابون يحمل فيروس الإيدز القاتل. وحكم أيضا في القضية ذاتها على أربعة أشخاص آخرين، منهم ابن شقيق المصمم فرانسوا سمالتو، بدفع غرامات مالية قيمتها الإجمالية ٣٩٥ ألف فرنك.

وكانت الشائعات عن إصابة بونغو بفيروس الإيدز قد تحولت إلى عنصر أساسي في المحاكمة، إذ سعى المدعي ميشيل فوبيالون لتأكيد ما إذا كان سمالتو قد تعمد إهمال الأخطار المحتملة بالنسبة للفتيات لجهة إصابتهن بالعدوى القاتلة.

وبسبب انتشار هذه الشائعة عن بونغو في أوساط فتيات الهوى، اللواتي يواعدن زبائنه عبر الهاتف، أصرت إحداهن، وهي بولندية عُرف عنها باسم مونيكا، على بونغو أن يستخدم العازل الطبي، لكنه رفض فغادرت ليرفيل من دون الحصول على أتعابها. وقد قدمت «مونيكا» شهادة خطية إلى المحكمة سردت فيها هذه الواقعة.

لكن أطباء فرنسيين بارزين نفوا لاحقا أن يكون بونغو حاملا لفيروس الإيدز وأخذ مؤيدو الرئيس الغابوني ينظمون احتجاجات يومية خارج السفارة الفرنسية في ليرفيل احتجاجا على الطريقة التي غطت بها وسائل الاعلام الفرنسية المحاكمة.

واقّمت الحكومة الغابونية، في بيان رسمي وسائل الإعلام الفرنسية بشن «حملة تشهير ضد الرئيس» وحملت على المسؤولين الفرنسيين لتقاعسهم في الشهادة لمصلحة بونغو. ولم ينف بونغو أن سمالتو أحضر له مومسات من باريس، وقال إن المسألة يجب أن تعتبر مسألة خاصة. وبعد ذلك عادت العلاقات بين فرنسا ومستعمراتها السابقة الغابون وثيقة جدا، ولم تبخل باريس بأي دعم لبونغو الممسك بالسلطة منذ ٢٨ عاما على الرغم من مزاعم منتشرة على نطاق واسع بأنه يقمع معارضيه ويتلاعب بنتائج الانتخابات.

اليهودي التائه روزنتال يدق ناقوس الخطر

إنها قصة أغرب من الخيال يرويها لقيط يهودي يزعم فيها بأنه اكتشف أصوله العربية وأن والده كويتيا من أصحاب المناصب العليا، ولذلك يطلب العودة لبلده الأصلي والحصول فيه على حق المواطنة الكويتية.

فهو يقول أن والده الكويتي التقى بوالدته البريطانية في علاقة غير شرعية كان هو ثمرتها وذلك في العام (١٩٥٨) ومن هذا المنطلق علينا أن نتساءل عن عدد اللقطاء الذين من الممكن أن يدعوا أن لهم أصل عربي فيما لو أثبت روزنتال حقيقة انتمائه وحصل على الجنسية الكويتية.

وما يتطلع إليه جوناثان حالياً هو أن يعيش حياة طبيعية، وأن يحمل الجنسية الكويتية، وأن تكون له حرية الانتقال إلى بلد والده الذي تولى لسنوات طويلة مناصب حكومية عليا كان في أحدها وزيراً، ويقول أنه عانى بسبب أصله العربي من دون أن يدري أي شيء، واتهم بالعمالة للعرب بسبب ملامحه.

مغامرات الملك فاروق

يمكن القول بأن الملك فاروق الذي حكم مصر من ١٩٣٦ وحتى ١٩٥٢م حيث أطيح به إثر انقلاب عسكري تزعمه حينها البكباشي جمال عبد الناصر، كان من أكثر ملوك العالم فساداً وانحداراً أخلاقياً حيث أذهل في عصره العالم أجمع، كان ضخماً، ذواقاً قاسياً لا يرحم، يغوي النساء، خليعاً، مقامراً، مستغلاً للحروب حليفاً للنازية، مصاباً بهوس السرقة على مستوى المتاحف، امبراطوراً مبذراً.. كل هذه كانت الصفات التي استخدمتها الصحافة في وصفه، إذا كانت هناك سبع من الخطايا القاتلة فقد يستطيع فاروق أن يجد الخطيئة الثامنة - هذا هو الرجل الذي كان يأكل اثني عشرة

بيضة في وجبة الإفطار وأربعين سمانة في الغذاء، لقد استغل الحق الشرعي للملوك لاستمالة أجمل زوجات وبنات رعاياه وأدخل نفسه في المسابقات العالمية الكبرى للتفوق في فن الإباحة والدعارة، سواء كانت امرأة مذهلة أو كنزاً فنيا لا يقدر بالمال كان يأخذ كل ما يريد ووصل به الحال إلى نشل ساعة وينستون تشرشل.

هذا الملك الخليع كانت مغامراته الجنسية على كل شفة ولسان ليس في مصر فقط بل في كل دول العالم. وذلك لكون الكثيرات من عشيقاته من مشاهير الفن أو الخلاعة في العالم. وبالرغم من خلعه عن سدة الحكم في العام ١٩٥٢ ونفيه إلى خارج البلاد. فقد ظل يمارس نزواته الجنسية في منفاه حتى وفاته في العام ١٩٦٥.

والسؤال هنا هل يمكن لرجل كهذا أن يتسلم مقاليد السلطة في مصر دون أن يتهاون في بعض حقوق الوطن من أجل نزوة جنسية ما؟

أو هل يعقل ألا يستغل أعداء بلاده نقطة ضعفه هذه لهدف سياسي ما؟
لمعرفة الجواب لا بد لنا أولاً من التعرف على بعض صفحات حياته الماجنة ثم نركز بصورة تفصيلية على واحدة من عشيقاته الكثيرات عن كتب لنعرف منها حقيقة ما كان يجري.

علاقته مع الراقصة سامية جمال

لا أحد بالضبط يعرف مدى عمق تلك العلاقة، ولكن حادثة واحدة كشفت عنها النقاب وتركت الموضوع على كل شفة ولسان على شكل سؤال لا يعرف أحد بالضبط الإجابة عنه.

وقد بدأت الفضيحة عندما ذهب الملك فاروق إلى فرنسا في العام ١٩٥١ واستقر في مدينة دوفيل التي يجد فيها كل مبتغاه من اللذة التي اعتاد عليها. ومن هناك ثمة شيء ما راوده لدعوة راقصته المحببة للحاق به وكأنه أحس بأن ليل باريس لن يسهر إلا بها ولن يتألق إلا معها.

وأرسل الملك فاروق من باريس يطلب من رجاله إحضار سامية جمال. ولكن حدثت مفاجأة لم يكن ليتوقعها أحد. فقد رفض فؤاد سراج الدين وزير الداخلية آنذاك منحها تأشيرة خروج.

وتدخل كبار رجال القصر.. وتوسّطت حاشية الملك.. لكن فؤاد سراج الدين بقي على عناده.

اتصلوا بالملك فاروق وأبلغوه عن عناد وزيره، فتحير الملك من أمر الوزير الذي يتسبب في تعكير صفاء الليل الفرنسي. ولم يجد إلا حلاً واحداً. فاتصل بنفسه بوزير الداخلية واستخدم معه كل الأساليب لإقناعه. لكن موقف الوزير لم يتغير. فهدده الملك قائلاً:

إن طلبه أمر يعبر عن إرادة الدولة. فرد عليه الوزير: إنه بموقفه هذا يحمي هبة الدولة.

وعلى وجه السرعة أقامت سامية جمال دعوى قضائية في مجلس الدولة ضد الوزير مدعية أن الدستور يكفل لها الحرية الشخصية التي حرّمها منها الوزير بمنعها من السفر. ونظر المستشارون في القضية باهتمام بالغ ودرسوا مطالب الراقصة، وراجعوا موقف الوزير، ثم أصدروا حكمهم التاريخي القاضي بتأييد قرار وزير الداخلية فؤاد سراج الدين ورفض دعوى الراقصة.

أما ما هو السر الذي جعل فاروق يطلب سامية جمال لتلحق به، وما هو سر إصرار سامية جمال على هذا اللحاق فقد بقي سراً بينهما ...

نصف مليون جنيه لإسكات فتاة أمريكية:

تعرف عليها الملك في القاهرة، وأوقعها كغيرها في حبائله.. ثم ضاجعها في أحد قصوره فحملت منه سفاحاً. فشكا والدها إلى السفارة الأمريكية في مصر فقرر فاروق ترحيل الفتاة بسرعة من القاهرة. وبعد شهور قليلة وضعت الفتاة مولودها في أمريكا ثم أرسلت خطاباً للملك تهدده فيه بكشف سر المولود الملكي في كل صحف العالم. وبسرعة قصوى أيضاً، طار مندوب من القاهرة إلى أمريكا ومنح الفتاة نصف مليون

جنيه ثمناً لسكوكتها عن الفضيحة. وعندما نشرت جريدة المصري الخبر على صدر صفحاتها صادرها الملك.

مع الراقصة عايده عزيز:

ذهب إليها الملك خصيصاً في الملهى الذي كانت ترقص فيه.. الحلمية لاس.. وكان يسهر قبل ذلك في ملهى الأوبرج. كانت الراقصة عايده فارعة الطول، ممشوقة القوام... ساحرة العينين.. وتتمتع بذكاء لا يقل عن موهبتها رقص المثير. بينما كان الملك يدبر خطته لاصطحابها معه إلى القصر. كانت الأخرى تخطط له. فقد قررت ألا تفقد كل إثارتها كأنثى في ليلة واحدة.

اندمج كلاهما.. الملك والراقصة.. أخذها إلى قصره ليلاً، لكنه لم يستطع استغناء عنها مع إشراقة الصباح كعادته مع كل زائرات فراشه الوثير. وظلت عايده ضيفة على قصر الملك وفراشه تسعة أيام كاملة. وفي الليلة العاشرة كان قد تمتع في كل مفاتها الأثوية التي كانت تحجبها عنه بحيث لم تعد تملك ما تستحق البقاء في القصر من أجله. فطردها. ولم تحتمل الراقصة الشهيرة تلك الصدمة التي أصابتها فتعرضت على لمرض خبيث أدى لوفاتها بعد عدة أشهر.

مع زينات مجدي:

في يوم وفاة عايده كان الملك يسهر في نفس المكان الذي تعرف فيه بها. كانت هي تلفظ أنفاسها الأخيرة فوق سرير المرض. وكان هو يصحب قصة الملهى الجديدة زينات مجدي إلى سيارته برغم هطول الأمطار بشدة خارج الملهى. وحينما أخبره أحدهم وهو داخل السيارة بوفاة عايده صاح فيه.. "بلاش نكد يا حيوان".. كان الحق معه فقد كان رأس زينات مجدي في تلك اللحظات يرتاح على صدره.

وذاث يوم كاد الملك أن يقتل زينات وسكرتيه الخاص. فقد شك بأنها تحب السكرتير وتبادلته العواطف. حيث احتد عليها الملك وحذرهما من خيانتها له. لكنها ردت عليه في برود وثقة:

وهل تعتقد يا جلالة الملك أن هناك امرأة واحدة لا تخون...؟

وقبل أن يرد عليها تابعت قائلة:

قبل أن أعرفك كنت أحب صاحب الملهى الذي أرقص فيه. ومن أجل حبك كان لا بد لي من خيانتة. ولو لم أخنه لما عشت معك ألد أيام السعادة والنشوة. مما جعل الملك يبتسم من جديد ويأخذها بين أحضانه.

من أجل مطربة:

أعجب جلالته بالمطربة العالمية الشهيرة آنذاك «آني بريية» فقد أطارت عقله وأفقدته صوابه. وفي إحدى المناسبات الهامة انتهر جلالته الفرصة وأقام حفلاً ملكياً اسطورياً في قصر عابدين دعا إليه المطربة الكبيرة. بينما أقسم على زوجته الملكة فريدة ومنعها من الحضور. ومنح ملابس زوجته الملكة إلى المطربة حيث ارتدتها وجلست في اللوج المخصص لملكة مصر. وظن الحاضرون أن الملك حضر برفقة زوجته.

لكن زوجة أحد الدبلوماسيين الأجانب قامت من مقعدها لتصافح حرم الملك، فإذا بها تكتشف أن التي ترتدي ملابس الملكة امرأة أخرى. فتأملتها زوجة القنصل الأجنبي ثم صاحت:

مين؟ آني بريية...؟.

وعلم كل الحاضرين بما حدث. ووصل الخبر إلى الملكة فريدة. فبكت بعنف، وزاد إصرارها على الطلاق.

وعادت آني بريية لتسبب في أزمة جديدة. فقد اصطحبها الملك معه إلى استراحة في الهرم.. وفي الطريق الصحراوي كان ضوء القمر يفرش حبات الرمال، بينما قبلات الملك تنهمر فوق شفتي المطربة الحسناء التي عجزت عن أن تنفس. وفجأة وجد الملك نفسه وجها لوجه أمام بوليس الآداب، فبادر جلالته بإطلاق الرصاص على البوليس قبل

أن تتسع الفضيحة. وفي اليوم الثاني نشر الصحفي الكبير مصطفى أمين خبراً مفاده أن كبيراً جداً أطلق الرصاص على بوليس الآداب في الصحراء. فصدرت أوامر بمصادرة الصحيفة على الفور.

وفي اليوم التالي كتب مصطفى أمين سؤالاً واحداً وهو: لماذا غضب الملك من الخبر وصادر الصحيفة؟

وعرف القراء بأن الكبير جداً هو الملك فاروق بنفسه.

وبطبيعة الحال لم تكن كل عشيقاته بهذا الشكل فقد كانت بينهن الكثيرات اللواتي تستمر علاقتهن معه عدة سنوات، حتى ليخيل لكل واحدة منهن أنها ما هي إلا رقماً صغيراً في قائمة عشيقاته التي تزود كل يوم باسم جديد. ومن بين أشهر عشيقاته طويلات المدى إيرين جينيل

إيرين جينيل:

الحبيبة الوحيدة لفاروق طوال حياته. أو هذا ما كان يخيل لها كما كان يخيل للكثيرات مثلها. فقد كانت لدى فاروق القدرة على إقناع كل واحدة من عشيقاته بأنها الحبيبة الوحيدة وبأن الأخريات أقل شأناً منها.

أما إيرين جينيل فقد قالت ذلك للصحفيين بكل ثقة وقناعة وهي في حديقة الاستوديو، كانت صغيرة الحجم، شقراء شعرها مصفف جيداً وترتدي ثوباً شائيل مظهرها أنيق جداً وكانت شخصيتها تميل إلى الاوتوقراطية الإنجليزية، عندها ثقة في النفس إلى أقصى الحدود كانت كذلك لديها مسحة من الإقدام والجرأة وكانت في السبعين من عمرها.

أثناء تصريحها هذا كانت مثلاً غريباً لبنات جنسها حيث سبق لها أن تزوجت خمس مرات، من مصري وثلاثة من الإنجليز وبرازيلي، ثلاثة من أزواجها الخمسة أثرياء جداً أحدهم كارلوس أغنى رجل في البرازيل وكانت نادمة لأنها لم تحصل إلا على القليل على الرغم من جمالها وزواجها بكل هؤلاء.

عندما مات زوجها البرازيلي فجأة وهو صغير السن استخدمت اسرته نفوذها في القضاء البرازيلي لتبطل سريان وصيته وفي هذه الدولة لم يكن هناك نصيب محدد من الميراث للأرملة ولذلك اضطرت إيرين أن تعتمد على مواهبها كمصممة ديكور داخلي في روما، لكي تستطيع أن تعيش كمستشارة تجميل في باريس.

في عام ١٩٨٨ كانت تستعد للسفر إلى الكويت لتصبح مستشارة في استخدام العطور حتى تدخل السعادة على الخليج الفارسي. لقد تحولت شقتها إلى مكان ضيق مزدحم وكان سعرها مرتفعاً جداً ولا يستطيع أحد أن يسدد هذا الإيجار سوى كويتي ثري.

كانت على وشك السفر، وها هي إمرأه قد عاشت في قصر عابدين في القاهرة وفي قصر سوتون في إنجلترا وفي منزل ريفي كبير في إيباناما وفي برك أفينو، والآن أصبحت عجوزاً شمطاء لا تجد سوى ستوديو صغير في مونت بارتاس لو كان عندها حظ واستطاعت الحصول على هذا الاستديو.

لم تكن تنظر إلى الماضي بغضب ولكن كانت تشعر بالسخرية لوضعها وكانت متعبة لأنها مضطرة أن تجاهد وتعمل وتجند مأوى لنفسها على الرغم من أن هذه الأشياء كانت تتوافر لها وبسخاء مرات ومرات عندها إحساس بالملكية وارتباط شديد بها على الأقل لتجذب الانتباه هذه هي المرأة التي عرفت الرجال.

لقد ادعت أنها تعرف فاروق أكثر من أي أحد آخر. لقد قابلته وعمره واحد وعشرون عاماً وكان ملكاً وكانت هي كذلك، عمرها واحد وعشرون عاماً كاملة النضج، ظلت خليلته لمدة سنتين وقد ظلت حياتهما مرتبطة حتى آخر عمره.

كانت تصف الملك الصبي وهو في زهرة شبابه قبل النضوج حيث كان أنيقاً وحيويته شديدة. كانت إيرين هناك عند أعظم فترة في حكم فاروق أيام المجد فليدخل المؤرخون في تقدير هذه الفترة فيما بعد. والآن يمكن أن نعرف المعلومات التي يريد الجميع الوصول إليها الجنس، لقد رسمت هذه الخلية صورة للملك كهوا للجنس الآخر، كنا نتوقع قصة حب مشتعلة ولكن الواقع شيء آخر تماماً.

إيرين اليهودية:

كانت إيرين جينل من الإسكندرية من عائلة يهودية عريقة تعمل بالتجارة جاءت إلى القاهرة عام ١٧٩٩م وأصبحت ثرية من تجارة القطن وكانت تتكلم ست لغات، توجد مكتبة بأحد حوائط شقتها مملوءة بكتب بكل هذه اللغات.

وحائط آخر احتوى على بار مملوء بكل الأصناف وهذا دليل على استضافتها لكثيرين. وصورة بالأبيض والأسود فوق المدخنة الجريس كيلى. كانت هذه الصورة لإيرين مع علي خان في احتفال الرابطة البيضاء كانت تبدو في الصورة فاتنة هوليوود في فيلم «تالير» أثناء لمعانها في الخمسينات وفي الثلاثينات عندما كانت هوليوود في «الخليج» أكثر لمعاناً اكتشف مرشدو (ارمنيخ ثالبرج) الذين يجوبون العالم الفتاة إيرين ذات السبعة عشر ربيعاً في مصر وعرضوا عقداً مغرياً التصوير فيلم في كاليفورنيا لم توافق والدتي على ذلك لقد كانت تعتبر كل الممثلات عاهرات وبدلاً من ذلك زوجها أمها وهي تبلغ من العمر سبعة عشر عاماً من لوريس نجار رجل انجليزي يهودي من عائلة ثرية ويبلغ من العمر تسعة وعشرين عاماً. مثل رجال أم. جي. ام. في مصر لمع نجار إيرين في نادي سبورتنج بالإسكندرية قالت إيرين بصراحة كان قوامي جميلاً جداً كنت ألعب كثيراً سباحة، وركوب خيل، تنس وكان أكثر شيء إثارة في جسمي هو صدري، لم يكن ممتلئاً كما يحبه الأمريكيون، ولكن كان جميلاً جداً.

كان نجار شديد الحب للإنجليز كان يرتدي بذلة انجليزية «سافيل رو» وعندما قامت الحرب غير اسمه إلى جرانت وانضم إلى الجيش البريطاني حتى قبل الحرب كان نجار مولعاً بالأسلوب الاجتماعي للإنجليز (المدرسة الإنجليزية) في ليلة زفافه مع العذراء إيرين في فندق الميناهاوس الذى يطل على الأهرام والذي كان يستخدمه وينستون تشرشل في سفرياته إلى القاهرة، لم يبد نجار اهتماماً بجمالها، بدلاً من ذلك فتح شنطة صغيرة وأخرج منها عصاً مطوية وزوج حذاء أسود حرمي بكعب مرتفع وجورياً أسود كنت هناك فتاة رياضية، جميلة، تزوجت دون أن أضع أي مساحيق على وجهي لم تكن لى أي علاقات من قبل.

وها هو زوجي الجديد يريدني أن أضربه حتى الموت. [كان زوجها مازوخياً كما يبدو وهو الشخص الذي يجد متعة أو راحة أو لذة في التعرض للألم، أو الإهانة، أو الإذلال، سواء على المستوى الجسدي أو النفسي]

الصباح التالي استيقظت مبكراً واختبأت وراء الأهرامات، ولكنه استطاع أن يصل إلي. لم أكن أتصور أن الطلاق شيء ممكن حدوثه، كنت أظن أن الزواج مستمر للأبد كنت مضطرة أن أضربه حتى يسيل منه الدم ثم أمرر الكعب العالي بعنف في هذه الجروح حتى يستطيع أن يمارس الجنس وكنت مضطرة أن أكرر ذلك ثلاثة مرات يومياً ولكن نجار أكد لي مراراً أن هذه هي الطريقة الطبيعية التي يتبعها الجميع. أصبت بالمرض والغثيان، أخذ شعري يسقط وأخيراً بعد أربع سنوات ونصف السنة استطعت أن أحصل على الطلاق. بعد كل هذا العناء يمكن أن تتصور السعادة التي أحسست بها عندما قابلت فاروق».

كانت أول مقابلة لإيرين مع فاروق عام ١٩٤١ بعد طلاقها بفترة قصيرة عندما كانت حشود روميل في أفريقيا على حدود ليبيا في تحركها العنيف إلى جوهرة الشرق الأوسط العظيمة قناة السويس التي كانوا يأملون في الاستيلاء عليها. كانت الاسكندرية مملوءة بالمرح والهدوء الذي يسبق العاصفة، وكانت حشود البريطانيين تلهو على أساس أنهم قد يموتون غداً. كان لإيرين نشاط بارز في أعمال الخير، فهي جميلة لم تكن تتودد فقط للإنجليز المحبين أمثال زوجها السابق ولكن للأمريكيين، كذلك كانت أكثر شهرة في جمع الأموال للمجهودات الحربية، وكانت تدير باراً تقدم فيه زجاجة الشمبانيا بمائة جنيه، والقبلة الواحدة بمائة جنيه أيضاً وكل ذلك للمجهود الحربي كان أكبر مناسبة لجمع هذه التبرعات في الإسكندرية حقل الصليب الأحمر وكانت هيلين موصيري أرملة رجل يهودي يوناني غني والمنظمة لهذا الحفل طلبت من إيرين ألا تقف على بار الشمبانيا بل تقف على بار لعصير البرتقال وتعجب إيرين لماذا البرتقال.

عرفت بعد ذلك إيرين أن الملك فاروق كان سيحضر الحفل وشرابه المفضل عصير البرتقال، وأن فاروق رأى إيرين وعرف أنها مطلقة حديثاً ويريد مقابلتها، كانت

الثروة في القصر في ذلك الوقت تشيع أن فاروق والملكة فريدة على الرغم من قصة زواجهما الأسطورية وعلى الرغم من وجود ابنتيهما، بينهما كثير من المشاكل.

وكانت هيلن موصيري صديقة حميمة لفاروق، ومقربة جداً، لدرجة وجود خط تليفوني مباشر لفاروق في غرفة نومها، حيث كان الملك المصاب بالأرق دائماً يستطيع أن يطلبها في أي وقت وأوضح لها فاروق أنه يريد أن يقابل فتاة جديدة - فاختارت له إيرين ردت إيرين بعنف «لن أقابله» لم تكن قد قابلته مطلقاً، من قبل وفي هذه اللحظة لا تريد أن تراه «لقد كانت تكره أي إنسان في صف الألمان».

فمنذ بدأ الخديوي إسماعيل ببناء قناة السويس وتحويل القاهرة والإسكندرية إلى بلاد أوروبية نظر المصريون القوميون إلى الانجليز كخنازير استعمارية، ولكن المجتمع الأوروبي في مصر كان يحب الاستقرار الانجليزي وكان المصريون يكرهون الانجليز ومع وجود آلات الحرب النازية على الأبواب، رأى المصريون أن الألمان هم أملهم الوحيد للتحرر من القبضة البريطانية، كان البريطانيون يشكون في فاروق وبلاطه لتحالفهم مع المحور وكان لإيرين تفسير أبسط لقد كان عمره واحداً وعشرين عاماً وكان شاباً صغيراً، لا يعرف كيف يستطيع أن يصبح ملكاً، كل ما كان يهمله من الذي يدلله أكثر الانجليز أم الألمان، عندما تزوج من فريدة أعطاه الانجليز مضربين من الذهب ولم يكن قد لعب الجولف في حياته كان مولعاً بالسيارات فأعطاه الألمان أجمل سيارة خاصة مرسيدس رودستر كطفل فضل اللعبة الأحسن وهذا الذي أوصله إلى فكرة إخراج الانجليز الذين قدموا له المضارب الذهب، إذا كسب الألمان الحرب وسيصبح ملكاً حقيقياً من وجهة نظر إيرين.

لم تكن الفاروق أي علاقات جنسية سابقة قبل زواجه من فريدة وكانت إنسانة عادية من عائلة عريقة اختارتها له والدته الملكة نازلي التي أرادت ألا تتلقى أوامر من أي أميرة أخرى يخطبها الملك.

لقد تلقت نازلي أوامر كافية من الملك فؤاد والد فاروق، الذي كان رجلاً شكاكاً حبس الملكة المرححة النشطة في حرمك قصره حتى وفاته عام ١٩٣٦ بعد ذلك تحررت نازلي.

لم تكن نازلي تدرك أنها تزف ابنها (البكر) إلى صائدة رجال من الطراز الأول. كانت فريدة أول فتاة في حياة فاروق، وكان ساذجاً لم يفكر أبداً أنها ستتقلب عليه وعندما فعلت بدأ فاروق ينظر إلى الناحية الأخرى، ولكنه لم يمارسه كانت الأميرة فاطمة طوسون زوجة ابن عم فاروق حسن طوسون الجميلة في انتظاره. كانت الأميرة ذات النسب العالي شديدة التعلق بفاروق ولكنها من أسرة عريقة جداً، وظنت نازلي أنها لن تستطيع أن تتحكم فيها.

بعد أن تزوج فاروق من فريدة تزوجت فاطمة الأمير حسن وشعرت فاطمة أن الفرصة سانحة أمامها ولذلك ألقت شباكه حول فاروق وحيث إن زوج فاطمة كان في مرتبة أقل من فاروق في سلالة العائلة الملكية لم يكن يستطيع أن يمنع فاروق من الاستيلاء على زوجته وإذا كان يريد لها لا يوجد أي فرد في مصر يستطيع أن يمنع الملك من الاستمتاع.

قالت إيرين كانت فاطمة تريد أن يطرد فريدة من حياته ويجعلها ملكة لمصر، فالطلاق ممكن في الإسلام كل ما سيفعله فاروق أن يقول لها أنت طالق ثلاث مرات وينتهي كل شيء. وافق فاروق على ذلك ولكنه اشترط على فاطمة أن تعطيه وعداً حتى يتزوجها ولكنه لم يكن جاداً معها وإلا فلماذا بحث عني.

لم يجد فاروق إيرين عند بار البرتقال وراها على إحدى موائد القمار محاطة بفرقة من الضباط البريطانيين في ملابسهم الرسمية بينما كان أعضاء المجتمع البارزين يقومون على خدمتهم. لاحظت إيرين أن شيئاً غريباً يحدث حيث كانت تكسب في كل مرة تراهن فيها. هذه الليلة كانت ترتدي ثوباً أبيض موسلين عليه شغل إبرة لريشة حمراء علامة للصليب الأحمر حول أحرف الثوب ومزين بريشتين كبيرتين حقيقيتين لونهما أحمر كان الثوب من عند مدام برتن مصممة الأزياء الأولى بالإسكندرية، شعرت إيرين أن هناك من يتفحص هذا الثوب واستدارت للخلف حيث كان فاروق يقف خلفها يلبس بدلة عسكرية ملكية صيفية يحملق فيها، وجاء الحاضرون فوراً بعرض مطلي بالذهب ليجلس عليه فاروق ولكنه جعلها تجلس على هذا العرش وجلس بجانبها على مقعد صغير وبسرعة أصبحت إيرين قبلة الأنظار للحفلة كلها.

جاءتها صوان بأقراص الرهان وكسبت مكاسب كبيرة ثم أخبرها فاروق أنه هو الذي طلب من هيلين أن تجعلها تقف على بار عصير البرتقال، ودعاها للسباحة في منتصف الليل في المنتزه لكنها شكرته ورفضت الدعوة وتركته على مائدة القمار.

حتى الآن يبدو كل شيء عادي. ولكن متابعة القصة حتى النهاية توضح لنا بأن كل من اليهود والبريطانيين كانوا يطرحون شباك الجنس حول فاروق.

إذ يكفي أن تتذكر أولاً أن هيلين نوصيري هي بالأصل زوجة رجل يهودي سابق وأن الملك قد وضع خطأ هاتفياً خاصاً لغرفة نومها. وأنها أي هيلين هي التي اختارت إرين لهذه المهمة. ولمعرفة المزيد دعونا نتابع ما قالته إرين.

إذ أنها عندما كانت تهم بالخروج من باب البار اعترضها سير ميلز لامبسون السفير البريطاني في مصر آنذاك والذي كان يحتقر بدوره الملك فاروق ويشير إليه بكلمة «الصبي». وكان الملك فاروق بدوره يرى في السفير البريطاني لامبسون صورة الأب المستبد الذي يتعامل مع ولد مدلل وليس مع ملك.

في الشهور القادمة سيثبت لامبسون أنه النقطة السوداء في عدم بقاء فاروق في الحكم والسبب في التحول الرهيب للحياة الملكية في مصر وفي حياة هذا الملك الشاب. في هذه اللحظة على الأقل ندم لامبسون لإعطاء فاروق المضارب الذهب لأنه ظن أن فاروق موال للمحور في الوقت الذي تستطيع فيه إنجلترا بصعوبة شديدة تكوين جبهة دفاعية عن طريق إرين.

قال لامبسون بإصرار لإرين وهما على الشرفة ينظران إلى الأضواء المبهرة بالإسكندرية «بالطبع يجب أن تذهبي معه للسباحة في القصر، يجب أن تذهبي».

وعندما أدركت إرين الهدف الحقيقي والمرجو منها قالت بعد حالة من التفكير الهادئ: «لست مهتمة إطلاقاً بفاروق ولكنني سأفعل ذلك فقط لأني أكره الألمان، أفعل ذلك لأننا يجب أن نكسب الحرب».

قالت إرين بإصرار شديد، وأخذت العربة الرولز رويس إلى منزلها لتأتي بلباس البحر، وفي الساعة الثانية صباحاً وصلت إلى القصر الإيطالي الذي يشبه قالب الكيك

في منتصف الحداثق الرومانسية على البحر مباشرة بشواطئه الممتدة وأواجه المتلاطمة وروائح الياسمين المنتزه في ليلة قمرية كان أجمل بقعة على وجه الأرض.

ولكن فاروق احتفظ ببذلته العسكرية ووقف على الشاطئ بينما لبست إيرين لباس البحر الأبيض اللون الملفت للأنظار واندفعت إلى البحر كل ما فعله فاروق هو النظر إليها وهي تستحم في البحر، لم يتحرك على الإطلاق حتى انتهت إيرين من السباحة ورجعت إلى حمام القصر لتغير ملابسها، تركت صندلها على الشاطئ وذهب فاروق لإحضاره مطيعاً ولم يحدث شيء آخر وركبت السيارة الرولر رويس إلى منزلها.

صباح اليوم التالي اتصل بها فاروق في المنزل وقال لها هذا أنا دون أن يذكر لها اسمه وسألته إيرين بماذا تريد أن أناذك وتجنب فاروق الرد فقال لها بماذا تريدين أن أناديكي، سأقول لك بوتشي وردت عليه إيرين بسرعة «وأنا سأناديك بوتشي وسألها فاروق متى أستطيع أن أراك ردت إيرين لن تستطيع رؤيتي فأنا مشغولة جداً وبالإضافة إلى ذلك أنا أكره الأشخاص الذين لديهم لحية».

وكان الملك فاروق قد أطلق لحيته ليس حباً بالنقى والورع ولكن كلفتة سياسية شجعه عليها مستشاروه ليكسب بها مجموعة الإخوان المسلمين الذين كانوا يتزايدون بسرعة كبيرة في تلك الفترة.

وعلى هذا لاحظ بأن أول دلح لإيرين كان ذو مغزى سياسي عندما طلبت منه بأسلوب غير مباشر أن يتخلى عن لحيته إذا كان راغباً في التمتع فيها حقاً.

وقد كانت جميع طبقات المصريين تكره الانجليز وكانت إيطاليا في الحرب ضد الإنجليز وحتى حلفاؤهم الفرنسيون كانوا يمتلكون غيرة شديدة وعدم التعاطف معهم.

المجتمع الأجنبي الوحيد الذي كان الانجليز يستطيعون الاعتماد عليه هم اليهود، لذلك كانت هناك مهمة محددة لإيرين جنيل. كيف لامرأة واحدة حتى لو كانت أجمل امرأة في العالم أن تنجي فاروق من قبضة هتلر الشرسة التي لا ترحم. وقالت إيرين: «كان فاروق طفلاً وكنت أستطيع أن أتحكم فيه».

في أول الأمر رفض فاروق على الإطلاق أن يخلق ذقنه وكان يطلب إيرين بالتليفون يومياً ثم عدة مرات كل يوم لمدة شهر كامل قالت إيرين: «كان مثل طفل يريد

أن يحصل على لعبة وكلما أسأت معاملته أصر على الحصول على هذه اللعبة بعد هذه المحاولات الكثيرة من فاروق ولا مبسون وافقت إيرين أخيراً على الذهاب لمقابلة الملك في موعد غرامي حقيقي في قصر المنتزه...

ارتديت ثوبا دانتيل صغيراً أسود كان من الصعب خلعه وكنت متأكدة أنه لن يستطيع الوصول إلى أي شيء وأنا مرتدية هذا الثوب ثم فكرت لحظة لقد قدموا لهم عشاء يكفي لعشرة أشخاص من الجمبري والحمام وأكلات بحرية قام بطهوها شيف فرنسي وقدمها أربعة سفرجية سودانيون في غرفة نوم الملك الواسعة التي تطل على البحر المضء بنور القمر حيث كان فاروق كالمعتاد مرتدياً بدلة عسكرية ملكية، وتكلم طويلاً عن عائلة إيرين وعن زواجها الفاشل كان لديه جواسيس في كل مكان، إنه أكبر إنسان فضولي في العالم.. قالت إيرين إذا عطست يجب أن يعرف ذلك وهنأته إيرين على البحث الذي قام به بشأنها قائلة «لقد أديت واجباتك المدرسية دون أي أخطاء» وبعد تناول العشاء طلبت منه أن تعود لمنزلها.

وسألها فاروق «ألا ترغبين في البقاء لبعض الوقت» قالت إيرين «ماذا نفعل» فرد عليها «تشيريني» ولكنها قالت أنا فعلاً أريد أن أعود إلى المنزل»

وفي الساعة الثانية عشرة والنصف أعادتها سيارة كاديلاك من القصر إلى منزلها عند والديها بالإسكندرية، وبعد عشر دقائق أخرى طلبها فاروق على التليفون لقد كان يسعد بالحديث في التليفون وطلب أن يراها مرة أخرى وتقابلا على نفس هذه الحال لمدة شهرين دون أن يحدث أي شيء بينهما، قالت إيرين وهي تضحك لم يكن دون جوان». ثم قبلت إيرين دعوة فاروق لقضاء عطلة نهاية الأسبوع بأكملها في قصر عابدين والداها كانا قد انتقلا إلى شقة بالقاهرة بميدان سليمان باشا لفترة الشتاء لا زالا محتفظين بمنزلهما بالإسكندرية لم يكونا في هذا الوقت يهتمان بأية تصرفات سيئة منها.

قالت: إذا كان الرجل يريد شيئاً لن ينتظر كل هذا الوقت وقد كنت محقة لقد أمضينا ليلة رائعة في جناحه بالقصر فتح الخدم حقيبة ملابسي في غرفة نومه ولكن ذلك لم يزعجني لم أكن البس أي ملابس نوم كان الجو حاراً جداً وسألته هل يضايقك إذا نمت وأنا عارية ورد علي لن يضايقني لو نمتي عارية أو مرتدية لملابسك وهو كذلك لم يلبس

أي شيء وهو نائم قبلي على وجنتي ونام كل منا عارياً تماماً في أكبر سرير رأيته في حياتي دون أن يحدث أي شيء بيننا وفي صباح اليوم التالي انتقلنا إلى حمام السباحة الداخلي للقصر ولعبنا في حمام السباحة ونحن عرايا مثل طفلين صغيرين في يوم الإجازة. لم تكن هناك أية علاقات جنسية على الإطلاق ولقد كنت سعيدة بذلك خاصة أنني عانيت من ذلك في زواجي.

لم يقدم على أي شيء لم يكن مهتماً بالجنس» أصرت إيرين «لم تكن لديه أي شهية للجنس ماذا عن طقوسه لابد أن هناك تصرفات معينة لفاروق لم يكن يسعى إلى العلاقات الجنسية، كان ذلك بعيداً عن تفكيره لقد كان يريد أن يضمني مثلما يمسك طفل بقطعة صغيرة كان يحضن رأسي بين ذراعيه ويقول يا له من رأس جميل أو قد يضغط على قدمي ويقول يا لها من قدم جميلة وكان يُقبل وجنتي كما كان يأكل آيس كريم ولكن الجنس لم يكن يهتم به على الإطلاق».

على الرغم من غياب الإثارة الجنسية أخبر فاروق إيرين أنه يحبها ولكن ماذا عن فاطمة طوسون، لقد وجهت إيرين له اللوم فأخبرها فاروق أن زوجة ابن عمه قد ولدت له ابنتاً توأماً ولكنه لم يعط للموضوع أي اهتمام وأرسل لفاطمة عقداً من الجواهر في المستشفى ولم يذهب لزيارتها على الإطلاق أو ليرى ابنته الصغيرة. ألم يكن هذا دليلاً كافياً على فكرته عنها.

في نفس الوقت هذا الرجل الحقير الذي دفع زوجته إلى الزنا لم يفعل أي شيء سوى أنه ابتسم ونظر إلى الجانب الآخر. في عائلة فاروق الحاكمة مستوى التصرفات الطبيعية لم يكن مطبقاً كانت قوانين اللعبة، هي تلك التي يصنعها فاروق حسب الظروف، وتحت هذه الظروف من عدم احترام للتقاليد كيف تتوقع لفاروق أن يتصرف بلياقة؟

بدأ فاروق يخرج مع إيرين في الحفلات العامة، لقد أصبحت خليلته الرسمية، كانا يذهبان إلى النوادي الليلية مثل سكاربي والكيك كات وكانت هذه النوادي ممتلئة بالجواسيس بما فيهم فتيات الاستعراض من الجرج. عند وصولهما كانت الفرقة الموسيقية

تتوقف عن العزف وتعزف إحدى أغاني فاروق المفضلة «كل ما حظيت به منك كانت ركلة بدأت إيرين كذلك تقدم الملك لدائرتها - الدائرة الانجليزية -

في أول الأمر كان يرفض الذهاب وذات مرة عندما كنت ارتدي ملابس للذهاب إلى حفل ركع على ركبتيه ومسك بساقي وقال لي: «أنت جميلة جداً أرجوكي لا تذهبي ولكني قلت له لو لم تكن بهذا الغباء لذهبت معي. ولم يأت معي ولكنه حلق ذقنه في اليوم التالي.

وكانت هذه البادرة بحد ذاتها كافية لإقناع إيرين بأن فاروق غدا ألعوبة بين يديها وأنها لا شك قادرة على تغيير مسيرة السياسة في مصر عاجلاً أم آجلاً.

مبهوراً باليهودية:

إذا لم تكن هناك علاقة جنسية حقيقية بين إيرين وفاروق فما الذي كان بينهما؟ لقد كان مبهوراً باليهودية هذا ما قالته إيرين وأضافت الإنسان الوحيد الذي كان فاروق يطيع أوامره هو والده فؤاد. فقد كان أبوه بالنسبة له هو الحكيم وقد أفهمه أبوه أن أحسن امرأة في العالم هي المرأة اليهودية خاصة عندما تكون متعلمة.

كانت حبيبة الملك فؤاد السيدة سوارز وقد كانت بارزة في المجتمع اليهودي في مصر، وقد استمرت علاقة الحب بينهما لمدة عشرين عاماً، وأجبرت الإنجليز أن يجعلوا فؤاد ملكاً على الرغم من أن تربيته لم يكن طبقاً لقوانين الخلافة يسمح له بهذا المنصب وبعد ذلك كانت لها اليد العليا في ترتيب زواج فؤاد الأول إلى ابنة عمه التي تبلغ من العمر تسعة عشر عاماً، الأميرة شويكار في عام ١٨٩٦.

كانت هذه الأميرة من أغنى أميرات مصر وكان ذلك ضرورياً بالنسبة لفؤاد حيث كان مفلساً من لعب القمار. وبعد حصول فؤاد على أموال الأميرة، ادخلت السيدة سوارز هذه النقود في بعض الاستثمارات مع أصدقائها اليهود في المجال الصناعي وحولت هذه الأموال إلى ثروة طائلة وماتت السيدة سوارز بسكتة قلبية في حفلة وهي ترقص مع الملك فؤاد. ولم ينسها أبداً ولم ينس فاروق كذلك حب والده الكبير لها. ورأى في إيرين فرصة لإحياء حكمة والده.

كان فاروق يجب أن يحصل على أفضل الأشياء دائماً كما ينبغي للملك الذي يمتلك كل شيء، بما في ذلك خلية يهودية تخلق ذقنه وتذهب إلى حفلات الشاي الإنجليزية، ومقابل ذلك يصبر أن تصبح إيرين مسلمة اعطاها إحدى هداياه النادرة، مصحفاً صغيراً مرصعاً بالجواهر. أرسل إليها مدرساً عربياً لمدة ساعة كل صباح ليدرس لها دروساً في القرآن وأطلق عليها اسماً عربياً جديداً «فتحية» نفس اسم شقيقته الصغرى ومعنى الاسم أنها تفتح جميع الأبواب أمامك، كانت إيرين تكره الدروس، كانت تكره أن تستيقظ كل صباح على دروس في التقوى، ولكنها حاولت أن تسايه.

ولكن ما الذي أعجب إيرين في رجل دون اهتمامات جنسية أو ثقافية؟ لم يعجبني فيه أي شيء كان يجب أن أبقى معه حتى أبعده عن الألمان فعلى الرغم من مقاومة إيرين لم يكن السفير البريطاني سيرميلز لاميون مستعداً أن يترك هذه الأمور للحظ أو للغراميات.

ففي أوائل فبراير عام ١٩٤٢ قامت مظاهرات طلابية مؤيدة للألمان واستقال رئيس الوزراء المصري المؤيد للإنجليز كان لامبسون يريد أن يؤكد أن من يخلفه يجب أن يكون بناء على اختياره هو وليس اختيار فاروق حتى أوائل الأربعينات كان لامبسون يرتدي بالطو رجالي يصل إلى ركبتيه وكان يرتدي ربطة عنق ذات ألوان زاهية ومنقطة وكان يطلق عليه فاروق اسم جاموس باشا.

في أثناء هذا العام ناقش لامبسون بجدية مع لندن إمكانية إسقاط فاروق «الولد كما كان يطلق عليه عندما عارض فاروق تعيين الرجل التابع للامبسون مصطفى النحاس الزعيم المحبوب لحزب الوفد رئيساً للوزراء.

وقد قام لامبسون بإجراء كان من أشد الإجراءات عنفاً من قبل الاستعمار البريطاني لدولة من المفروض أنها ليست مستعمرة بريطانية.. لقد أحاط قصر عابدين بكتيبة من الدبابات البريطانية وكسروا أقفال أبواب القصر ودخلت فرقة عسكرية مسلحة إلى درجات القصر الكبير واندفعت إلى حجرة مكتب فاروق واتهمت الملك باتهامات عديدة بدءاً من الافتراءات حتى الخيانة العظمى وقدمت له عريضة الاتهام.

في أول الأمر اعترض فاروق لأن الوثيقة كانت مكتوبة باستهتار على ورق مقطوع من دفتر مذكرات بالسفارة البريطانية، وحتى يفوت الفرصة على لامبسون فقد وافق على اختيار «ناظر المدرسة» كما كان يسميه فاروق ساخراً بتعيينه لرئيس الوزراء الذي اختاره.

كانت هذه الحادثة صدمة مذهلة للدولة بأكملها وليست الفاروق فقط وأدت إلى زيادة كراهية المصريين للإنجليز، لقد كان البريطانيون معينين رغم أنف المصريين في الوظائف العليا. والآن تمت مقاطعتهم ولكن طبعاً إيرين لم تقاطعهم.

وفي ذلك الوقت كان ابن وينستون تشرشل، راندولف الضابط الشاب الذي جاء إلى القاهرة في عام ١٩٤٠ مع نخبة من القوات العسكرية التي ضمت ايفيلين واي من الأشخاص الذين يسعون إليها. وكان راندولف يطلق على فاروق «الخنزير القذر». كان فاروق متجاهلاً لRANDOLF ولم يكن مقتنعاً بسير وينستون حيث كان فاروق يطلق عليه وهو يشرب «رجل انجليزي بدين آخر».

مازالت إيرين مقتنعة بأن فاروق سرق علبة السجائر الذهبية التي أهداها لها وينستون لRANDOLF في عيد ميلاده الحادي والعشرين.

وعندما طلب فاروق أن يراها حيث إنهما هدية خاصة جداً قلت له «ليس أنت أيها المريض بداء السرقة فلو رأيته فلن أراها مرة أخرى وقال لي بشرف الملوك لن أخذها ولغفلي وثقت فيه وبالطبع لم أراها مرة أخرى ولكني وجدتها هنا في باريس في معرض الكارتيير بالقصر الكبير بعد أن عرض الضباط الأحرار مقتنيات قصر عابدين في مزاد علني من أكبر المزايدات في التاريخ عام ١٩٥٤

حادثة عابدين جرحت فاروق جرحاً عميقاً وكما قالت نازلي «لو أن لامبسون جاء بعلبة من الشيكولاته بدلاً من الدبابات». فلقد قلت لفاروق: هذا درس جيد لك لقد حدث ذلك لأنك تقف مع الجانب الخطأ من الأفضل ان تكن في صف الإنجليز.

استمرت إيرين خليعة فاروق الرسمية لمدة عامين في أغلب الأحيان ينامان عاريان معاً، يلعبان ألعاب الماء في حمام سباحة القصر ويثرثران.. لم يكن فاروق معقداً من شيء،

كانت عقده الوحيدة ثقته الزائدة في نفسه. كان نظيفاً جداً، قليل الخطأ، إلا أنه كان يجب أن يتجشأ طوال الوقت ليضايق الحاضرين.

كان ينام عارياً دائماً ولم يشخر أبداً. كان كسولاً بطريقة لا تصدق، لم يذهب أبداً ليطمشى عندما كنا نذهب إلى حدائق القصر مثلاً للتنزه.. كان يجلس على دكة وينظر إلي وأنا أمشي من وجهة نظره - الملك لا يفعل شيئاً على الإطلاق - لم يكن عنده ميول حقيقية للموسيقى أو الثقافة، لم يقرأ أبداً، لقد كان مثل كلبه الوولف الألماني الكبير، كان مجنوناً باللون الأخضر: ملاءات السرير، ملابسه بالمنزل شبيهه كل هذا كان باللون الأخضر وكان الحرف «ف» على كل شيء.

لم يمرض أبداً كان يعبد حمامه كان أكبر وأفخم حمام رأيته طوال حياتي وكان يجب أن يحمي نفسه ولكنه يسعد أن يجعل الخدم يلبسونه حذاءه يجب أن يراهم تحت قدميه. فكرته الثانية عن الملك أنه ليس لدينا لأحد بأي شيء. عندما كانت الإطارات توزع كحصص لندرتها طلبت منه أن يأتي بإطارين لسيارة لوالدي. ضغط فاروق على زرار التحكم الأتوماتيكي الذي يفتح جميع أبواب جراجات القصر وأخذ يعرض سياراته التي لا تحصى وضحك ولم يعطيني شيئاً.

ذات مرة كان أخي مصاباً باقصاب رئوي ولم يكن البنسلين متوافراً ولكي أجعله يوفر لي هذا الدواء هددته بأني سأقول للعالم أجمع إن ملك مصر كان يستطيع أن ينقذ حياة شخص، ولكنه لم يفعل ذلك

كان فاروق يتكلم معي حتى الساعة الخامسة صباحاً، في لا شيء، مجرد ثروة ما الذي ستفعلينه غداً، من الذي يعد حفلة؟ من الذي خسر في لعب القمار؟ ومن كان هناك؟ وماذا كانوا يرتدون؟ لم يكن غيباً ولكنه كان غير متعلم وكان سعيداً جداً بهذا. كان هو الملك. وكانت صحته قوية. كان مرحاً... كل شيء كان يضحكه. كان يظن أنه ذكي جداً وخفيف الظل عندما يغيظ الأشخاص ويثبت بذلك قوته ولا يستطيع أحمد أن يقاومه. كان شديد الثقة بنفسه.

ولكن ماذا عن الجنس؟ ذات مرة قال لي فاروق يجب أن يزداد وزنك ولكني قلت له إن هذا مستحيل لأنني أجري وأعوام وألعب جيمبازيوم كان وزني حينئذ خمسة وأربعين

كيلو جراماً. وكان محيط وسطي هو نفس محيط راسي. بالنسبة للشرقيين يعتبرون المرأة النحيفة فقيرة.

شغلني هذا الطلب لابد أن فاروق لديه أفكار أخرى ولذلك يريدني أن أزيد من وزني لكنه لم يكن يفكر في ذلك أن يستفزني فقط.

في نهاية ١٩٤٣ انتهى تهديد الجيش الألماني في شمال أفريقيا وأصبحت مهمة إيرين الغرامية غير ضرورية ولكن إيرين استمرت على هذا الوضع كاستمرارية لوضعها الأول وليس للضرورة.

وجاءت النهاية في رحلة الصيد في الفيوم التي رتبها إيرين ودعت لها همغري باتلر والتي وصفته الابن المخادع لملك إنجلترا جاءها همغري بسكرتيرة انجليزية جميلة في هذا الموعد إلى منزل الصيد الخاص بفاروق في واحة على أطراف الصحراء جنوب القاهرة.

كانت إيرين تظن أن هذه السكرتيرة هي صديقة باتار حتى هذا المساء حيث رأت باتلر يشرب الخمر بمفرده وذهبت إيرين فوراً إلى غرفة نوم فاروق في الطابق الثاني وكانت الغرفة مغلقة أخذت إيرين تطرق الباب بشدة وعندما فتح فاروق الباب رأت الفتاة الإنجليزية في فراش الملك الكبير وقالت إيرين «أتمنى أن تكوني مستريحة في فراشي ثم عادت إلى البار لتشرب البراندي مع باكلر حتى الثمالة.

ثم قررت إيرين أن تنام في نفس الغرفة التي كان ينام فيها باتلر مع جنرال بريطاني آخر. في ساعة متأخرة من هذه الليلة جاء فاروق باحثاً عنها اعترض باتلر طريق الملك وأفهمه أن إيرين كانت مريضة وأعطاه الدواء المناسب. لم يستطع فاروق الرد كان مذهولاً. لم تستطع إيرين أن تنام كانت مقتنعة أن هذه الفتاة الإنجليزية الرومانسية قد دبر أمرها كريم ثابت المستشار الصحفي الفاروق الذي أراد أن يستخدم الجمال الإنجليزي لينهي ارتباط إيرين بفاروق. كانت إيرين تطلق عليه المثلث الخائن الموالي للألمان الوحش.

في اليوم التالي أظهرت إيرين الخضوع للأمر الواقع ولكنها طلبت من الخدم أن يقدموا إفطاراً فخماً لثلاثة أشخاص فاروق وإيرين والسيدة الانجليزية. بينما كانت إيرين

تتظاهر باللطف أمرت الخدم بجمع حقائب السيدة الانجليزية في السيارة الملكية وعند تمرير دور آخر من «الكرواسون» على الإفطار قالت إيرين لسوء الحظ إنك لن تستطيعي أن تكلمي الإفطار لقد طلبت فوراً الرجوع إلى القاهرة وتعجل السفرجية ذهاب هذه الدخيلة إلى السيارة ومنها إلى الصحراء». وغضب فاروق ما الذي فعلته إنها امرأة رائعة، لا تقاوم. كانت هذه هي القشة التي قصمت ظهر البعير. رفضت إيرين أن تتكلم مع فاروق حتى نهاية هذا اليوم ثم عادت مبكراً إلى القاهرة واختفت في منزل هيلين موصيري.

عندما خرجت صرخ فاروق بجنون سأجعلك ملكة مصر ستكونين أماً لإبني. استطاع فاروق أن يجدها عن طريق جواسيسه ثم ذهبت إلى جناح همغري باتلر في فندق شيرد استطاع فاروق مثل الكلب بحاسة الشم أن يجدها هناك، اندفع إلى غرفة الطعام الرئيسية مرتدياً الشورت الحربي الكاكي وهو يبكي.

وقد اعترض همغري باتلر طريقة محاولاً أن يجعل فاروق يحتفظ بوقاره وقال له يبدو أنك أصبت بالبرد واعترفت إيرين على الرغم من أنني في البداية لم أكن اهتم بفاروق إلا أنني أحببته كان حبوباً مثل الطفل الشقي لا يمكن لأحد أن يقاومه ولذلك أحببته ولم يكن ذلك حباً رومانسياً، ولكني في النهاية فقدت صبري.

عادت إيرين إلى الإسكندرية لتعيش مع أصدقائها اليهود اللامبروسو. هناك قابلت ضابطاً إنجليزياً يبلغ من العمر ثلاثة وعشرين عاماً اسمه برسيفيل فال بيلي في حفل أقامه ادميرال بريطاني اثناء هذه المقابلة كان فاروق يتبعهم في كل مكان دون أن يظهر ولكنها كانت تشعر بوجوده إذا كانا في ملهى ليلي يرقصان.. كانا يعودان إلى المائدة ليحدا إحدى خوذ فاروق وعصاه على كرسي فال. كانت إيرين تعتبر غرامها مع فال هروباً لها من مصر وسوء سمعتها كخليفة للملك. هذا الزواج سيمكنها من الحصول على جواز سفر بريطاني وتأشيرة دخول إنجلترا لأنها إذا استمرت كمواطنة مصرية فلن يعطيها فاروق هذا الحق إطلاقاً.

بعد شهر ونصف من أول مقابلة تزوجا في كنيسة إنجليزية بالإسكندرية.

بدأت إيرين تعد الخطة للسفر إلى إنجلترا إلى سوتون بلاس، المنزل الخاص بعممة فال دوقة هولندا وفيما بعد منزل جي. بول جيتي. قبل أن تسافر زارها انتوينيو بولي «كان فاروق يحب رجلاً واحداً وهو بولي وكان يحب امرأة واحدة وللأسف هذه المرأة كانت أنا جاء بولي لزيارة إيرين وقال لها مدام إيرين» إنه يموت لقد ظل في الفراش ستة أيام كاملة لا يأكل، لا يذهب إلى البرلمان لا يقابل الوزراء، أرجوك يجب أن تأتي لرؤيته. ولو لمرة واحدة، عادت إيرين إلى عابدين فوجدت فاروق في فراشه الكبير.. قالت له إنها الآن متزوجة وستسافر إلى إنجلترا للأبد فنهض قائلاً وهو ناثر: إذا سافرت لن تضعي قدمك على الأرض المصرية، لن نسمح لك بتأشيرة دخول سوف تكوني في القائمة السوداء وبالنسبة لي سوف أعلن الحرب على اليهود سوف أفقد شعوري وأفقد نظري، سوف أذهب فقط إلى العاهرات وسأقضي باقي عمري في القمار.

قلت له: «يا عزيزي لن يستطيع أن يمنعك أحد من الانتحار وتركته ولم أكن أصدق كلمة واحدة مما قال، ولكن لأول مرة في حياته كان يقول الصدق والصدق الحقيقي».

ولكن هل كان فاروق وحده في هذه المتاهات أم أن التاريخ غالباً ما يعيد نفسه...؟

لنتابع معاً...

سهير زكي ترقص لتدمير الجيش المصري

إنه عنوان مثير بلا شك. ومؤثر في النفوس لدرجة الصدمة ولكن ماذا نفعل إذا كانت هذه هي الحقيقة.

ففي كتابه تحطمت الطائرات عند الفجر يروي الصحفي الإسرائيلي باروخ نادل عن حياة الجاسوس الإسرائيلي الذي كان معروفاً باسم آرام. «أنوير بيك» والذي كان مقيماً في القاهرة آنذاك وقد أصبح من ذوي السلطة والنفوذ لدرجة بات فيها صديقاً لكل عناصر الحكم.

يروي كيف استطاع ذلك الجاموس أن يقيم حفلة ساهرة أشرك فيها معظم الطيارين المصريين حتى الساعات الأولى من الصباح مما جعلهم غير قادرين على مقاومة الهجوم الإسرائيلي الذي قامت به إسرائيل صبيحة اليوم الثاني الخامس من حزيران عام ١٩٦٧ وما هو يصف أحداث الحفلة قائلاً:

هتف الطيارون وصفقوا مع وقع الموسيقى الصاخبة والحركات الشهوانية التي تؤديها الراقصة سهير زكي من أشهر راقصات هز البطون في مصر وكانت تذاكر حفلاتها تضرب الرقم القياسي في الثمن. ولا يستطيع إلا القلائل حضور حفلاتها.

وهي الآن ترقص للطيارين فقط، فإن أرام أنوير الصديق الوفي للطيارين المصريين تمكن من اقناع سهير زكي بعرض فنها الساحر أمام الطيارين المنتصرين. وعلى المسرح أدت أدواراً مثيرة على صوت الموسيقى، كان كل جزء من أجزاء جسمها يؤدي دوراً فيها خاصاً بهز بطنها، ظهرها، والثديين الكبيرين العاريين المتكورين على الصدر، ورأسها وفخذيها المفتوحتين تدعوان للشهوة والرغبة العارمة. وعند هذه المناظر كان الهتاف والتصفيق بل الآهات المثيرة تملأ الجو وهي تنطلق من صدور الطيارين ورفيقاتهم.

وأنا.. كنت أصدر الإشارة من حين لآخر إلى الخدم ليقدموا مزيداً من الشراب زجاجات جديدة أريقت في الكؤوس وتدار على الطيارين ورفيقاتهم... ومع كل جرعة كانوا يفقدون حواسهم وإدراكهم.

وصديقي العزيز، صديقي محمود كان يجلس مشدوداً إلى الراقصة لا يرتفع نظره عن المشهد المثير، وكانت الشهوة تنطلق من عينيه، ورأسه راح يترنح مع وقع الموسيقى والرقص، وفجأة تنبعت فرأيت أن جميع الرجال ومعهم جميع رفيقاتهم بدأوا يتحركون على مقاعدهم يشاركون الموسيقى إيقاعها الجميل ويشاركون الراقصة حركاتها المثيرة.

ومرة أخرى أشرت للخدم بتقديم المزيد من الشراب والطعام، وهنا أزاحت الراقصة الغلالات الرقيقة التي تستر بعضاً من أجزاء جسمها الحساسة، فلم يبق مستورا سوى.. سوى الجزء الذي يلتقي عنده الفخذان. وكان هذا الجزء الآن محط جميع الأنظار من كل جانب.

وحرصت على أن أمتنع عن الشراب، شريطة أن لا يشعر أحد بذلك، ومن هنا فقد كنت مضطرا إلى تناول بعض الشراب أمام أصدقائي، ولكن الكمية القليلة التي شربتها بدأت تدير رأسي. وتساءلت في نفسي، إذا كانت الكمية القليلة التي شربتها قد فعلت بي ما فعلت فما بال ضيوفي الذين تناولوا أضعاف أضعاف ما تناولته أنا من الشراب؟

واقترب من صديقي محمود وقال ونظره مشدود إلى الراقصة، هل ستقضي ليلتها معك يا أرام؟ قلت نعم.

قال.. ألا تريد أن تبادلني؟ وأشار إلى فتاة تجلس معه تدعى (سميرة) فحركت إصبعي نفيا ثم قلت الكشافة يسرون في المقدمة دائما، فقال: ولكنك مستجد أمامك أيها الكشاف آثارا كبيرة، آثار كتائب كاملة. وتوقفت الموسيقى وخرجت الراقصة سهير زكي إلى غرفة الملابس في طرف القاعة.

ثم يشرح الكاتب في تلك اللحظات الظروف العسكرية التي كانت تحيط بالبلاد آنذاك قائلا:

إن جو النصر تسبب في فقداننا زمام أنفسنا وآدابنا.

فالقاهرة التي عدت إليها في مطلع هذا الشهر، لم أجدها تلك المدينة التي تركتها قبل ثلاثة أيام فإن ألد أعداء الرئيس، وأكثرهم عنادا وهو الملك حسين حضر إلى القاهرة، وتبادل القبلات مع رئيس الجمهورية أمام الناس ووقع معه اتفاقا عسكريا وضع بموجبه الجيش الأردني تحت قيادة مصرية، وكان هذا دليلا قاطعا على صحة جميع الخطوات التي اتخذها الرئيس، فمن أطراف المغرب، وحتى الصحراء العربية كان اسم الرئيس (جمال عبد الناصر) يردد على كل شفة ولسان.

خصومه، أعداءه، معارضوه، كلهم وضعوا أنفسهم تحت تصرفه، في خدمته سلموه جنودهم وطائراتهم وقواعدهم.

الجزائر البعيدة بدأت ترسل إلى مصر وحدات عسكرية وعدد من الطيارين، وقد شاركنا بعضهم حفلة الليلة الحمراء، ومن الكويت جاءت سرية جنود دليلا على رغبة أمراء البترول على الارتباط بركب المنتصر.

واسرائيل التي وجدت نفسها محاطة من كل جانب بالأعداء المتربصين، لم تتجراً على التحرك، وإنما اقترحت إبعاد القوات العسكرية وسحبها من مناطق الحدود، وإعادة قوات الأمم المتحدة إلى مراكزها.

ومن يوم لآخر. كانت تزداد كثافة القوات العسكرية المرابطة على حدود إسرائيل، العراق نقلت الطائرات المقاتلة والقاذفات إلى القواعد الجوية الأمامية وتسلم جنودها وسلاحها المصفح المواقع في الضفة الشرقية استعداداً لاجتيازها إلى الضفة الغربية وتطويق القدس لاخترق دولة الأعداء وشطرها إلى قسمين والتقدم نحو تل أبيب.

إلى اللقاء في تل أبيب، كان ينتهي كل حديث بين الاثنين في صلاح الجو المصري أو في الجيش، أو في اجتماعات الساسة، بل كان هذا هو الحال في جميع الدول العربية. إسرائيل لم تتجراً على القيام بأدنى حركة، والآن يستعد نائب الرئيس ورئيس حكومة الجمهورية العربية المتحدة زكريا محيي الدين للسفر إلى أمريكا لمقابلة الرئيس الأمريكي بغية الوصول إلى حل لقضية فلسطين، وكان كل إنسان يفهم، في الأوضاع الجديدة أن أي حل لقضية فلسطين سيكون هذه المرة على حساب العدو الصهيوني.

إن فصل جنوب النقب عن إسرائيل، هو الخطوة الأولى، وسيؤدي ذلك إلى عزل إسرائيل وقطع علاقاتها بمصادر البترول والدول الأفريقية وحرمانها من مينائها الذي تصدر منه بضاعتها إلى الشرق الأقصى، وبذلك تبدأ عملية خنق إسرائيل وتظل الجيوش العربية ترابط على الحدود، وإرغام إسرائيل عند ذلك على تجنيد قواتها الاحتياطية، فيشل اقتصادها وتنهار وتستسلم في أيدي العرب كثمرة ناضجة.

وفي آخر اتصال لاسلكي بيني وبين إسرائيل قبل موعد الحفلة الليلة أبلغت إسرائيل بأن عددا كبيرا من الطيارين المصريين سيأخذون الإجازات في يومي الأحد والاثنين، وأن قيادة الجيش المصري ستقوم صباح اليوم الاثنين بجولة في سيناء، وأبلغت أيضا إسرائيل بأن السفير الروسي في القاهرة طلب بشدة من الرئيس المصري عبد الناصر عدم مهاجمة إسرائيل ولهذا اقترحت عليهم في إسرائيل أن لا يضيعوا آخر فرصة لهم للهجوم على مصر في صباح يوم الاثنين الباكر، ولكن المخطط الرئيسية في تل أبيب طلبت مني الاتصال بها مرة أخرى بعد بضع ساعات.

ولهذا غادرت منزلي إلى نادي الطيارين في هليوبولس، وفي الطريق التقيت بغادة الراقصة المبتدئة، وكنت في هذا الوقت بحاجة إلى رفيق يسليني ويبعد عني الأفكار المضطربة حتى يتم تنفيذ الحفلة فتشن اسرائيل هجومها في الصباح الباكر.

وكانت قد مضت مدة طويلة لم أر فيها غادة فخري، منذ أن تركتها قبل أسبوع وسلمتها إلى بطل اليمن وسيناء اللواء (كامل مرتجي). وكان استقبال غادة لي حارا فرحبت بي وقالت إنها حزينة لغيابي وخاصة في هذه الفترة ومدينة القاهرة تحتفل بالنصر وهي لوحدها بدون رفيق. وطلبت مني أن آخذها إلى أي مكان تستطيع فيه أن تلتقي بالمنتصرين الأبطال الطيارين المصريين.

كنت أعرف أن غادة من عائلة فقيرة. وهي اليوم بعد أن أخذت تشق طريقها إلى الشهرة كانت لا تزال تلفظ بعض الكلمات الشعبية الساذجة التي تدل على أصلها الوضع مثلا كانت تسمي ضاحية هيلوبولس بمصر الجديدة وغير ذلك. ولكن كان هذا هو عيبها الوحيد فقط وفيما عدا ذلك فلها ميزات جميلة كثيرة. وكانت تعرف أنها من أجل أن تشق طريقها إلى الشهرة بحاجة إلى صديق ثري له تأثيره وكلمته، ولذلك فهي تحاول منذ لقاءها الأول أن تلتصق بي. لتستعين بثنائي ووجاهتي وتأثيري من أجل الوصول إلى الشهرة.

ولكني كنت أبعدها عني بلطف، فلا تلبث أن تعود إلي تعطيني نفسها في كل وقت. ومع ذلك فلم أكن مهتماً بها، وقلت لها أكثر من مرة بأنني لست الرجل الذي يستطيع مساعدتها، ورغم ذلك كانت تعود وترتمي في أحضاني من جديد.

تحركت أنا وغادة إلى نادي ضباط الجو في الشوارع التي ازدانت بحل العيد. وكانت صور الرئيس تطل من كل جانب ومعلقة على كل شبك وباب. وفي الشوارع كانت تسير مجموعات من المتظاهرين السكارى بنشوة الشعور بالنصر على إسرائيل، وكانت مكبرات الصوت المنتشرة في كل مكان تنقل صوت أحمد سعيد مدير إذاعة صوت العرب وهو يقول:

لقد وصلت المسيرة إلى تل أبيب إلى مرحلة التنفيذ. إنها فرصتنا أيها العرب لنزل ضربة مميتة مدمرة على اسرائيل لا حياة ولا أمل للعصابات الصهيونية.

واقتربت مني عادة وقالت: حينما يدخل جيشنا إلى تل أبيب أريد أن أكون أول فنانة تظهر أمام جنودنا هناك، فهل تستطيع أن تساعدني في ذلك يا أرام؟ وتصور بينما يكون الدخان لا يزال يتصاعد من المنازل المهدومة وجنودنا بلباسهم الحربي ويلتقون في قاعة كبرى بتل أبيب، لتظهر أمامهم الفنانة الشهيرة عادة فخري وهي ترقص لهم رقصة الانتصار.

أعترف بأن جو النصر الذي كانت تعيشه القاهرة في الرابع من يونيو ١٩٦٧ هو الذي مكّني من اقناع قائد سلاح الجو المصري صدقي محمود بإقامة حفلة النصر الكبرى لضباط سلاح الجو وتقرر أن تقام حفلة للطيارين من المنطقة الجوية الوسطى (القناة) والمنطقة الجوية الغربية الدلتا والنيل في نادي طيران قاعدة أنشاص. أما حفلة الطيارين من المنطقة الجوية الشرقية (سيناء) فتقام في قاعدة (بير كفكفا). وهنا جاءني فكرة عابرة، لماذا لا أساعد عادة فخري فعلا، فتظهر في إحدى الحفلات الساحرة أمام الضباط الطيارين؟

قلت لعادة: هل ترغبين في الظهور أمام طيارينا في سيناء؟

فغدا سنقيم حفلة للطيارين في بير كفكفا. وسيحضرها جميع الطيارين في تلك الجبهة فهل تحبين الظهور هناك؟ فقالت وعينيها تلمعان ببريق الشهرة. وهل ستكون أنت هناك؟ قلت (كلا) لأنني سأكون موجودا في مكان آخر ولكني سأسلمك مباشرة إلى اللواء عبد السلام دغيري قائد سلاحنا الجوي في سيناء وفرحت عادة، كانت هذه أكبر مناسبة لها، فإنها ستظهر أمام طياري الخط الأول، واسمها يتردد على كل لسان قالت أرام أرجو أن ترتب لي ذلك فورا وسأكون خادمك إلى الأبد.

لقد كانت عادة من أسرة فقيرة وضيعة، ولم تكن تفهم أنه لا شيء يدوم إلى الأبد، تحدثت مع اللواء عبد السلام دغيري بخصوص عادة، ثم أخذتها إلى منزله، وفي الطريق قلت لها كوني لطيفة مع اللواء دغيري يا حلوتي، فهو رجل كبير وله مستقبل في بلاده. قالت: أرجو أن يكون رجلا بالفعل أكثر من الجنرال الذي سلمتني إليه، ذلك الجنرال الذي قلت عنه أنه بطل اليمن كامل مرتجى.

قلت، وأنا أيضا آمل ذلك يا عروسة ولكنني لم أجربه، جربه أنت واخبريني بالحقيقة، وضحكنا.

كنت أحب عادة، ولكن كما يحب النجار منشاره، وكما يحب الفلاح محراثه، وكما يحب لاعب الشطرنج حجارة الشطرنج. وهكذا أصبحت عادة جزءا من مخططي الخاص، ولم يبق أمامي الآن سوى استلام موافقة المسؤولين في تل أبيب على تنفيذ الحفلة والبدء بها.

كنت أعرف أن سلم الأصوات الموسيقية العربية الذي يشتمل على (١٧) نغما، هو أغنى بكثير من سلم الأصوات الموسيقية عندنا، أقصد بلد اليهود، وكنت أعرف كذلك أن راقصات هز البطون يتحكمن في أعصابهن وعضلاتهن بشكل غريب. وكنت أعرف التقاليد العربية القديمة التي يرجع تاريخها إلى آلاف السنين وهي الانصراف إلى اللذات والشهوات عند من يقدر على ذلك.

ولكن ما شاهدته الليلة كان جديدا علي، فقد استمرت الحفلة منذ المساء على وتيرة واحدة، وحن منتصف الليل، حيث ينتهي اليوم ويبدأ يوم جديد، وفي ساعتى رأيت كيف يختفي الرقم - ٤ - ويحل محله الرقم - ٥، مشيرا إلى تاريخ اليوم الجديد، طوال الحفلة كنت أحرص على أن لا أزيد من الشراب ولكنني كنت مضطراً إلى مجارة الحضور واحتساء القليل، ومع ذلك فإن الشراب والضجة والصخب والموسيقى المجنونة والرقص المثير الذي كانت تؤديه سهير زكي كل ذلك تسبب لي بنوع من الغيوبة اللذيذة، وفقدان الحواس.

فاعتذرت من صديقي محمود وخرجت إلى غرفة الحمام ووضعت رأسي تحت حنفية الماء البارد حتى صحت قليلا وبدأت أفكر بما جرى.

هل صحيح أن الحفلة حقيقية، والكل سكارى فعلا أم أنني مخدوع بما أرى؟ هل صحيح أنني استطعت أن أخدع الجميع أم أنني أنا الذي خدعت من زكريا محيي الدين الذي كان يحذرنى منه أستاذي فيشل؟

هل يعلمون بحقيقة أمري فما أشعر إلا والباب يفتح لتدخل الشرطة السرية وتلقي القبض علي وبذلك تفشل الخطة ويستعد الطيارون المصريون لمواجهة الهجوم الإسرائيلي فيدمروا طائراتهم ويقضوا عليها قضاء مبرما؟

وعدت أقلب الأمور من جديد الإجازات التي أعطيت صباح اليوم إلى مئة طيار. التعليمات التي أصدرها صدقي محمود بإلغاء حالة الطوارئ منذ صباح يوم السبت، وتعليماته بشأن استراحة الطائرات في قواعدها ابتداء من فجر يوم الاثنين. أنا أنا الذي ضغطت على صدقي محمود وأقنعتة بإصدار تلك التعليمات ليتاح للطيارين الاشتراك بالحفلة.

فهل كل ما تقدم حقيقة أم أنه عملية خداع طويلة لاكتشاف أمري؟
وصحوت تماما وعرفت أن الحفلة، حفلة حقيقية، وأن الطيارين وقادتهم هم سكارى الآن، سكارى حقيقيين هم ورفيقاتهم الجالسات في أحضانهم وخرجت من غرفة الحمام إلى الصالة، ثم توجهت إلى المكتب الواقع في خلف الصالة وبه ضابط مصري برتبة ملازم ثاني وكان هذا يستمع إلى الحفلة دون أن يراها ولا يستطيع أن يشترك بها، وما أن رأيته أدخل عليه حتى قام وأدى لي تحية عسكرية وقال:
نعم يا أنوير بك، أية خدمة تريد؟

فقلت أريد أن أتصل فورا بقاعدة بير كفكفا؟
وأدار قرص التلفون، وتحدث مع آخر، ثم سلمني السماعة:
قلت: من يتكلم؟ قال - القاعدة الجوية ٢٢٩
الليلة. قلت: أريد أن أتحدث مع الست غادة فخري فهي ترقص عندكم
قال: لا أستطيع أن أناديها، فهي تؤدي وصلتها حاليا.
قلت: أريدها لأمر مستعجل.
قال: ولكنها ترقص الآن هل أستطيع أن أبلغها ما تريد.
قلت: لا، شكرا، ولكن متى ستنتهي من وصلتها؟

قال: لا أعرف، ولكن الحفلة ستستمر إلى وقت متأخر من الليل.
وسألته: لم أكن في الواقع أريد أكثر من ذلك. وضعت السماعة وشكرت الضابط

متى تنتهي نوبتك؟

قال: والاستياء واضح في صوته بعد ساعتين.

قلت: أرجو أن تستمر الحفلة إلى أن تنتهي نوبتك لتنضم إليها.

قال: شكرا جزيلا يا أنوير بك.

سعيدة يا أنوير، قال لي صوت أعرفه.

قلت: سعيدة يا صالح، كيف حالك هاها أرى أنك ترفعت إلى رتبة مقدم وأين

أنت اليوم هل لا تزال في قاعدة الأقصر؟

قال مفاخرا وهو يشير بيده إلى نفسه:

آرام، أمامك يقف قائد مطار الغردقة، وتظاهرت بأني أؤدي له التحية العسكرية،

ثم استطرد وقال:

قام أبو العز بتحويل جميع الطائرات الحديثة موخوي إلى قاعدتي، وقد وصلت إلى

القاعدة أمس من فايد، وتخشى الآن وقوع هجوم جوي اسرائيلي من جنوب سيناء وعند

ذلك سنلتف عليهم من المؤخرة بطائرات سوخوي ٧ وميج ٢١ هل سمعت بالطائرات

الجديدة سوخوي؟

قلت: نعم، ويقول صدقي محمود بأنها تتفوق على أية طائرة لدى العدو.

قبل خمسة أيام حينما كنت في تل أبيب قلت لقائد سلاح الجو الاسرائيلي ويومها

قفز غاضبا من مكانه. واستطرد صالح يقول: لقد قام الفريق مصطفى الحناوي بموافقة

رئيس هيئة الأركان محمود فوزي بنقل سرب من طائرات اليوشن ٢٨ من قاعدة أبو

صوير إلى قاعدة الأقصر. وبذلك أصبحت هناك غالبية الطائرات القاذفة - ٢٠ -

طائرة اليوشن ٢٨ و - ١٦ - طوبوليف وجميعها خارج مدى طائرات العدو. ولهذا نقل

أبو العز طائرات سوخوي من الأقصر إلى قاعدتي في الغردقة.

كنت أبدو كالمستمع الأديب لما يقوله صالح، وفي الوقت نفسه كان فكري

مشغول بقضيتين أخريين، قسم من فكري كان يصور الحقائق، والقسم الآخر توصل إلى

نتيجة حاسمة حول وجود خلافات كبيرة في قيادة سلاح الجو المصري، وبالتالي فإن أيام

صدقي محمود كقائد لسلاح الجو أصبحت قرية من نهايتها.

وهنا سمعت ضجة كبيرة تدوي في الصالة ورأيت الناس يتجمعون في مكان معين ثم يرددون إلى الخلف، وسكت صالح ونظر إلى مكان الضجة وكذلك فعلت أنا وأحسست بأن الشرطة السرية دخلت لتلقي بالقبض علي فرحت أتلمس السن المستعار في فمي لأستخرج منه حبة السم وأبتلعها [كان الجاسوس يحتفظ بسن صناعي بين مجموعة أسنانه فيه مادة سامة تساعد على الانتحار السريع عند اللزوم]، ولكني عدلت عن ذلك في آخر لحظة حينما رأيت الناس يتراجعون ومن بينهم رأيت مجموعة من أفراد الشرطة العسكرية التابعة لسلاح الجو المصري وتقدم مني قائد المجموعة وطلب مني بلطف أن أرافقه.

كان قائد مجموعة أفراد الشرطة العسكرية التابعة لسلاح الجو المصري برتبة رئيس قصير القامة ذو وجه ممتلئ وجدي ونظر إلي وإلى صالح ثم أدى التحية العسكرية بدقة وقال: أرجوا المعذرة أيها السيد. إن لدي أمراً بإحضارك.

الدم في وجهي تجمد تماماً. أحد الدروس التي تعلمتها من فيشل [فيشل اسم الضابط الذي أشرف على تدريب الجاسوس في تل أبيب] يقول إذا لم يكن لديك شيئاً مفيداً تقوله، فلا تقل شيئاً، ولا تخف فإن سبل النجاة كثيرة.

ورأيت المقدم صالح عبد النبي قائد قاعدة الغردقة يتقدم خطوة إلى الأمام والقرب مني وقال.. أسف جداً، رافقتك السلامة يا أنوير بك...

لم أرد عليه أكثر من عشر سنوات أمضيتها في هذا البلد، بدون أن يكتشفوا أمري، وفجأة، حينما حانت الساعة الوحيدة التي احتاجتني بلادي فيها، يصيبني الفشل؟ ولم أحاول أن أعرف الخطأ الذي وقعت فيه وأدى إلى فشلي.

وتركز فكري كله في نقطة واحدة، هل أبتلع الآن حبة السم الموجودة في داخل السن المستعار بفمي أم أنتظر حتى نغادر الصالة إلى الخارج؟

انقسم أفراد الشرطة العسكرية إلى قسمين، وبدأت أمير بينهم، ولكن صالح عبد النبي تقدمني، وقف بينهم منتصباً ثائراً ومعتزاً في وقت واحد ورأيت قائد السلاح يشق طريقه بين الجماهير المتراصة داخل الصالة. نظرت إليه وأنا خائف، كان يبدو عليه أنه

يكاد يخنق من الغضب. كانت شفتيه تتمتان بدون أن يستطيع أن ينطق شيئا. وأخيرا سيطر على نفسه وصاح في ضابط الشرطة العسكرية قائلا:

تحيا يا رئيس حينما يقف أمامك قائدك الأعلى.

ودق الضابط الأرض بقدميه ثم أدى التحية العسكرية، فرد عليها صدقي محمود بدون اهتمام، ثم قال للضابط: ماذا حدث ماذا في الأمر يا رئيس؟ وتطوع صالح عبد النبي ليرد فقال: لا بد أنهم مرسلون من قبل العقيد مذكور أبو العز، وأشار ضابط الشرطة العسكرية برأسه علامة الإيجاب، وواصل صالح عبد النبي قائلا:

لقد منعنا العقيد أبو العز من الاشتراك في الحفلة ولكننا نقذنا أوامرك وحضرنا إلى الحفلة، ولكن أبو العز أرسل الآن الشرطة العسكرية لتخرجني من الحفلة.

فقال صدقي محمود لضابط الشرطة العسكرية:

أنصرف من هنا يا رئيس مع رجالك أخرج حالا قبل أن أطلب محاكمتك عسكرياً، وأدى الضابط التحية وجمع رجاله وتوجه إلى الباب.

وبرغم الموقف المرعب الذي تعرض له فإنه واصل مهمته في إفساد الذوق العام لدى الضباط الطيارين الذين كانت آمال مئة مليون عربي معلقة عليهم حيث تابع يقول: لم أكن أرغب في أن تنتهي الحفلة، فكل دقيقة تستمر فيها لها قيمة كبرى بالنسبة لمخططي ولذلك لوحت بيدي إلى الخدم وأمرتهم بتقديم الشمبانيا للجميع.

وأسرع الخدم إلى الثلاجة الكبيرة حيث زجاجات الشراب التي كنت قد أعددتها أنا على حسابي الخاص بعد أن تنتهي الزجاجات التي قدمتها لحفلة قيادة سلاح الجو.

أدى صالح عبد النبي التحية لصدقي محمود وشكره على موقفه ثم انصرف إلى منتصف الصالة، وتقدم مني صدقي محمود مسرورا بالشمبانيا التي قدمتها للحفلة على حسابي ثم قال:

بعد انتهاء الحفلة سنتوجه إلى منزلك يا أرام، أنا وأنت ومعنا سهير زكي وسميرة لنمضي بقية الليل معهما ونفرح قلبيهما. قلت: تفرح قلبيهما فقط؟

ولكنني بيني وبين نفسي كنت عازما على أن تستمر الحفلة حتى الفجر وسأفعل كل شيء من أجل استمرار الحفلة حتى الصباح. إن في الصالة الآن ٤٠٠٠ - طيار

مصري وهم الغالبية العظمى من طياري بلاد النيل. وهم الآن بدون وعي تقريبا، وحينما يغادرون هذا النادي مع الفجر لن يستطيعوا أن يميزوا بين ساعة اليد وبين ساعة قياس الارتفاع في طائرات الميج ٢١.

تقدمت نحو المنصة المرتفعة الواقعة في منتصف الصالة وقلت موجها كلامي للراقصة سهير.. فرجينا على بعض مفاتنك، إن الجو كتيب حينما لا ترقصين.. وقفزت الراقصة إلى المنصة تؤدي رقصاتها بمنتهى الإثارة، وشعرت أن أفكاري قد هدأت تماما وصحوت من تأثير الشراب، واستمر الرقص في الصالة حتى حوالي الساعة الثالثة صباحا حيث انسلت الراقصة إلى غرفة الملابس وهي متعبة للغاية، وتحركت الفرقة الموسيقية في إثرها للانصراف ولكنني أوقفتهما قائلاً:

أبقوا في أماكنكم من فضلكم، فلا زلنا بحاجة لكم.
الجنس حتى الثمالة:

نظر إلى أفراد الفرقة الموسيقية باستغراب ثم جلسوا على مقاعدهم وأمرت الخدم بأن يقدموا لهم الطعام والشراب وصعدت إلى المنصة وقلت عبر مكبر الصوت، والآن سنلعب اللعبة التي لم تتح لنا فرصة تحقيقها في عالم الواقع وتطلعت جميع الأنظار إلي بينما واصلت أقول: سنقوم الآن برئاسة قائد سلاح الجو بمناورة شاملة لإبادة سلاح الجو الاسرائيلي.

وصفق البعض.. ولكن الأكثرية ظلت تنظر إلي فقد استطعت أن أثير فضولهم وقلت: يجب على واحد منكم أن يتقدم إلى مفتاح النور الكهربائي الرئيسي في الصالة عبد النبي يقف عند الباب يودع بعضا من رفاقه لينصرف إلى قاعدته ترى هل سيحجبه مذكور أبو العز على أن يكون جاهزا في حالة استعداد للطوارئ؟

وكنت أتمنى ذلك لأنني كنت أعرف أنه سينام هو ورفاقه داخل الطائرات ورأيت أن واحدا من الحضور قد عثر على المفتاح الرئيسي للنور فقلت: والآن نبدأ بالمناورة، على جميع النساء أن يتجمعن في الزاوية اليمنى، والطيارين في الزاوية اليسرى. انقسم الحضور إلى مجموعتين، كل مجموعة وقفت في زاويتها والجميع ينظرون إلي فقلت ان الرمز

السري لهذه المناورة الكبرى هو دمروا ميراغ وأشرت إلى مجموعة النساء قائلا: أنتن الميراغ والطيارون هم الميخ.

وحينما أرفع يدي تنطفئ الأنوار في الصالة ويبدأ الهجوم والفرقة الموسيقية تبدأ العزف، وعلى قسم الميخ أن يبحث في الظلام عن قسم الميراغ ويتحكم به جيدا عند ذلك يكون انتصار الميخ على الميراغ.

وأصدرت الأمر بإطفاء النور، وصدحت الموسيقى صاخبة، وتحملت في ذهني أن كل طيار الآن قد وجد ضالته وما يشتهي، فقد بدأ الطيارون يبحثون عن الفتيات في الظلام فيصطدمون بعضهم البعض ويواصلون البحث.

وكانت الصرخات الشهوانية تصدر عن الفتيات، ولكنهن توقفن عن الصراخ بعد أن أدركن أن الصراخ سيدل الطيارين عليهن. ومع ذلك فقد عثر الطيارون على الفتيات، ولكن أحدا لم يكن يعرف من هي حصته في الظلام، وفهمت من الأصوات المنتشرة في الصالة أن قسم الميخ استطاع أن يتحكم بقسم الميراغ لأن قسم الميراغ نفسه كان يريد أن يتحكم قسم الميخ به.

وبعد فترة من الوقت قلت عبر مكبر الصوت بقيت دقيقتان للمناورة. وفجأة تقدم مني واحد يقول: يجب أن تنتهي يا أنوير بك، فقد وصل مبعوث من الجنرال هلال، وقال إن رئيس هيئة الأركان محمود فوزي سيرسل مجموعة من الشرطة العسكرية لتفريق الحفلة.

وفي الساعة الخامسة صباحاً كنت أنا الآخر في غاية التعب وصدقي محمود مستلقي على أريكة كبيرة في منزلي يحتضن بين ذراعيه سميرة، وصعدت أنا والراقصة سهير زكي إلى الطابق الثاني في المنزل لنقضي شؤوننا.

وسألني سهير، وهي ترقد بجانبني: هل تنتظر شيئا؟

قلت: كلا.. ولكنني متعب جدا ولا أستطيع أن أنام. والواقع أنني لم أحاول أن أنام، بل أنني كنت أحارب النعاس الذي يدهمني من حين لآخر. كنت اتساءل متى سيقوم صلاح الجو الاسرائيلي بهجومه على القواعد الجوية المصرية؟

ورأيت نور الصباح يغمر النافذة. وكانت الساعة الخامسة وخمسين دقيقة، وبعد ساعة وربع يجب على صدقي أن ينهض ويذهب إلى عمله.

تقلبت بعصبية في فراشي، ووقعت يدي على جسم غريب فرفعت رأسي مذهولا فوجدت إلى جانبي في الفراش عارية، حتى بدون المثلث الصغير الذي يستر ما بين فخذيها، راقصة بلاد الفراغة من الدرجة الأولى.

فتحت سهر زكي عينيها فجأة، ونظرت إلي ورفعت جسمها قليلا، وجذبت الغطاء عليها لتغطي عريها. انها الآن في غاية الاعياء من مجهود ليلة أمس، كما انها مستاءة لأنها فشلت في عملها في فراشي.. ولكنها لا تزال الراقصة الأولى في مصر وكل رجل هناك يراها في خياله.

ألفت بالغطاء ونظرت إلي غير واثقة...

إنني أخاف منك يا أنوير بك، فلماذا تنظر إلي بهذا الشكل؟

هزرت رأسي صحيح، فأنا منذ دقائق وأنا أسلط عليها نظرة ثابتة ذات معنى، وقالت لي ارجو أن تطلب لي سيارة أجرة من فضلك أريد أن أنصرف من هنا، وحركت رأسي موافقا وجذبت التلفون إلي وطلبت سيارة أجرة إلى المنزل، ثم تطلعت نحو سهر زكي. ورأيته تترك الغطاء ينحسر عن جسدها، ومظهرها يدل على أنها تتوقع مني أن أصفعها على وجهها.

ولكني قلت لها ارتدي ثيابك ثم خرجت إلى غرفة الحمام.

قمت حممت، وحلقت ذقني وشاربي، وانتقيت أفخر بدلة في ملابسي مع قميص حريري، وقلت في نفسي، حينما يهرعون إلى منزلي سيجدونني بهذا اللباس. ثم رافقت سهر إلى الباب الخارجي. وبعد أن تركتها عدت إلى غرفة الضيوف حيث يرقد صدقي محمود منذ أن عاد من الحفلة الليلة ومعه سميرة.

وازحت ستائر النوافذ فتسلل ضوء الصباح إلى الداخل وغمر وجهيهما وراحت سميرة احدى فتيات منشية البكري تفتح عينيها ثم غطت نفسها في السرير حتى ذقنها، وفجأة سمعتها تصرخ بصوت عال، ورأيت أن صدقي محمود قد جذب عنها الغطاء بقوة وقال:

ماذا بقي لك لتخفيه عنا؟

ولكن سميرة تقلصت على نفسها، فقلت:

إنها صادقة، فلديها من فضل الله ما تخفيه عنا، وأردفت: سأحضر القهوة يا سيدي وسيدي وستكون المائدة جاهزة بعد خمس دقائق.

أنهى صديقي محمود تناول القهوة، وقام وأكمل ارتداء لباسه العسكري ثم سوى من ربطة عنقه، وعاد مرة أخرى مارشال الجو في مصر.

وقال بسرعة يجب أن أسرع فالطائرة ستغادر في الساعة الثامنة والرابع مطار القاهرة غرب ونظر إلى ساعته، ساعة الطيار السوداء الكبيرة الحجم. كذلك فعلت أنا، وكانت الساعة حوالي السابعة والنصف. وتذكرت أن تل أبيت ستكون تنتظر مخابرة لاسلكية مني صباح اليوم حتى الساعة السابعة صباحا بتوقيتها المحلي أي الثامنة بتوقيت القاهرة.

الآن. فإذا كانت إسرائيل تعتزم الهجوم اليوم فإن طائراتها لابد وأن تتحرك

جلس صديقي محمود أمام مقود سيارته الفارهة، وعلى وجهه امتعاض زاد في تجاعيده وقال لي:

هل تحب أن تأتي معنا للقيام بجولة في سيناء اليوم ولكنني حركت رأسي نفيا وقلت: كلا، ولكن أبلغني حينما تعود في المساء لأعد لك مفاجأة تعجبك، ورد علي باسمي ولكنني رأيت أن ابتسامته مفتعلة. فقد كان عصيبا هذا الصباح.

كذلك غادرت سميرة المنزل ورافقتها حتى الباب الخارجي ويدي على كتفها وقلت لها: خذي حماما ساخنا، ثم نامي وفي المساء سيعود إليك نشاطك.

وعدت إلى داخل المنزل وأغلقت الباب ثم أعددت رموز المخابرات اللاسلكية وكانت متضمنة لكل ما يلزم، حتى أدخلت فيها علامات الوقوف والاستفهام والإشارة التي كنت في المدة الأخيرة لا أعتمدها في مخابراتي اللاسلكية لئلا يطول وقتها.

ولكن اليوم يجب أن لا يكون هناك أي احتمال في أن يخطئوا أن يستعصي عليهم جزءا منها، فهذا هو يومي الأخير، ومخابرتي اللاسلكية الأخيرة. فتحت جهاز اللاسلكي

وناديت: من روما. إلى المسؤول

وجاءني الجواب - من المسؤول إلى روما، أسمعك.

وبدأت بإرسال المخابرات التالية:

نجحت الحفلة نجاحاً كاملاً (٠) يتوجه عامر وصدقي محمود بالطائرة إلى بير لمادة في الساعة ٠٨,١٥ من مطار القاهرة غرب (٠) يقابلاً هناك جميع قيادة سيناء (١) الأثنان فقط مخولان باستخدام صواريخ من الأرض إلى الجو (٠) نقلت إلى مطار الأقصر ثماني طائرات طوبوليف وعشر طائرات اليوشن وأصبح في الأقصر الآن ١٦ طائرة طوبوليف وعشرين طائرة اليوشن (٠) نقلت طائرات سوخوي من الأقصر إلى الغردقة، ونقلت طائرات ميج ٢١ من الأقصر إلى أسوان (٠) ألغيت حالة الطوارئ والاستعداد في سلاح الجو المصري وحالفكم النجاح (١) انتهى.

وبعد قليل سمعت صوت الجهاز يرسل لي مخابرة فأسرعت لأتلقى ما يلي: أتلّف كل شيء فوراً وانصرف.

وفي الساعة الثامنة و١٢ دقيقة رفعت سماعة التلفون واتصلت بمطار القاهرة الدولي وقلت لعاملة القسم أعطني الخطوط الجوية التركية يا حلوتي... وقالت عاملة المقسم - صباح الخير يا أنوير بك أنا نجا، كيف حالك؟ قلت - أشكرك يا عروسة، أعطيني الخطوط الجوية التركية.

وجاءني صوت امرأة يقول: هنا الخطوط الجوية التركية، صباح الخير. قلت: يتكلم أنوير، متى ستطير أول طائرة عندهم؟ قالت بدون تردد في الساعة الثامنة و٤٣ دقيقة. رحلة إلى أنقرة رأساً هل تريد أن نحجز لك مكاناً يا أنوير بك؟ قلت: نعم يا حبيبتي احجزي لي مكاناً في الطائرة وسأصل في الوقت المناسب.

وفعلاً استطعت أن أصل في الوقت المناسب حيث القلع في الطائرة وما أن بلغت عنان السماء حتى كانت الطائرات الإسرائيلية تغير بدورها على المطارات المصرية.

فهني تعرف تماماً بأن كافة الطيارين المصريين لم يكونوا في تلك اللحظة قادرين على قيادة طائراتهم. حيث أثبت الجنس هذه المرة ليس قدرته على تغيير سياسة الدولة فقط بل قدرته أيضاً على تغيير مجرى الحروب الكبرى والفاصلة بتاريخ الشعوب. فهل

آن لنا أن نعتبر..؟ إذا كان الجواب لا. وهو ما أظنه فدعونا نتابع ما يجري على الساحة الدولية.

المشير عبد الحكيم عامر

ارتبط اسم المشير عبد الحكيم عامر، القائد العام للقوات المسلحة المصرية الأسبق والرجل الثاني في عهد جمال عبد الناصر، بالعديد من الروايات والشائعات المتعلقة بحياته الشخصية وعلاقاته بالفنانات، والتي وُصفت في الأدبيات السياسية والتاريخية بـ "النزوات" أو "زواج الفن بالسلطة"

أبرز هذه العلاقات والوقائع التي أثارت جدلاً واسعاً تشمل:

• الزواج من الفنانة برلنتي عبد الحميد، حيث يُعد زواجه العرفي منها عام ١٩٦٠ الحدث الأبرز في حياته الشخصية.. تم الزواج في شاليه بالهرم وأُحيط بالسرية في بدايته لتجنب الصدام مع الرئيس جمال عبد الناصر الذي لم يكن راضياً عن هذه العلاقة. اعتزلت برلنتي الفن بعد الزواج وأنجبت منه ابنتهما "عمرو"، وظلت تدافع عن المشير حتى وفاتها.

• شائعات العلاقة مع الفنانة وردة الجزائرية فلقد طاردت المشير عامر شائعات قوية حول علاقة عاطفية بالفنانة وردة الجزائرية في مطلع الستينيات. ورغم عدم وجود دليل رسمي يثبت زواجهما، إلا أن التقارير الأمنية والمخابراتية آنذاك اعتبرت هذا التقارب خطراً على الأمن القومي، مما أدى في النهاية إلى صدور قرار رسمي بترحيل وردة من مصر ومنعها من دخول البلاد لسنوات.

• أجواء مكاتب القيادة (شلة المشير) والتي أشارت مذكرات العديد من قادة ثورة يوليو والسياسيين (مثل صلاح نصر وحسين الشافعي) إلى أن الدائرة المقربة من المشير عامر، وخاصة مدير مكتبه العقيد علي شفيق (الذي تزوج لاحقاً من الفنانة مها صبري)، ساهمت في إدخال المشير إلى مجتمعات السهر والفن. هذا الانشغال أخذ طابعاً

سلبياً في التحليلات التاريخية، حيث اعتبره المؤرخون أحد أسباب الترهل الإداري وتشتت القيادة العسكرية قبل هزيمة ١٩٦٧

يُذكر أن عامر كان متزوجاً في الأساس من ابنة عمه زينب عبد الوهاب، وله منها ٧ أبناء، وظلت هي وأولادها يمثلون الجانب الأسري الرسمي والمستقر في حياته بعيداً عن صخب السياسة والفن .

برلنتي عبد الحميد

ما كانت مجرد نجمة، بل كانت المرأة اللي دخلت التاريخ من بابه الأوسع... باب السياسة

بنت السيدة زينب "نفيسة عبد الحميد حواس" التي قفزت من دبلوم التطريز لمسرح زكي طليمات ومن أول ظهور لها في «الصعلوك» استطاعت أن تكون منافسة قوية لملكات الإغراء في زمن كانت فيه السينما عامرة بنجوم كبار.

لكن هذه الشهرة كانت مجرد مقدمة... القلب الحقيقي للحكاية بدأ سنة ١٩٦٠ يومها... وفي شاليه صغير على طريق الهرم وقع أكبر عقد زواج سري في مصر: برلنتي عبد الحميد والمشير عبد الحكيم عامر.

وثيقة عرفية مع حضور محدود، وزغرودة واحدة أعلنت زواج الفنانة الأصغر من أقوى رجل بعد جمال عبد الناصر.

المشير اعترف لعبد الناصر بنفسه وقال جملته الشهيرة: "ما اتجوزتهاش عشان جمالها... دي أغنتني عن صداقة ألف راجل".

ومن أول لحظة... بدأ زواج الفن بالسياسة.

برلنتي اعتزلت الفن وهي تحت الثلاثين، واختفت تمامًا عن الأضواء، وأنجبت ابنها الوحيد "عمرو" لكن سر الزواج كان أكبر من قدرتهم على إخفائه والرياح السياسية بعد نكسة ٦٧ قلبت كل شيء فقليل إن المشير كان عندها ساعة الضربة... هي نفت، واتهمت عبد الناصر أنه دخل حرب والجيش غير جاهز.

وبعد إبعاد عامر عن مواقعه واعتقاله انتهت القصة بوفاته في ظروف غامضة، وبعد رحيله... كتبت مذكراتها "المشير وأنا" و"الطريق إلى قدرتي إلى عامر"؛ كتبت فيها أسرار العلاقة التي غيرت حياتها... وقدرها.

رحلت برلنتي في ١ ديسمبر ٢٠١٠ بجلطة في المخ عن عمر ٧٥ سنة. لكن قصتها حتى اليوم ليست مجرد حكاية لفنانة، بل حكاية امرأة دخلت السياسة من باب الحب، وخرجت منها بثمان غالي.

لم يكن الجدل حول رحيل المشير عبد الحكيم عامر، -منتحرًا كما أعلن رسميًا، أو مسمومًا كما قال أبنائه-، اللغز الوحيد حول حياة النائب الأول لرئيس الجمهورية والقائد العام للقوات المسلحة في عهد الزعيم جمال عبد الناصر.

فقد لعبت الإشاعات التي ربطت بين أكثر من فنانة و"عامر"، دورًا بارزًا في مسيرة ثاني أقوى رجل في مصر بالستينيات.

ويتصدّر اسم الفنانة وردة قائمة الفنانات اللاتي ترددت أقاويل عديدة حول وجود علاقة غرامية تجمعها بالمشير، قبل أن يكشف محمد متولي، أحد العاملين في سكرتارية عامر، في تصريحات صحفية، أن علاقتهما لم تتعدّ لقاءين عابرين.

وأوضح أن الأول جاء بالصدفة عندما أوقف عامر سيارته في أحد طرق دمشق، وطلب من مرافقيه مساعدة سيدة كانت تقف بجوار سيارتها التي تعطلت، وتوصيلها إلى حيث تريد في دمشق، مضيفًا: لم تكن على علم بهوية تلك المرأة، وبعدما وصلناها عرفت بنفسها ووسطتنا لتحديد موعد لها مع "عامر" لتقديم الشكر له.

تم اللقاء في وضح النهار باستراحة المشير في "أبو رمانة" بدمشق، وفي وجود محمد أنور السادات واللواء أحمد علوي، وعبد الحميد السراج، المسؤول الأول عن الأجهزة الأمنية في سوريا.

إلا أن وردة استغلت اللقاء العابر، وبدأت توهم المحيطين بها أنها على علاقة بالمشير، وتقوم بالاتصال به هاتفياً، واستخدمت أسلوب الترغيب والترهيب، حتى يتقرب منها أهل الفن، فرما يتعرفون علي المشير وينالون رضاه من خلالها.

وواصل متولي شهادته قائلاً: "وصلت هذه الإشاعات للمشير عبد الحكيم عامر، فكلف صديقه صلاح نصر، رئيس جهاز المخابرات العامة، بإجراء تحريات دقيقة للتوصل لمصدرها، وفور تأكده من أن الفنانة وردة الجزائرية تقف وراءها، كان القرار السريع والمفاجئ بإبعادها عن مصر، بعد أن بدأ نجمها يلمع، ولم تعد إليها إلا في مطلع السبعينيات خلال حكم الرئيس السادات.

وهناك رواية تقول إن الفنانة برلتي عبد الحميد، زوجة المشير السرية في هذا الوقت، لجأت للرئيس جمال عبد الناصر واشتكت له من شائعات علاقة جوزها بوردة. عبد الناصر، الذي كان يخاف جداً على سمعة رجاله وعلى هيبة الدولة، قرر فوراً حسم الموضوع، وأصدر قرار بترحيل وردة الجزائرية ومنعها من دخول مصر لحماية المشير من القيل والقال.

والكاتب محمد حسنين هيكل أكد هذه الرواية، وقال إن عبد الناصر كان خائف على عامر من "الكلام الكثير".

رواية ثانية من محمود الجيار، سكرتير جمال عبد الناصر، تحكي إن جهاز أمني معين كان يحاول يوقع بين ناصر وعامر عن طريق إشاعة العلاقة، وإن عبد الناصر رفض إبعاد وردة لما عامر طلب منه هذا، وقال له: "لو عملت كده ستتأكد الإشاعة!" أما وردة فقالت إن عبد الناصر لم يمنعها من دخول مصر، وإنها سافرت الجزائر وتزوجت هناك، وجوزها هو الذي منعها من الفن، وبعد الطلاق رجعت لمصر مرة أخرى.

الطريف إن المشاكل الحقيقية لوردة بدأت في عهد حسني مبارك، وليس عبد الناصر! ففي حفلة وطنية قالت له وردة بهزار: "تعال غني معايا!"، ومبارك ضحك، لكن سوزان مبارك تضايقت، وبعدها الإعلام الرسمي بدأ يتجاهل وردة بشكل واضح، ولم يأتمن دعوات للمناسبات الرسمية.

ومن الإشاعات، انتقلت حياة عامر إلى ساحات القضاء، وتدخلت أجهزة عدة إلى جانب ورثته لوقف مشروع فيلم "المشير والرئيس"، الذي كان يعده السيناريست ممدوح الليثي، والمخرج خالد يوسف لتقديمه عام ٢٠١٠.

وفي عام ٢٠١٤، عقب خروج مسلسل "صديق العمر"، إلى النور، بعد تعديل سيناريو الفيلم الممنوع، وجسد الفنان باسم سمرة شخصية "عامر"، وأدى الفنان السوري جمال سليمان دور الرئيس جمال عبد الناصر، وتعرض العمل لهجمات شرسة، ووصل الأمر لاعتراف صنّاعه في بيان رسمي بوجود أخطاء تاريخية به.

غراميات صلاح نصر

يبقى غرام المشاهير، ونزواتهم أيضا كأنه سر من أسرار الدولة العليا، يغلفه المشاهير بالكتمان، سواء كانوا نجوم سياسة أو مال أو رياضة أو فن، وأحيانا ينفذونه لأنه رجس من أعمال الشيطان، لا يهمهم غير أن تظل الستائر الكثيفة تخفيه وتخبئه عن عيون الفضوليين، لكن بعضهم يخرج أحيانا عن صمته، ويستدعي المأذون، ويسمح للصحف بنشر الخبر وللصور.

وأعظم ما في فصوص غرام المشاهير أنها تخرج لتلامس شغف عيون الناس، وتبدأ معها المناقشات والتحليلات وكأنه يسترد لهم إنسانيتهم وضعفهم، ويجعل من الملوك رعايا، ومن الرعايا ملوكا، وأحيانا لا يهدد العرش والصولجان غير دقة قلب ينبض بها قلب الرجل الأول في الدولة أو المملكة.

وإن كانت مصر كما يزعمون أنها أرض النبوءات والمعجزات، لكن صلاح نصر أضاف، وأرض المخابرات أيضاً.

قالوا إن جبروته أخرس حوار المقاهي، وقهقهات التلاميذ وهم يعبرون الشوارع واشترى بالوعد والوعيد البنات والسيدات ورجال القلم، وجعل المبدعين في بلادنا يطفون على بحر من النميمة، وجعل البشر العاديين يرددون ما قاله نزار قباني:

يا ري... إن الأفق رمادي، وأنا أشتاق لقطرة نور.

تحدث هو عن رجال الأمن الذين اقتحموا بيته وقلبوه رأساً على عقب وفتشوا دولا بزوجته وابنته، وأخذوا يفحصون ملابسهما ووجدوا ٧٠ جنيتها أخذوها وتركوا البيت بلا نقود.

أصبحت فضيحتة على كل لسان، وتوالت الصحف والكتب التي تنهش سمعته، ومدت السينما يدها لتأخذ نصيبها من الفضيحة.. وقيل إن خالد صفوان رجل الأمن في فيلم «الكرنك» - المأخوذ عن قصة نجيب محفوظ - هو صلاح نصر.. ولعب الدور في الفيلم كمال الشناوي.

ولد صلاح نصر الذي ينتمي إلى قبيلة بني هلال في ٨ أكتوبر ١٩٢٠ في قرية سنتماي دقهلية «٨٠ كيلو مترا شمال القاهرة»، وكان والده أول من حصل من قريتهم على تعليم عال، وكان صلاح أكبر إخوته لذا كان مميزا كابن بكر بالنسبة لأبيه وأمه، وتلقى تعليمه الابتدائي في مدرسة طنطا الابتدائية، والثانوي في عدة مدارس نظرا لتنقل أبيه من بلدة لأخرى، فقد درس في مدارس طنطا الثانوية وقنا الثانوية وبمبا قادن الثانوية بالقاهرة ونشأ في طبقته الوسطى.. كانت أول هدية حصل عليها من أبيه كاميرا تصوير ماركة نورتون ثمنها ١٢ قرشا.

التحق بالكلية الحربية في دفعة أكتوبر سنة ١٩٣٦، ولم يكن والده مرحبا بدخوله الكلية الحربية ومرت في هذا الوقت أحداث كثيرة عاصرها وتأثر بها ومنها الحرب العالمية الثانية والوزارة الائتلافية ووزارة حسين سري وحادث ٤ فبراير ١٩٤٢ والأحكام العرفية وانقسام الوفد وكتابة مكرم عبيد للكتاب الأسود ضد النحاس وإقالة النحاس واغتيال أحمد ماهر.

وفي ١٣ مايو ١٩٥٧ عينه الرئيس جمال عبد الناصر رئيسا للمخابرات العامة المصرية وعين على صبري وزيراً للدولة وزكريا محيي الدين وزيراً للداخلية وهكذا بدأ صعود صلاح نصر.

وفي عام ١٩٦٣ تقرر تشغيل الفتيات في المخابرات اتخذ صلاح نصر هذا القرار بعد أن وجد كل أجهزة المخابرات في العالم تستخدمهن في عملها.... فالمعروف نفسيا أن الرجل يفقد توازنه وهو مع المرأة، بل وقد ينسى نفسه ويتفوه بأحاديث سرية.. كان هذا المبرر غير الأخلاقي في استعمال سلاح الأنوثة في مصر!

وقد اعترف صلاح نصر بأنهم استعملوا ١٠٠ فتاة وأنهم كانوا يلجؤون لتصويرهن من باب السيطرة وخوفا من تقلب عواطفهن..... كذلك اعترف بأن بعض الفنانات كان لهن دور.

ويعترف ابن صلاح نصر بأنه كان هناك قسم في جهاز المخابرات يسمى قسم السيطرة، يستخدم سيدات متطوعات للإيقاع بالجواسيس مثل أي جهاز مخابرات في العالم، وكانت هؤلاء النساء يأتين برغبتهن.

صلاح نصر تولى جهاز المخابرات العام ١٩٥٧. وتمت الاستعانة لأول مرة بالعنصر النسائي في جهاز المخابرات عام ١٩٦٢.. إذن هناك سنوات خمس من عقد وتأسيس صلاح نصر لجهاز المخابرات العامة بشكل متطور.

ولعل إحدى المقولات المهمة لصلاح نصر: إن مشكلتي الحقيقية أنني أنشأت جهازا متطورا جدا وعلى أرقى أسلوب في دولة من دول العالم الثالث... وتمت الاستعانة بالنساء لأنه كان هناك طلب من الرئيس عبد الناصر بتكثيف العمل الداخلي إلى جانب الأعمال والمهام الخارجية في جهاز المخابرات لأن هذه الفترة أعقبت الانفصال المصري - السوري.

وكان الرئيس عبد الناصر يحس بالخطر ويحس بأن هناك انقلابات عسكرية وشيكة، وتم بالفعل اكتشاف بعض الخلايا النشطة داخل القوات المسلحة، وكان هناك تحرك من الإداعات الخارجية ضد الرئيس عبد الناصر وبعض الدول والأنظمة العربية التي كانت تدبر مؤامرات وتدعي صداقة مع الرئيس عبد الناصر.. إنها أخلاقيات الانحطاط التي تقضي بأن الغاية تبرر الوسيلة

وهذا ما قاله يا سادة صلاح نصر في حوار مع الكاتب الراحل عبد الله إمام. ثم استطرد: «كان هذا من بين أسباب إحجامنا عن استخدام النساء في بادئ الأمر، ولكن ظروف الأمن أجبرتنا على ذلك»!!!.

وأضاف: «إن بعض الزوار الذين كانوا يحضرون لمباحثات سياسية سرية على مستوى القمة يتصلون بنساء.. وفي اليوم التالي كانت أجهزتنا تأتي بكل أسرار المحادثات من أفواه هؤلاء النسوة اللواتي يرددنها في كل مكان... ففكرنا أن يكون لدينا طاقم

مدرّب يمكن السيطرة عليه لا يفشي الأسرار.. هؤلاء اللواتي عملن معنا حصلن على تدريب أمّني وفرق توعية، نجحنا بواسطتهن في عدم نشر الأسرار السياسية... كان هذا أساساً هو المنطق الذي جعلنا نستخدم أسلوب النساء لكنه تطور بعد ذلك... فكرنا في استخدامه في بعض قضايا التجسس... ونجحت بعض النساء العميلات لنا في الكشف عن قضايا تخابر لم يكن في استطاعة الرجال أن يصلوا إليها.

ولقد برز اسم «اعتماد خورشيد» فجأة في حقبة الستينيات، عندما أصبحت أحد شهود الإثبات في القضية المشهورة باسم «قضية انحراف المخبرات»، عام ١٩٦٨. كان ذلك في أعقاب الهزيمة في ١٩٦٧، وكانت القضية التي وجهت فيها الاتهامات إلى صلاح نصر، مؤسس جهاز الاستخبارات العامة المصرية الفعلي ورئيسه منذ عام ١٩٥٧، لإخضاعه عدداً كبيراً من الفنانات المصريات واستغلالهن جنسياً في عمليات التخابر لصالح مصر ضد دول مختلفة.

كانت القضية حدثاً جليلاً هز المجتمع المصري الذي كان حينها لا يزال يتخبط في صدمة هزيمة حزيران/ يونيو ١٩٦٧.

سلّط دور اعتماد خورشيد في هذه القضية عليها أضواءً استثنائية، حرصت هي لاحقاً على إبقائها ساطعة لأطول وقت ممكن. واستثمرت خورشيد هذه الأضواء بنشر مذكراتها حول علاقتها بصلاح نصر، في المرة الأولى في السبعينات من خلال مجلة السياسة الكويتية، التي كان يرأس تحريرها حينها الصحفي الكويتي أحمد الجار الله.

ثم مرة أخرى -مع مزيد من التفاصيل- في كتاب شهير صدر في نهاية الثمانينات بعنوان «شاهدة على انحرافات صلاح نصر»، هو أحد أكثر الكتب إثارة للجدل في تاريخ مصر الحديث، صدر للمرة الأولى عام ١٩٨٨ ولا زال حتى يومنا هذا كأحد الكتب الأكثر شعبية في مصر على أرصفة «وسط البلد» وحقق نجاحاً هائلاً وطُبع ٦ مرات في غضون ٣ أشهر فقط، قبل أن يتم منعه وسحبه من الأسواق بحكم قضائي

وحول تفاصيل اللقاء الأول بينها وبين نصر قالت اعتماد خورشيد: "اتصل بي بصفته منتجاً سينمائياً يدعى سمير ويريد شراء معمل مني، فذهبت إلى إحدى الفيلات

لمقابلته، وكانت الصدمة أنني وجدته عارياً على السرير! وحاول الاعتداء جنسياً عليّ، فقاومت وصرخت، فما كان منه إلا أن أدخلني غرفة بها جثث لتهديدي وتخوفي. وأضافت "كانت الغرفة تضم حوضاً كبيراً مليئاً بالجثث المحللة بفعل الأحماض، فضلاً عن جثث معلقة في السقف، وهو مشهد لن أستطيع نسيانه طوال حياتي، وصاح في وجهي أنه من يتحكم في الرئيس جمال عبد الناصر، وهو السبب في بقائه حياً، فأغمرني عليّ من شدة الصدمة مشيرة إلى أنه تم نقلها إلى منزلها في سيارة إسعاف دون الاعتداء عليها.

وقالت في مذكراتها أن نصر هدّد زوجها (مدير تصوير سينمائي شهير) وأجبره صلاح نصر على الطلاق والزواج منها تحت التهديد بإيداعه في مستشفى الأمراض العقلية، إن لم يطلقها حتى يتسنى لنصر الزواج منها، وهي أم خمسة أبناء، بل وأرغمه على التوقيع بنفسه على عقد الزواج وتوقيع وزير الداخلية وقتها عباس رضوان.

تقول اعتماد خورشيد في مذكراتها: "قدر لي أن أكون بالقرب من صلاح نصر أربع سنوات كاملة لمست خلالها قوة الانحراف الذي ساد مصر، كان صلاح نصر يستطيع فيها فعل أي شيء من دون حساب أو رادع قانوني، فقد كان هو القانون، كانت خطته تعتمد على تسجيل الهمسات، فزاد استيراد أجهزة التنصت والرقابة والتصوير الخفي لكل الناس"

ما سمي في أوراق القضية باستخدام "العنصر النسائي"، كان العمل به قد بدأ حوالي عام ١٩٦٢، وكانت خطة نصر تشمل كما ورد في التحقيقات ومذكرات خورشيد "ارتكاب جنايات هتك عرض باستغلال وسائل التواصل الفوتوغرافي السرية في استدراج بعض النساء/ الفنانات والتقاط صور فاضحة لهن بطريقة الخديعة في مكان أعد لهذا الغرض، ثم تهديدهن والسيطرة عليهن ليتمكن من اخضاعهن لشهواته الخاصة".

وحين سألت اعتماد خورشيد عما إذا كانت تمارس حقوقها وواجباتها كزوجة لصلاح نصر أجابت: إن هذا الآخر لا يصلح لأن يكون زوجاً لأنه "مثلي الجنس". ونوهت بأنه حاول أن يستغل علاقتهما في الوسط الفني للإيقاع بالفنانات ومنهم لبنى عبد

العزير إلا أنها نجحت بحمايتها لأنها كانت صديقتها، وخدعته بأن أخبرته بأنها مصابة بمرض السل.

الفنانة مريم فخر الدين أعلنت في حوار صحفي مع محمد بديع سريه كيف أن رجلاً خطيراً من أصحاب النفوذ في الستينات رمزت له بحرفي (ص.ن) طاردها. وقالت إنه حاول إخضاعها بالضغط والإرهاب والتهديد “ولكني حاربت به بأسناني وأظافري”.

وعن حقيقة علاقتها بصلاح نصر ومواقفها منه كشفت الفنانة مريم فخر الدين أن الحكاية بتفاصيلها حدثت بالإسكندرية حينما شعرت بالملل من القاهرة وكانت وقتها مازالت متزوجة من الدكتور محمد الطويل وحامل منه في نجلها محمد.

قالت: وكنت لا أعمل، وهو مشغول دائماً في عمله، فتركته بالقاهرة وسافرت للإسكندرية وهناك التقيت صديقتي (زيزي) أعز صديقة لي في المدرسة الألمانية ووجهت لي الدعوة على العشاء معها فاعتذرت لعدم وجود السيارة معي.... فأرسلت لي سيارتها في المساء ووجدت السيارة تتوقف أمام فيلا صغيرة من دورين لها باب خشبي.

وعند دخولي لم أجد زيزي في استقبالي فقد شاهدت أربعة رجال مفتولي العضلات وفوجئت بوجود صلاح نصر فابتسم لي وقال: شفت أعرفت أجيبك إزاي؟ فأدركت أن زيزي تعمل لحسابه فشعرت برعب شديد وقلت له: لو لم تحضرني أنت فمن يستطيع إذا؟

وقلت له: معقول هؤلاء الرجال سيحضرون الحوار بيننا فأمرهم بالانصراف وأعطيته الأمان إلى أن انشغل بشيء، وفتحت الشباك وقفزت منه وعدت للقاهرة.

وقالت: إن اعتماد خورشيد.... سيعاقبها الله على كل ما تقوله وتفعله فقد تجنت على الجميع وقالت كلاماً لم يحدث ولم يكن منطقياً أو مقبولاً ونشرت أشياء لم تحدث لتحقيق الشهرة التي فشلت في تحقيقها في الماضي بالرغم من كل ما سعت لفعله لتلفت الأنظار نحوها وإن شاء الله عقابها عند الله سيكون كبيراً على كل ما قالت في حقي وحق الكثيرين.

فيما كشفت الفنانة زبيدة ثروت، خلال استضافتها ببرنامج "بوضوح" مع الإعلامي عمرو الليثي أيضًا تمسكت بأن جهاز المخابرات برئاسة صلاح نصر، في فترة الستينيات، كان يضغط على الفنانين حتى يتم استخدامهم في أعمال خاصة.

وتروي "زبيدة"، حكايتها مع جهاز المخابرات عندما تلقت اتصالًا تليفونيًا وجاء ضابطين لمقابلتي، وقالوا لي إن صلاح نصر يريد أن يقابلك للإجابة عن بعض الأسئلة، وذهب والدي معي في تلك الزيارة، مضيفة: ذهبنا إلى المكتب في مصر الجديدة وجاء شخص وطلب مني الدخول إلى مكتب صلاح نصر، وطلب من والدي ألا يدخل معي فرفضت ورفض والدي فتركنا ثم عاد إلينا وطلب منا الدخول.

وتابعت: "دخلت المكتب وكان صلاح نصر جالسًا، ولم يقف لاستقبالنا أو الترحيب بنا بل سألني أنت تعرفي (على شفيق) وزوجته الفنانة (مها صبري) فقلت نعم"، ثم عاود "نصر" السؤال لماذا ذهبت إلى بيته ومين كان بيروح أحمد رمزي ذهب هناك؟، قلت له لم أره هناك وقت ما روحت.

وقالت زبيدة؛ "صلاح نصر وجدني لسه صغيرة (عيلة)، ولم أعجبه، ووالدي جاء معي وهو لواء في البحرية، وهذه هي المرة الوحيدة التي ذهبت فيها إلى المخابرات ولم يتصلوا بي مرة أخرى".

وقالت فاتن حمامة في حديث صحفي لها منشور في مجلة المصور عدد ١٢ أبريل ١٩٩١: جاءني رجال من المخابرات عن طريق شقيق فنان يعمل في الاستعلامات، ومعه كتب غريبة عن الجاسوسية وطلب مني قراءتها.

وقال لي: إننا نثق فيك وأنت لن تتكلمي بالرغم من أننا نعلم أن لك أشقاء يتكلمون، ومن أجلك أنت لم نؤذ أحدا منهم تهديدنا كان مباشرًا تقريبًا، طلب مني التعاون.

فسألته كيف؟ فقال أبدا فقط اقرئي هذه الكتب ومضى، قرأت أحد هذه الكتب ولم أتم، أسبوع لم يغمض لي جفن، وكرهت النظام كله. وسافرت ولم أعد لمصر إلا بعد وفاة عبد الناصر.

ويؤكد كلامها سعد الدين وهبة... حين كان رئيسا لمجلس إدارة الشركة العامة للإنتاج السينمائي العربي «فلمنتاج» في يوليو عام ١٩٦٦... حين استدعاه زكريا محيي الدين رئيس الوزراء «آنذاك» وقال له: إن الرئيس عبد الناصر يقول إن فاتن حمامة ثروة قومية لا بد أن تعود إلى مصر بأي شكل وأن الرئيس مستعد لتنفيذ كل متطلباتها، ولم تعد؟!

وحول مدى صحة تجنيد سعد حسني في جهاز المخابرات العامة... قال إن سعد حسني تم تجنيدها في جهاز المخابرات بالفعل وكان صلاح نصر يرى أنها «عمليلة مخابرات خابية»، وأنها لم تكن تؤدي المهام التي أوكلت إليها بكفاءة لأنها كانت تهتم بحياتها الشخصية، ورغبتها أكثر من المهام الموكلة إليها.

وبحسب مذكرات خورشيد، كانت النجمة المصرية سعد حسني أكثر ضحايا نصر تعرضاً للأذية، فهذه «الرقيقة» كما تصفها خورشيد، جرى الاعتداء عليها وتصويرها لتسهيل تجنيدها، وتضيف عن حكاية «سندريلا الشاشة»، بأنه «جرى تصويرها بالقوة وتهديدها للرضوخ لأوامر السيطرة وتجنيدها بمرتب شهري، وعندما قللت من نشاطها في المجال الذي كلفت به، وكان ميدان السياسة العربية، جرى إخضاعها مرة أخرى بعد أن أرسل لها صلاح نصر أحد العملاء لينتحل صفة منتج سينمائي عربي ليتعاقد معها على فيلم مشترك تلعب بطولته، وقام الشيطان صلاح نصر باستدعاء قوادة معروفة لديه لتجنيد الممثلة الرقيقة، فاستأجروا لها شقة مفروشة لتعيش مع المنتج العربي المزيف واكتشفت أنه تم تصويرها بالصوت والصورة».

في يوم الأربعاء ١٩٦٨/٣/٦ الساعة ١٠ مساءً فتح محضر تحقيق برئاسة المستشار علي نور الدين رئيس مكتب التحقيق والادعاء والسيد البهنساوي أمين السر لسماع أقوال سعد حسني وقد حضرت ساعة افتتاح هذا المحضر وسألناها بالآتي:

س: اسمك، وسنك وعنوانك ووظيفتك؟.

ج: اسمي سعد محمد حسني سن ٢٤ ممثلة ومقيمة ١٧ شارع يحيى إبراهيم بالزمالك.

س: هل تردد عليك صلاح نصر في المنزل؟.

ج: أنا شفت صلاح نصر أول مرة في مكتبه وأذكر أنني استدعيت لمكتبه وسألني شوية أسئلة وقال لي إني لازم اشتغل معاهم وأن دي حاجة كويسة للبلد وأنا لا أخاف من حاجة بقصد أنه يطمئنني وبعد ذلك كنت سافرت للإسكندرية، والممثل "أحمد رمزي" بالصدفة دعاني في حفلة كان عاملها "علي شفيق" في بيته وأحمد رمزي هو اللي قال لي تعالي هذه الحفلة وعلي شفيق كان في هذا الوقت منفصل عن "مها صبري" ودي أول مرة كنت أشوف فيها علي شفيق، وفي هذه المرة قلت لعلي شفيق علي اللي حصل معاه والصور اللي أخذوها وقلت له أنا عاوزة الحاجات دي تتحرق لأنها تسيء إلي وقال لي ماتخافيش وإذا كنتي عاوزة تقولي أي حاجة لصلاح نصر أنا ممكن أخليكي تشوفيه، وقال لي إنه سيكلمني علشان يرتب لي مقابلة مع صلاح نصر وينهوا لي الموضوع بتاعي، وبعد ذلك كنا رجعنا لمصر وعلي شفيق اتصل بي وقال لي تعالي نروح لصلاح نصر علشان نخلص الموضوع بتاعك، وفعلا أخذني بالسيارة ورحنا لفيلا في الهرم وكان موجود هناك صلاح نصر لوحده

وقعدت معاهم هو وعلي شفيق، وأنا اتكلمت على موضوع الصور فصلاح نصر قال لي ماتخافيش خالص وماحدث حيشوفهم وابتدأ يسألني أسئلة شخصية أنا مرتبطة بحد أو لا وشعرت من كلامه أن المسألة مسألة إعجاب مش مسألة شغل، وحصل لي يومها خوف فطيع وشعرت بأني قد أرغم على شيء فأصبت بحالة نفسية سيئة وجلست أبكي فقاموا وروحوني البيت هو وعلي شفيق.

وبعد هذه المقابلة اتصل بي صلاح نصر تليفونيا في البيت كذا مرة وكان بيحاول أن يدعوني لمقابلته ويسألني فاضية امتي فحددت له ميعاد في البيت وجه زارني مرة، وفي هذه المرة أحضر معه الشيسوار الهدية، وكان يحاول يسألني أسئلة أفهم منها أنه عاوز يعمل علاقات معاه، وأنا كنت أفهمه أنني مش مستعدة لهذه العلاقة وفهم هو أنه مافيش تجاوب فانقطع عن الاتصال بي.

س: هل حصلت منه محاولة للاعتداء عليك في مقابلة الهرم؟

ج: اللي حصل كان مجرد كلام يمهّد به علشان عاوزني استلطفه ولكن أنا كانت حالي النفسية وحشه وكنت أبكي فانتهدت القعدة.

س: ما الذي جعلك تفهمين أن اتصال صلاح نصر بك انقلب إلى مسألة إعجاب وليس مسألة عمل؟
ج: فهمت ذلك طبعاً من كلامه وتصرفاته معي.

الصحفي المعروف مصطفى أمين كان من ضمن المطلعين على ملف تجنيد "العنصر النسائي"، وخصوصاً الفنانات في المخابرات المصرية، وقبل أن تعلن اعتماد خورشيد كل كواليس هذا التجنيد أمام محكمة الثورة وأمام الرئيس جمال عبد الناصر في منزله ولاحقاً في مذكراتها.

وبحكم الصداقة التي جمعت بين مصطفى أمين والفنانة شادية، علم منها بكواليس العالم المظلم لصلاح نصر ونجح في حماية صديقته شادية من مخالفه حتى لفق له نصر تهمة التآمر مع أمريكا ونجح في سجنه لفترة كما تذكر اعتماد خورشيد في مذكراتها.

أمين يصف المطاردات التي تعرضت لها خورشيد من نصر: "أخذت ابنها وهربت إلى بيروت ولم يكن معها سوى ١٣ جنيهًا مصريًا، وقالت أنها سجلت هي ووالدتها أحاديث الرجل الخطير التليفونية وتهديداته، وأنها اضطرت أن تبقى في بيروت أربع سنوات بعيدة عن مصر لأن المسؤول الكبير كان يطاردها بشراسة".

تقول اعتماد في مذكراتها أن "القدر أنقذ أربع فنانات معروفات من قبضة صلاح نصر، وهربن بعد أن حاصرهن بشباكه، وهنّ: لبنى عبد العزيز وفاتن حمامة وشادية وليلى رستم، "شعرت فاتن بما يدور حولها وبدأت تتصرف بسرية شديدة وقررت أن تصفى كل أعمالها وثروتها وتهاجر إلى باريس، وهكذا فعلت هند رستم وتركت مصر إلى لبنان وعادت بعد سجن صلاح نصر لـ ١٥ عامًا".

ربما أصبحت خورشيد حسب الروايات المختلفة عميلة للاستخبارات في عام ١٩٦٤، وحينها كما تدعي بدأت علاقة نصر بها. مذكرات خورشيد، تجمع بالتأكيد بين عناصر الإثارة والسياسة والعمل السري للاستخبارات، وبين فضائح مشاهير الفن والسياسة، وبين الجنس والفساد واستغلال النفوذ. في المحصلة كانت تلك "وجبة" لا يمكن توقع كساد سوقها بأي حال. وفي حين أن صدق ما ورد في هذه المذكرات يعتمد

في غالبته على مصداقية صاحبها فقط، إلا أن أغلب قرائها كانوا أميل للرغبة في تصديقها في نهاية المطاف .

مما سبق نرى أن هناك انحراف هيكلي وممنهج وقع بالفعل في جهاز المخابرات خلال فترة الستينيات، وثقته تحقيقات النيابة العامة المصرية، واعترف به قادة النظام (بمن فيهم عبد الناصر في بيان ٣٠ مارس)، وصدرت به أحكام قضائية باتة ضد صلاح نصر ومساعديه بتهمة التعذيب، الابتزاز، واستغلال النفوذ.

وكان عبد الناصر قد أمر باعتقال نصر وقُدم للمحاكمة، في مايو/أيار ١٩٦٨، الوقائع الأساسية في القضية كانت تدور حول استخدام فنانات معروفات، ونساء أخريات، كعنصر استدراج وإغراء لعملاء محتملين من ذوي المناصب والنفوذ في دول أخرى، أو داخل مصر «الدعارة الوطنية».

وجاء في البند الثالث من قرار اتهام صلاح نصر - في قضية انحراف المخابرات بعد الهزيمة - أنه ارتكب جنایات هتك عرض باستغلال وسائل التصوير الفوتوغرافي والسينمائي السرية في استدراج بعض النساء والتقاط صور لهن بطريق الخديعة في مكان أعد لهذا الغرض للتوصل بذلك إلى تهديدهن والسيطرة عليهن ليتمكن من إخضاعهن لشهواته الخاصة.

وأمام المحكمة - التي كان يرأسها حسين الشافعي - قال محامي صلاح نصر الأفاق الدكتور (علي الرجال): "إن هناك فارقاً له وزنه، هو أنه لا يجوز الخلط بين العمل المباح وغير المشروع، فقد يكون العمل مباحاً ولكنه غير مشروع، كالدفاع الشرس مثلاً... فهو في الأصل عمل غير مشروع ولكن القانون أباحه.. إذن فهناك فرق بين الإباحية والمشروعية ... وأولئك الذين يعيرون على المخابرات استخدام السيدات في أعمال التجسس أو أعمال السيطرة على العملاء، يقعون في الخطأ، ذلك أنهم يتناسون هنا الفارق بين المباح والمشروع، وبين مصلحة الدولة التي يباح من أجل سلامتها كل شيء".

أحد العوامل الرئيسية التي أدت إلى أن يكون لاعتماد خورشيد مكانة خاصة في القضية، وكذلك إلى أن تحظى مذكراتها لاحقاً بهذا الاهتمام الاستثنائي، كان إعلانها أنها كانت زوجة لصالح نصر طيلة أربعة أعوام، وقدمت لإثبات ذلك عقد زواج عرقي. وتمت إدانة صلاح نصر في قضية انحراف المخابرات بالسجن لمدة ١٥ سنة، وحكم عليه أيضاً لمدة ٢٥ سنة في قضية مؤامرة المشير عبد الحكيم عامر. لكنه لم يقض المدة كاملة، إذ أفرج عنه الرئيس الراحل أنور السادات في ٢٢ أكتوبر ١٩٧٤ ضمن قائمة أخرى وكان ذلك بمناسبة عيد النصر.

إنها رحلة مع "الشيطان" كما وصفتها في كتابها الشهير "شاهدة على انحرافات صلاح نصر". ولنحو ٤ سنوات امتدت "الرحلة الشيطانية" إلى أن انتهت بالهزيمة أمام إسرائيل ومثول مدير مخابرات البلد المهزوم أمام ما عُرف بمحكمة الثورة، ورغم انتهاء العلاقة بين نصر وخورشيد فإن الأخيرة ظلت تحكي تفاصيلها حتى انتهت رحلة حياتها، إثر إصابتها بفشل في وظائف الرئة.

صفوت الشريف وزير الإعلام الأسبق

صفوت الشريف، وزير الإعلام ثم رئيس مجلس الشورى في عهد مبارك، وأخطر رجاله، وصاحب فضائح لا تنتهي وارتبط اسمه بمحاولات قتل ٤ فنانين، وهم: "عمر خورشيد، اعتماد خورشيد، سعاد حسني، وعبد الحليم حافظ"، وكانت اعتماد خورشيد هي خزينة السر التي حوت أعمال الشريف وهي التي فضحته بعد ثورة يناير، فقد كانت زوجة رجل المخابرات الراحل صلاح نصر في عهد الرئيس جمال عبد الناصر، والتي أكدت أنه تم حبسه في قضية انحرافات المخابرات المصري ١٩٦٨

لقد حظيت تصريحات المنتجة السينمائية المصرية اعتماد خورشيد الأخيرة في برنامج "أنا والعسل" الذي يقدمه الإعلامي اللبناني نيشان، باهتمام كبير، علماً أن معظم ما جاء فيها كان تكراراً لما سبق وأنها أعلنته في وقت سابق.

فقد كررت خورشيد اتهامها لوزير الإعلام المصري الأسبق صفوت الشريف بأنه كان "يبيع النساء".

ووصفت خورشيد "الشريف" بأنه "قواد" كان يبيع النساء في الخارج، حيث أكدت أنه كان يأخذهن "للبيع" في لبنان.

وكشفت اعتماد خورشيد أن "نشاط صفوت الشريف لم يقتصر على الرئيس المخلوع فحسب، بل امتد لينجح بالسيطرة على العديد من الشخصيات البارزة التي شغلت مناصب حساسة في البلاد، مشيرة الى أنها حاولت فضحه عبر كتاب أصدرته في اليابان يحمل معلومات تتحدث عن أسرارهِ وفضائحه، إلا أنه صادر هذا الكتاب.

كان محمد صفوت الشريف متهما في قضية انحراف المخابرات ورئيسها صلاح نصر والتي أحيل بسببها الشريف إلى التقاعد وعمره لم يتعد عاما ٣٥

وأعادت اعتماد خورشيد إلى الأذهان في اللقاء التلفزيوني السابق حين أشارت إلى أنها لاحقت صفوت الشريف قضائياً في قضية المخابرات إلى أن تم سجنه، لكنها فوجئت بأنه بعد الإفراج عنه شغل منصب وزير الإعلام في مصر، واصفة الفترة الزمنية التي حكم فيها حسني مبارك البلاد بـ "الألعن"، على الرغم مما قاسته أثناء فترة حكم الرئيس جمال عبد الناصر.

ورداً على سؤال حول قدرة صفوت الشريف على الصعود بهذا الشكل إلى أحد أكثر المناصب حساسية في الحكومة المصرية؟ قالت اعتماد خورشيد: إن السر في ذلك يكمن في أنه استخدم الأشرطة الجنسية لتحقيق هدفه، وهو الأسلوب ذاته الذي اتبعه مع الممثلة الراحلة، ساندريلا الشاشة العربية سعاد حسني، وهو ما سبق وأن أعلنته خورشيد أيضاً، منوهة بأنه لا يزال يحتفظ بهذه التسجيلات مما يجعل كثيرين يخشونه.

كما كشفت سر الطريقة التي جعلت الشريف ينجح بتجنيد سعاد حسني لصالحه بأنه خدعها ثم التقط لها صوراً مع عدد من الرجال، وذلك بهدف إجبارها على العمل مع المخابرات المصرية.

فيما تتحدث قصص أخرى عن إعطاء صلاح نصر أوامر إلى صفوت الشريف الذي كان ضابطاً وقتها في المخابرات أن يجنّدها بتصوير فيلم جنسي لها من دون أن تعلم، وقام بإرسال رجل من المخابرات مدعياً أنه فرنسي لقضاء ليلة مع الفنانة الراحلة مقابل ٣٠٠ جنيه في شقة بمصر الجديدة، ثم يقتحم صلاح نصر الغرفة بنفسه ضابطين

"السندريلا" متلبسة بممارسة الرذيلة، وتتم مساومتها للعمل معهم خلال القمة العربية بالإسكندرية.

وقالت اعتماد إن سعاد حسني قتلت بعدما اتصلت بها لتخبرها أنها لجأت للصحفي، رئيس قطاع الأخبار السابق عبد اللطيف المناوي لكتابة مذكراتها، نافية ما سبق وأن صرحت به أن تكون السندريلا قد انتحرت كما أشيع بعد وفاتها. بل واتهمت المنتجة السينمائية الراحلة "الشريف" بأنه من وقف وراء مقتل سعاد حسني في لندن عام ٢٠١١، وتم الترويج حينها لكون حادث وفاتها انتحارا، واصفة إياه بالتلميذ المتفوق في مدرسة نصر.

كما أشارت في سياق الحوار إلى أن سعاد حسني سافرت إلى العراق أثناء العمل على فيلم "القادسية" وأنها كانت ستزور صدام حسين الذي كان مغرماً جداً بها وأنه كانت تجمعها بها علاقة غرامية. وقالت خورشيد إن كثيرا من الفنانات تعرضن لابتزاز "الشريف" من بينهن الفنانة الراحلة سعاد حسني التي تم تجنيدها لمراقبة الرئيس العراقي الراحل صدام حسين، حسب زعمها.

ولقد أجريت التحقيقات ١٩٦٥ برئاسة عبد السلام حامد أحمد رئيس النيابة وأمانة سر محمود عباس بمقر محكمة الثورة وضمت ورقة مليئة بالفضائح المخزية لأحد ممن صاروا رموز نظام مبارك.

قال الشريف في بداية التحقيقات أنه انضم إلى جهاز المخابرات عام بعد ١٩٧٥ أن وكان ضابطا بالجيش وتدرج كثيرا حتى أصبح مسئولا عن عمليات السيطرة «الكونترول» التي قام بها قسم المندوبين بالجموعة ٨٩ منذ عام ١٩٦٣ عن طريق تجنيد عناصر من السيدات لاستغلالهم في هذه العمليات.

وأوضح الشريف كيف نشأت هذه الفكرة وأسماء سائر ضباط المخابرات الذين أسهموا في تنفيذها والدور الذي تولاه في هذا الشأن وأسماء السيدات اللاتي وقع عليهن الاختيار والأماكن التي تم فيها تنفيذ العمليات.

وقال إن وظيفته تقوم على إعداد المكان المناسب وتجهيزه لتنفيذ عمليات الكونترول فيه وترشيح المندوبات اللاتي يصلحن لهذا العمل وقام بتأجير شقتين وزودهما

بأحدث آلات التصوير وجهازهما لإعداد العمليات كما أنه قام بتأجير فيلا مفروشة بالإسكندرية في ميامي لإجراء عمليات الكنترول الخاصة بتغطية مؤتمر القمة وأجريت فيها حوالي ثلاثين عملية على وفود العرب.

وأكد الشريف في التحقيقات إن أول عملية قام بها خاصة بسيدة روسية الجنسية تدعى "جينا ريتا" وكانت تعمل مدرسة بمدرسة الألسن وتعمل علاوة علي ذلك في السفارة الروسية وكانت علي علاقة بمترجم اللغة الروسية في قسم المندوبين "كمال عيد" الذي قدم تقريراً له عن هذه العلاقة، فنشأت عنده فكرة البدء باستخدام هذه السيدة في إجراء عملية الكنترول تمهيداً لتجنيدتها للعمل لصالح جهاز المخابرات داخل السفارة الروسية، وقمت بتنفيذها وكنت متواجداً في حجرة العمليات بالشقة وهي منفصلة عن الحجرة التي تجري فيها العملية الجنسية وكان أحمد الطاهر يتولى عملية التصوير وأنا كنت أساعده فيها.

وقال: إن العملية الثانية هدفها مستشار السفارة اليوغسلافية في ذلك الوقت وقد نجحت المندوبة ليلي فخر الدين في التعرف عليه وأبلغتني بذلك في استخدامها في عمل كنترول عليه باعتبار أن الغرض الأساسي من عمليات الكنترول هو الاستفادة منها في أعمال المخابرات وقمت العملية ولكنها لم تستغل.

وقمت بعد ذلك بعمليات أخرى على عدد من الأجانب وجميعها مسجلة في سجل العمليات المحفوظ بأرشيف العمليات الخاصة وقمنا بتوسيع النشاط وجندت حوالي أربعة أو خمسة من السيدات خلال عامي ١٩٦٣ و ١٩٦٤ ومن حوالي مارس سنة ١٩٦٣ صدرت تعليمات من "حسن عليش" بأن يكون هناك ضابط مسؤول عن العمليات الخاصة هو "محمود كامل شوقي" وبدأ يقوم بمهمته كمسئول عن العمليات الخاصة تحت إشرافي لأنه كان يتبع قسم المندوبين الذي رأسه.

وأكد الشريف أنه قام بعملية خاصة لتجنيد الممثلة سعاد حسني تمت في حوالي أكتوبر بأمر من حسن عليش وبناء علي ذلك اتصل محمود كامل شوقي ١٩٦٣ بإحدى مندوباته وتدعى "ريزي" وفهم منها أن الممثلة ليلي حمدي هي اللي تقدر تجيب سعاد حسني مقابل مبلغ ٣٠٠ جنيه وأنها ما تحبش تتصل بمصريين وإنما اتصالاتها بتكون

بأجانب أو عرب واستخدمت ممدوح كامل مترجم اللغة الفرنسية في قسم المندوبين ليتظاهر بأنه فرنسي وعلي هذا الأساس يتصل بسعاد حسني وحصل تعارف بين ممدوح وسعاد حسني عن طريق ليلي حمدي المشهورة برفيعة هانم وأعطاهما ٣٠٠ جنيه كنت قد سلمتها له من نقود قسم المندوبين واصطحبها إلي شقة مصر الجديدة وأجريت عملية الكنترول عليهما أثناء ممارسة العملية الجنسية معها.

وقال الشريف قمت أنا وأحمد الطاهر وصلاح شعبان بتنفيذ العملية من ناحية التصوير وحضر صلاح نصر رئيس المخابرات إلي غرفة العمليات بصحبة حسن عlish وأشرفا علي تنفيذ العملية واقتحمنا غرفة النوم وقمنا بضبط سعاد حسني متلبسة وعقب ذلك تم اصطحابهما إلي مبني الاستجواب بإدارة المخابرات وإيهامهما بأن الشخص الذي كان معها وهو ممدوح كامل هو جاسوس فرنسي وعرض عليها يسري الجزار في مبني الاستجواب أن تعمل مع المخابرات مقابل ستر فضيحتها وقد وافقت علي ذلك وحررت بناء علي إقرار بالموافقة علي العمل مع المخابرات وقام صلاح نصر بصرف مكافأة قدرها مائتا جنيه وأشار إلي أنه قابل سعاد حسني في المعصورة وطلب منها العمل أثناء مؤتمر القمة الذي عقد في الإسكندرية في صيف ١٩٦١ فقالت انها مشغولة وستحاول ولم تعمل بالفعل وبعد شهر جاءني تعليمات بوقف الاتصال بها نظراً لكونها تردد أنها علي اتصال بالمخابرات مما يخل بأمن الجهاز.

وقيل أنه تم تصوير ١٨ فيلماً محلاً للفنانة سعاد حسني وهي مخدرة..

وأعقب عملية سعاد حسني عملية أخرى خاصة بشريفة ماهر في أواخر سنة بينها وبين كمال عيد وقد توليت أنا وأحمد الطاهر وصلاح شعبان تنفيذ العملية ١٩٦٣ ولم يحضر صلاح نصر أو حسن عlish في ذلك اليوم وكلفني حسن عlish بعمل كـنـتـرول على برلتي عبد الحميد وتسجيل ما يدور في شقتها إذ أن هناك ناس يترددون عليها لم يفصح عنهم واجتماعات مريبة تجري في شقتها وأجرنا فعلاً شقة أسفل شقتها لإجراء التسجيل، ولكن لم نتمكن لعقبات فنية.

وبعدها طلب مني عمل كـنـتـرول علي اعتماد خورشيد وفشلت في المرة الأولى نتيجة أن كمال عيد المكلف بالمهمة قال لها إنه رجل أعمال ليبي واتفق على مشاريع

لكنها رفضت إقامة علاقة بينها وبين أي شخص تربطه علاقة عمل ولكن تمكن كمال الهلباوي من أخذ اعتماد إلى شقة العمليات مقابل إعطائها مائة جنيه أخذها من فلوس قسم المندوبين وقمت بعملية الكنترول وتوليت أنا وأحمد الطاهر ومحمود كامل شوقي التنفيذ وبعد انتهاء العملية أخذ أحمد الطاهر الأفلام.

وفي عام ط١٩٦٥ طلب مني حسن عlish بعمل أفلام عن عمليات شنود جنسي بين سيدات عبارة عن أفلام سينما، وقال لنا إن المدير صلاح نصر يقول إنه عنده ناس يقدروا يبيعوا الأفلام دي في سوق بيروت وتجب لنا عملة صعبة وفهمنا من كلامه أن صلاح نصر مهتم بهذه العملية ويرغب في سرعة تنفيذها وبدأت في البحث عن شاذات لتلك المهمة وفشلت في البداية حتي عرفت أن إحدى المندوبات وهي سامية دياب عندها شنود جنسي فحسن عlish قال لي أدخل أي مندوبة ثانية عليها فاتصلت بنجوي الصواف وكلفتها بهذا الأمر ونظراً لأن العملية لم تتم لعدم تجاوب سامية دياب مع نجوي الصواف فقد أمر صلاح نصر بإعادة المحاولة وقال آمال فين البنت اللي كنتم قلتم إن عندها شنود جنسي وكلفت آمال حسين بالاتصال بسيدة من الإسكندرية لإتمام المهمة بعد معرفتي بشنودها وفي الموعد المحدد تولت آمال حسين إحضار البنت المذكورة إلى الشقة ودخلنا عليها نجوي الصواف وقمت بعملية شنود جنسي بين نجوي وبينها وصورناهما بالسينما والفيديو وقد تولي أحمد الطاهر التصوير وأنا ساعدته كما أنني قمت بعملية كنترول علي أحد ضباط المخابرات هو إبراهيم بغدادي مع المندوبة آمال فهمي وقمت بتصويره وحضر صلاح نصر عرض الشرائط عليه.

وفي ١٩٦٧ قبل العدوان بفترة قصيرة كلفني حسن عlish بالاتصال بمحمود كامل شوقي وأحمد الطاهر لمساعدتهما في إجراء عملية كنترول لمندوبة تدعي روحية شديد وقمت بالعملية بينها وبين المندوب كمال الهلباوي نظراً لأنها كانت بتلسن وتظهر صلتها بالمخابرات وبعدها كلفت بعمل كنترول آخر على مندوبة تابعة له تدعي "بوي" وهي إيطالية واشتركت مع محمود شوقي وأحمد الطاهر في عمل كنترول لها.

ومن ناحية أخرى في ١٢ يونيو ١٩٧٤ وصل للقاهرة الرئيس الأمريكي نيكسون بدعوة من السادات في استقبال خلده سجلات البيت الأبيض.

في هذه الزيارة قرر نيكسون مكافأة السادات بالكشف له عن مزيد من الأسرار عن سجلات المخابرات الأمريكية عن فترة عبد الناصر وفي استراحة الهرم سال نيكسون السادات بشكل مفاجئ: هل تعرف حكاية الأفلام الجنسية؟

ثم بدأ نيكسون يحكى من أسراره عن سبب العداء بين عبد الناصر وأسرة آل سعود والتي وصلت لرصد آل سعود ٢٠ مليون دولار لاغتيال عبد الناصر.. السادات نفى الكلام قائلاً: أن صلاح قبض عليه وحرق كل أفلامه إلا أن نيكسون فاجأه- أن هناك أفلام وأسماء لم تحرق ومازالت موجودة أفلامها وهي خاصة ببعض أمراء وضباط سعوديين.

السادات من جانبه قرر إعادة التحقيق وفتح الملف مرة أخرى.

في ١٤ مايو ٧٤ أمر السادات بالبحث عن الضباط الذين تورطوا مع صلاح نصر في هذه العمليات ووعدهم بالإفراج عنهم مقابل الحصول على هذه الشرائط فكان أول من تقدم بكل ما تحت يده من أوراق وأفلام وصور وقدمها للسادات "صفوت الشريف" الذى أفرج عنه في احتفالات أكتوبر ٧٤ وعين رئيس القسم الداخلي في الهيئة العامة للاستعلامات التي تعد واجهة التعامل مع الإعلام الأجنبي، والمؤسسة الثالثة في المنظومة الإعلامية المصرية بعد وزارة الإعلام واتحاد الإذاعة والتلفزيون وعند تشكيل السادات الحزب الوطني في ١٩٧٧، انضم الشريف إلى لائحة المؤسسين.

في ٣٠ مارس ١٩٧٧ رحل المطرب عبد الحليم حافظ أشهر مطربي مصر في القرن العشرين والذي كان مقرب لكل الحكام والزعماء العرب لدرجة أن الاستخبارات الغربية أطلقت عليه اسم "السلح السري" للرئيس عبد الناصر الأمر الذي أكسبه قوة ونفوذ جعلته بمنأى عن مضايقات صلاح نصر مدير المخابرات المصرية في فترة الستينيات وكذلك حلم كل فتاة في ذلك الوقت وقد عرف بارتباطه بالفنانة سعاد حسني ارتباطاً قيل أنه وصل لدرجة الزواج وطوال حياة عبد الحليم كانت سعاد حسني تتمتع بحمايته وصلت إلى درجة إجبار صلاح نصر بالابتعاد عنها خوفاً من نفوذ عبد الحليم ومكانته عند الرئيس عبد الناصر.

وعن هذه العلاقة حكى الدكتور هشام عيسى الطبيب الخاص لعبد الحليم والذي رافقه حتى موته أن صلاح نصر اتصل بعبد الحليم بعد أن كثر الكلام عن إعلان عبد الحليم الزواج من سعاد حسني ونصحها صلاح بالابتعاد عنها لأنه لا يليق بمطرب في مكانته وارتباطه بالرئيس عبد الناصر أن يتزوج من واحدة مثل سعاد، وعلى الفور اتصل عبد الحليم بالمشير عامر وحكى له كلام صلاح نصر وطلب تدخله للابتعاد عنه وعلى الفور أصدر المشير عامر تعليماته لصلاح بالابتعاد عن حليم نهائياً.

الأمر الذي اغضب صلاح نصر وأعاد الاتصال بعبد الحليم معاتباً أياه مؤكداً له أن دوافعه كانت مصلحته لقربه من السلطة ومن وقتها وخرج عبد الحليم من تحت سيطرة صلاح نصر بمعنى أن هناك من كان يحمي سعاد حسني.

وبعد موت عبد الحليم حل الموسيقار "عمر خورشيد" محله في حماية سعاد حسني فقد كان في قمة مجده وشهرته وكان يوصف بـ "ملك الجيتار" وفتى أحلام الفتيات في السبعينيات بالإضافة لعلاقاته مع أبناء الطبقات الراقية والسياسيين، وكانت تدور حوله الشائعات ولا تنتهي ومثلما فعل حليم من قبل في محاولته لكف صلاح نصر عن أذى سعاد حسني قام عمر خورشيد هو الآخر بمحاولة كف صفوت الشريف عنها فسعاد تذكر في أوراقها أن صفوت لم ينقطع عن مضايقتها أبداً بل إنه استمر في ذلك بعد رحيل حليم.. ولما علم عمر خورشيد ذهب إلي صفوت في مكتبه بالتليفزيون بعد أن أصبح رئيساً لاتحاد الإذاعة والتليفزيون وهدده بكلمات واضحة «سعاد ثاني لأ.. فاهم يا صفوت».

وبعد أن صار صفوت الشريف من مؤسسي الحزب الوطني - الديمقراطي طبعاً - جاءته فكرة وجد ثغرة سوف يتمكن بها من النيل من عمر خورشيد.. وهو ما حدث فعلاً.. عندما قام عن طريق بعض فنانين وفنانات يعملون لحسابه بإطلاق شائعة أن عمر خورشيد علي علاقة حب مع ابنة السادات وبعدها تم تدبير قتله في حادث.

أيضا صرحت اعتماد خورشيد أن صفوت الشريف كان يحقد على عازف الجيتار المصري الأشهر عمر خورشيد ابن زوجها المصور السينمائي أحمد خورشيد، بسبب صداقته القوية بسعاد حسني بعد انفصالها عن عبد الحليم حافظ، وأنه كان يريد

الانتقام. مؤكدة أن عمر توفي في حادث سير مدبر من وزير الإعلام السابق عام ١٩٨١.

ومقتل عمر خورشيد أثار ضجة كبيرة في وقتها حيث تم دهسه بسيارة في شارع الهرم وكان معه في هذا الوقت زوجته والفنانة مديحة كامل وأثناء التحقيقات أكد الشهود أن السيارة التي دهست عمر خورشيد كانت تتبعه منذ الصباح ولكن تم قيد الحادث ضد مجهول.

وعقب وفاة "الشريف" في يناير/كانون الثاني الماضي، أعلن إيهاب خورشيد عن تلقيه العزاء في وفاة شقيقه عمر بعد أكثر من ٤٠ عاما على رحيله، وقال، في تصريحات صحفية لموقع مصرأوي، إنه رفض إقامة العزاء قبل ٤٠ عاما بعد الحادث الذي دُبر لقتل شقيقه، حسب تعبيره.

وأردف إيهاب "صفوت الشريف عذبنا ٥٠ سنة، أمي السيدة اعتماد خورشيد شهدت ضده في محكمة الثورة سنة ١٩٦٨، ونتيجة هذه الشهادة بعد ما بقي وزير انتقم منها ومن أولادها، ما حدث شيء أغرب من الخيال".

والجدير بالذكر أنه أواخر الثمانينيات، تعرضت أيضا الفنانة "شيريهان" لحادث مروع اضطرها لإجراء عدة عمليات جراحية مما أدى لتعطل مسيرتها الفنية عدة سنوات. وحسب الأوراق الرسمية فإن ما جرى كان حادث سير عاديا، أما على الألسنة فتنامى الهمس بأن الحادث مدبر، وأن المدبرين يقطنون القصر الرئاسي ويرفضون العلاقة العاطفية التي ربطت الفنانة بعلاء نجل مبارك.

لم يرض الرئيس وحرمة بعلاقة نجلهم بفنانة، فكان السبيل هو التخلص من الطرف منعدم السلطة في تلك العلاقة، هكذا كانت الأقاويل التي جددتها المنتجة السينمائية خورشيد عقب ثورة ٢٥ يناير/كانون الثاني.

وقالت خورشيد -التي تربطها صلة قرابة بشيريهان- إنها نصحت الأخيرة بالابتعاد عن "الحكام" حتى لا تتعرض للإيذاء من جانبهم، مؤكدة أنها لم تأخذ بنصيحتها.

وختاما يقول المنفلوطي رحمه الله:

الحُلُق هو الدمعة التي تترق في عين الرحيم كلما وقع نظره على منظرٍ من مناظر
البؤس، أو مشهد من مشاهد الشقاء.

هو القلق الذي يساور قلب الكريم ويحول بين جفنيه والاعتماض كلما ذكر أنه رد
سائلاً محتاجاً، أو أساء إلى ضعيفٍ مسكين.

هو الحمرة التي تلبس وجه الحبي خجلاً من الطارق المنتاب الذي لا يستطيع رده،
ولا يستطيع مد يد المعونة إليه.

هو اللجلجة التي تعري لسان الشريف حينما تحدثه نفسه بأكذوبة ربما دفعته
إليها ضرورةً من ضرورات الحياة.

هو الشر الذي ينبعث من عيني الغيور حينما تمتد يدٌ من الأيدي إلى العبث
بعرضه أو بكرامته.

هو الصرخة التي يصرخها الأبيُّ في وجه من يحاول مساومته على خيانة وطنه، أو
ممالأة عدوه.

الخلق هو أداء الواجب لذاته، بقطع النظر عما يترتب عليه من النتائج، فمن أراد
أن يعلم الناس مكارم الأخلاق فليحي ضمائرهم، وليث في نفوسهم الشعور بحب
الفضيلة، والنفور من الرذيلة بأية وسيلة شاء، ومن أي طريق أراد، فليست الفضيلة
طائفةً من المحفوظات تحشى بها الأذهان، بل ملكاتٌ تصدر عنها آثارها صدور الشعاع
عن الكوكب، والأريج عن الزهر. [النظرات للمنفلوطي، الضمير]

تلکم السياسة في الماضي والحاضر...

تلکم السياسة المعاصرة في كل زمان ومكان...

فأحب إلىَّ بعد كل هذا أن أكون سايسا من أن أكون أحد هؤلاء الساسة.

لعنة الله عليهم أجمعين إلا من اتقى الله.

جمع وترتيب

د/ خالد سعد النجار

alnaggar66@hotmail.com